الدكتور مصطفى عبد الواحد

الإيمان في القرآن

دار الرائد العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار الرائد العربي - بيروت - لبنان
ص.ب : ٦٥٨٥ - تلكس : LE ٤٣٤٩٩ رائد

الإيمان في القرآن

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ورسله. وبعد.

فهذا عرض مجمل لعناصر العقيدة في القرآن، وهي الإيمان بالله سبحانه وتوحيده في ذاته وصفاته وأسمائه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره..

وهي دراسة سهلة الأسلوب واضحة المعالم، لا تعقيد فيها ولا إغراب.. بعيدة عن التأثر بمناهج علماء الكلام الذي جارَوْا المناطقة والفلاسفة في أساليب بحثهم وناقشوا أفكارهم..

ولئن كانت دراستهم مناسبة لعصورهم.. فلسنا بحاجة إلى الخوض في هذه القضايا، لأن أمر العقيدة واضح في كتاب الله سبحانه أشد الوضوح يستطيع كل إنسان مهما كان حظه من العلم أن يتلقاه صافياً نقياً، لا لبس فيه ولا شائبة..

وقد شعرت بالفخر حقاً وأنا أعيش لحظات مباركة في تأمل هذا الجانب في كتاب الله سبحانه.. وأدركت عظم النعمة التي أفاضها الله سبحانه على الإنسانية بإنزال القرآن الكريم، وفيه جواب عن كل سؤال

وهداية من كل حيرة يقع فيها الانسان وهو يبحث في أمر العقيدة..

○ في هذا الكتاب الكريم ما يقنع العقل ويهز الوجدان ويحرك المشاعر.. ويفتح العيون لترى آيات الله سبحانه التي بثها في آفاق السموات والأرض.. ﴿وفي الأرض آيات للموقنين. وفي أنفُسكم أفلا تُبْصرون﴾.

○ فكيف تَصْدِفُ الإنسانية عن هذا الضياء... وكيف تتأبّى عن قبول الحق.. وكيف تُخْدَع عن هذا المنهج القويم.. إلى المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة؟!

□ إن إيمان المفكرين الغربيين بالإسلام - في السنين الأخيرة - لدليل واضح على أن العقيدة الإسلامية وحدها هي القادرة على أن تمد الإنسان باليقين الذي لا ريب فيه.. وبالحق الذي لا يقبل الانتفاء.. مهما وجهت إليه من الشبهات والأكاذيب..

□ وإن علينا معشر المسلمين أن نرجع الى منهج القرآن الكريم في عَرْض مسائل العقيدة والإقناع بها.. وأن نقدم ذلك المنهج في صورته الكاملة إلى الإنسانية.. إقامة للحجة.. وبياناً للطريقة.. ليهلك من هلك عن بينة ويحيا مَنْ حَيَّ عن بينة..

○ إن عصرنا الذي نعيش فيه، هو عصر العلم والإقناع لا يقبل فيه قول إلا بدليل.. وإن العقيدة الإسلامية في هذا العصر هي العقيدة التي تملك الدليل المقنع وللحجة القاطعة.. بينما لا تملك الأديان المحرفة والمذاهب المبتدعة دليلاً ولا حجة!

○ ولهذا يكثر عدد الذين يدخلون في الإسلام، في المجتمعات الغربية يوماً بعد يوم.. وأكثرهم يدخلون في دين الله بعد قراءة يسيرة لترجمة بعض آيات القرآن.. فكيف بهم لو أنهم قرأوا القرآن بلسان عربي مبين.. يؤدي إليهم دقائق المعاني ولطائف الإشارات التي لا يستطاع نقلها مع الترجمة؟!

□ ومن هنا فإن علينا - نحن العرب - أن ندرك نعمة الله سبحانه

علينا.. إذ أنزل كتابه بلغتنا.. وجعلنا قادرين بفضله على تأمل آياته واستجلاء معانيه: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وإن دراستنا للقرآن الكريم ينبغي أن تكون دراسة موضوعية.. تستجمع فيها الصورة الكاملة لكل مقصد من مقاصد القرآن.. كالعقيدة.. والعبادة والخُلق.. والإنسانية والأسرة والمجتمع، والمال والعلم وغيرها من القضايا الكثيرة من كتاب الله سبحانه.. وهذا ما أرجو أن يوفقني الله سبحانه، وغيري من الدارسين إلى الوفاء به، وقد كان البدء بالعقيدة، إذ هي القضية ذات المكانة الأولى في القرآن، لأنها الأساس الذي يقوم عليه صرح الإسلام.

وقد رجعت في هذه الدراسة الموجزة إلى كتاب الله سبحانه، متدبراً لآياته، واقفاً عند حد الصحيح في تفسير معانيه.. ولم أر فائدة من حشد الأقوال أو الإشارة إلى مناهج المفسرين، فإن الغاية هي تقديم صورة كاملة لعناصر العقيدة في القرآن، لا تقديم بحث من بحوث التفسير القرآني التي كثرت في القديم والحديث..

○ وأرجو أن يجد فيها كل مسلم ما يزيده إيماناً، وما يجعله قادراً على الإقناع بعقيدته والدعوة إليها.

أما خواطري حول الأسلوب الأمثل في دراسة العقيدة الإسلامية في هذا العصر.. فإني أؤجلها إلى كلمة الخاتمة، في نهاية هذا الكتاب.

والله سبحانه ولى التوفيق إلى كل خير والهادي إلى سواء السبيل، وهو نعم المولى ونعم النصير.

مكة المكرمة ربيع الآخر ١٤٠٥.

د. مصطفى عبد الواحد
الأستاذ بجامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿آمن الرسول بما أُنْزلَ إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمَنَ بالله وملائكتِه وكُتُبهِ ورُسُلِه لا نُفرِّقُ بَيْنَ أحدٍ من رُسُله وقالوا سَمِعْنَا وأطَعْنا غُفْرانكَ ربَّنا وإليك المصِير﴾.

« سورة البقرة ٢٨٥ »

الفصل الأول

«هو الله الخالق..»

□ البديهة الأولى في العقيدة الإسلامية: أن هذا الكون بكل ما فيه ومَنْ فيه مِنْ صنع خالق قادر حكيم.. متصف بكل صفات الكمال منزه عن كل صفات النقص..

□ وقد سلك القرآن مسالك كثيرة في إيقاظ العقول ولفت الأنظار للاستدلال على وجود الخالق سبحانه عن طريق التأمل في قضية الخَلْق والوجود..

ولتلك القضية مدى بعيد في «الكتاب» الكريم، إذ هي عبادة الفكر وجلاء البصر وزاد العقل والقلب، كما قال سبحانه: ﴿إنّ في خَلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خَلْق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النّار﴾[١].

فقد ذكرت مادة الخلق في هاتين الآيتين ثلاث مرات: فجاءت في صيغة المصدر مرتين، وفي صيغة الفعل مرة واحدة.

ونلاحظ أن جملة: «في خلق السموات والأرض» قد ذكرت بنصها

(١) سورة آل عمران ١٩٠ - ١٩١.

مرتين في هاتين الآيتين.

وذلك لتأكيد الاهتمام بتأمل الآيات المبثوثة التي يجتليها العقل في خَلْق هذا الكون العظيم الذي يَبْهر ويَرُوع بما فيه من آماد فسيحة ومجالات غريبة.. في أعماق البحار.. وآفاق الفلك.. وقمم الجبال وسهول الوديان.. وأجناس المخلوقات ما بين جامد ومتحرك.. وعاقل ومسخَّر لا عقل له.. فالمراد أن يلتفت العقل أعظم التفات إلى خلق السموات والأرض، ولهذا جاءت جملة «في خلق السموات والأرض» بهذا النص في آيتين متصلتين.. أولاهما تؤكد وجود الآيات في خلق السموات والأرض. وثانيتهما تصور المؤمنين وهم يتفكرون في هذا الخلق ويَسْتَجْلون هذه الآيات: «ويتفكرون في خلق السمواتِ والأرض» وبعد أن يبلغ بهم التفكر مداه وتمتلىء عقولهم وقلوبهم بدلائل القدرة الباهرة، تفيض ألسنتهم تسبيحا لله وتمجيداً فيقولون: «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار».

فهذه طريقة القرآن في بناء أساس العقيدة واليقين بوجود الله سبحانه: الانتقال من المحسوس إلى المعقول، والابتداء بمعرفة ظواهر الكون انتهاء إلى الاستدلال بها على وجود الخالق الواحد العظيم.

إن القرآن يعلمنا أن الإيمان بالله ليس صعباً على العقول ولا بعيداً عن فطرة الإنسان، بل إن كتاب الكون المفتوح صفحات واضحات في دلالتها على وجود الله سبحانه، شاهدات على وحدانيته وكماله.. وإنك لتجد هذا المعنى في أكثر سور القرآن، وخاصة في السور المكية التي عنيت بتثبيت أساس العقيدة وتأكيد حقائق الإيمان.. اقرأ قوله تبارك وتعالى:

﴿إن ربكم الله الذي خَلَق السموات والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغْشي الليلَ النهارَ يَطْلبه حَثيثا، والشمسَ والقمرَ والنجومَ

مُسَخَّراتٍ بأمره ألا له الخَلقُ والأمر تبارك اللهُ ربُّ العالمين﴾ [١] .

● فقد تضمنت هذه الآية تعريف العباد بخالقهم العظيم، فهو سبحانه خالق السموات والأرض في ستة أيام،وهو الذي قدَّر لهذا الكون أمره ودبر أحواله،ويكفي أن ينظر العاقل إلى ظواهر الفلك،وأن يتأمل تعاقب الليل والنهار في هذه الحركة الدائبة المطّردة التي لا تَفْتُر ولا تختلّ، منذ أزمان بعيدة موغلة في القدم لا يعلم بدايتها إلا الله سبحانه ولا يعلم نهايتها إلا هو..

فكلٌّ هذه الكواكب والنجوم على كثرتها وعظم خَلْقها وخطر شأنها وكِبَر جِرْمها.. مسخرات بِأمره سبحانه، فهو خالقها ومسخّرها ومنظم حركتها لا تستطيع أن تخالف ولا أن تتوقف..

فأي عقل يأبى قبول الإيمان بوجود الله سبحانه وهذه آياته في الأرض وفي السماء.. ومن ذا الذي يُنَازع في أمر الكواكب والنجوم، أو يدَّعي أن له شأناً في حركتها أو نظام سيرها؟!

ومن هنا ينتهي العقل السليم بعد تأمل هذه الدلائل إلى الايمان بتلك الحقيقة التي تضمنتها الآية في ختامها: «ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين».

● وهذه الجملة القرآنية التي ختمت بها هذه الآية أبلغ ردٍّ على مزاعم بعض الفلاسفة الذين جادلوا في شأن الألوهية بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، إذ زعموا أن الله سبحانه خلق هذا الكون ثم أهمله وتركه سُدًى، إذ لا يليق به سبحانه ـ كما زعم المفترون ـ أن يعني بشيء من هذه المخلوقات لنقصها،ولا يليق بكماله وعظمته أن يدبر شيئاً من أحوال

(١) سورة الأعراف ٥٤.

هذا الكون المتسم بالنقص الصائر إلى الفناء!

لكن القرآن قد نقض مزاعم هؤلاء المفترين.. وبين أن الله سبحانه لم يترك هذا الكون بعد أن خلقه، بل إن مِنْ شَواهد القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء، انفراده سبحانه بالخلق والأمر، فكل ظواهر هذا الكون ومقاديره صادرة عن إرادته سبحانه وتدبيره، لأن الخَلْق إيجادٌ من العدم.. والأمر هو التدبير والتسخير، وبهذا لا يكون لشيء من هذه المخلوقات صغيرها وكبيرها عاقلها وجاهلها مَدْخَلٌ في الخلق أو الأمر..

ولهذا يقطع العقل بعد هذا التأمل والنظر: بأن الله وحده هو المستحق للعبادة.. وهو المنعم على عباده بالخلق والتدبير:

﴿تبارك الله رب العالمين﴾

* * *

إن تناول القرآن لقضية الخَلْق تناول فريد، وإن عنايته بتوجيه العقل إلى النظر والتفكر في آفاق الكون ظاهرة في كثير من آياته. وبهذه العناية امتاز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية. وذلك لأنه نزل على خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله، ﷺ، بعد أن بلغت البشرية رشدها وبعد أن عرفت من أمر الكون الكثير، وسارت في طريق المعرفة في حضارات متعاقبة.. ومن هنا فقد اختلفت المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء ﷺ عن معجزات من سبقه من الأنبياء.. إذ كانت معجزته الكبرى التي تحدى بها كل منكر أو مجادل: عقلية علمية هي القرآن.. ذلك الكتاب الذي أهاب بالعقل أن يستيقظ من سباته وأن يتفكر في ملكوت السموات والأرض.. وهذا ما يفسر لنا العناية الواضحة، في القرآن، باقتياد الإنسان ليرى ويسمع في آفاق هذا الكون العجيب ما يزيده خشوعاً أمام حقيقة الألوهية.. فيمتلىء قلبه إيماناً بأن هذا الكون لم يأت وليد الصدفة كما

يدعي الجاهلون المتظاهرون بالعلم.. بل هو صنعة خالق حكيم قادر مدبِّر عليم.

وكلمة الصدفة هي التي يتشدق بها المجادلون بالباطل، فإذا سئلوا عن مصدر هذا الكون.. وعن تصورهم لبدء هذا الخلق.. قالوا إنها الصدفة التي أوجدت هذه العناصر ورتبت أحوال الكون على ما هي عليه! ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾

وقد رد القرآن هذه الأباطيل بما يقطع بفساد هذا المنطق الجاهل العاجز عن الإثبات والاستدلال.

فإن الكون كله، كما يبين القرآن، قائم في وجوده وأحواله على سنن أجراها الله سبحانه: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً[1]﴾، ﴿ولن تجد لسُنة الله تحويلاً﴾[2] أما الصدفة التي يتشدق بها الماديون الجاحدون، فقد تقع في أمر يسير.. لكنها لا تتكرر وفق قانون دائم ولا نظام مطرد، فكيف يكون خلق هذه الأرض ـ وهي أقرب الأشياء إلينا على هذا النحو المهيأ لحياة الانسان فيها ـ ناشئاً عن مصادفة؟! والعلم المادي نفسه لا يقبل وجود الأشياء على نحو مدبَّر مقصود الا نتيجة إرادة وحكمة وتدبير.. فهل يقبل المنكرون للإيمان بالله القائلون بالوجود بالصدفة.. أن يسلكوا هذا المسلك في زراعتهم أو تجارتهم أو صناعتهم.. وهل يمكن إيجاد طائرة أو إنشاء مصنع أو استنبات زرع بالصدفة المحضة..دون تدبير ومحاولة وجهد.. فكيف بهذا العالم أرضه وسمائه.. بل كيف بالأرض وحدها التي يعيش الإنسان على ظهرها، ولا يحيط بخفايا باطنها.. فكيف أصبحت هذه الأرض مبسوطة أمامه، ليستقر فيها ويَسْلك في فجاجها..

---

(١) سورة الأحزاب ٦٢.

(٢) سورة فاطر ٤٣.

﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ فأي جهالة وجحود أكبر من أن ينكر الإنسان وجود الخالق سبحانه الذي هيأ له المقام على هذه الأرض ومكنه من الحياة المطمئنة فيها، ودبر له ما يلزم لمعاشه وما يحتاج اليه من مرافق حياته.

• وقد استنكر القرآن هذا الجُرْم الشَّنيع الذي لا أهْوَل منه ولا أنكَر، وهو جحود خالق الأرض والسموات وإنكار نعمته. قال سبحانه: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خَلَق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسيَ من فوقها وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتَها في أربعة أيامٍ سواءً للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرضِ ائْتِيا طوعاً أَوْ كَرْهاً قالتا أَتَينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [1].

فهذه الدلائل الواضحة في خلق هذا الكون الذي لا يحيط البشر علم آفاقه.. تجعل إنكار وجود الخالق سبحانه وجحد آياته خطيئة لا ينالها غفران.. إلا باليقين والإيمان. ومن ذا الذي يسعه أن ينكر هذه الدلائل، أو يتعامى عن هذه الآيات.. إلا أن يكون قد سد على نفسه منافذ الفكر والتأمل.. وأهمل النظر والاستدلال كما قال الشاعر.

فَوا عجباً كيف يُعْصى الإلهُ
وكيف يجحده الجاحدُ!
وفي كلِّ شيء له آيةٌ
تدلُّ على أنه الواحدُ

• ولم يترك القرآن العقل البشري الباحث عن الإيمان دون أن يبين له

---

(١) سورة فصلت ٩ ـ ١٢.

المجالات التي ينبغي له ان يتأملها ويطالع آياتها.

فقد تحدث القرآن عن أجناس المخلوقات التي تظهر فيها دلائل الوجود الإلهي وآثار التدبير الحكيم، ويأتي الحديث عن خلق الإنسان في قمة ترتيب المخلوقات باعتباره الكائن المكلَّف الذي هيأ الله له أسباب الوجود ومقومات البقاء، ثم استخلفه في هذه الأرض ليظهر عمله ويجازى على اختياره كما قال سبحانه: ﴿إنا خلَقْنا الإنسانَ مِنْ نطفةٍ أمْشاج نّبتليه فَجَعَلْناهُ سميعاً بصيراً﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كلِّ شيء قدير. الذي خلق الموتَ والحياةَ لِيَبْلوكم أَيُّكُم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور﴾[2].

وسنتناول حديث القرآن عن خلق الإنسان وأطوار وجوده، بما يدل على إعجاز القرآن، ولكننا الآن ننظر إلى الصورة المجملة لأجناس الخلق التي أشار إليها القرآن.. فبعد الحديث عن خلق الإنسان، يأتي الحديث عن خلق السموات والأرض.. وقد يجمع القرآن خلق السموات والأرض في سياق واحد.. وقد يفرد كلا منهما بحديث.. ثم نجد الحديث المفصل في القرآن عما تحويه الأرض من جبال وأنهار وبحار مسخرة للإنسان.. كما نجد فيه الحديث عن بعض أجناس الحيوان والطير والحشرات.. والحديث عن الزرع والنبات والشجر والثمار..

وتلك هي عوالم المخلوقات: إنسان وحيوان وجماد ونبات وكواكب ونجوم.. وكلها قد تحدث عنها القرآن حديثا يملأ القلب خشوعا ويقينا.

---

(١) سورة الإنسان ٢.

(٢) سورة الملك ١ ـ ٢.

كما تحدث القرآن عن العناصر التي تتألف منها المخلوقات الحية، فقد أشار القرآن إلى العنصر الذي خُلق منه الإنسان: ﴿فلينظر الإنسان مِمَّ خُلِق. خُلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب﴾ (١).

كما أشار القرآن إلى أن الماء هو الأصل الذي صدرت عنه المخلوقات الحية على وجه الإجمال، فقال سبحانه: ﴿واللهُ خلق كلَّ دابةٍ من ماء، فمنهم من يَمْشي على بطنه ومنهم من يمشي على رِجْلين ومنهم من يمشي على أربَع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ (٢).

○ وتحدث القرآن عن الخلق الأول للإنسان، وهو خَلْق آدم من تراب، وخلق الجان من نار. أما الملائكة فقد بين القرآن صفاتهم وأحوالهم في عبادتهم وطاعتهم: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن وَلَدًا سبحانه بل عِبَادٌ مُكْرَمُون. لا يَسْبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيْديهم وما خَلْفَهم ولا يَشْفعون. إلا لِمَن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ (٣). ولم يذكر القرآن العنصر الذي خُلق منه الملائكة، وقد جاء ذلك في السنة النبوية المبينة للقرآن في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «خُلق الملائكة من نور وخُلق الجان من نار، وخلق الإنسان مما وصف لكم».

○ وبعد التراب والنار والماء، تحدث القرآن عن العنصر الرابع وهو الهواء، فوصف الريح وقوتها وتسخيرها لانتفاع الإنسان بها، أو تسليطها عليه لتكون وسيلة هلاك للمكذبين الجاحدين.

* * *

○ هذه لمحة مجملة عن أجناس المخلوقات التي أشار إليها القرآن، وفيها

(١) سورة الطارق ٥ ـ ٧.

(٢) سورة النور ٤٥

(٣) سورة الأنبياء ٢٦ ـ ٢٨.

أعظم دلالة على إعجازه، فما كان للعرب قبل نزول القرآن قدرة على تأمل آفاق الكون أرضه وسمائه على هذا النسق الجامع الذي لا يهمل شيئا من إطار الوجود إلا جاء منه بلمحة دالة، إن هذا الوعي بالكون وما فيه لا نجده بهذا الشمول في شعر شاعر ولا نثر ناثر، فمن أين لمحمد ﷺ أن يلمّ بهذا كله، لولا أنه وحي من الله سبحانه ؟!

○ وإن هذا الشمول في النظر إلى الكون لا يأتي عفو خاطر ولا يصدر عن اهتمام شاعر أو عناية أديب.. بل هو كلام خالق الكون سبحانه، الذي أحاط بكل شيء علما..

وإذا كان الإنسان يتحدث في علومه ومشاهداته عن الكون المحسوس أمامه باعتباره مشاهِداً له ومنتفعا به، فإن حديث الحق سبحانه عن الكون هو الحق الذي لا ريب فيه، فهو صانعه ومبدعه على غير مثال، وهذا ما يهدف القرآن إلى غرسه في القلب الإنساني حينما يصغي إلى كلام الخالق سبحانه عن هذا الكون العجيب.

يقول تبارك وتعالى: ﴿الحمد للهِ فاطر السموات والأرض جاعِل الملائكة رُسُلاً أولى أجنحةٍ مَثْنى وثُلاَثَ ورُبَاعَ يزيد في الخَلْق ما يشاء إنّ الله على كل شيء قدير﴾ (١) إنها دعوة لإيقاظ العقل للتأمل في مشاهد هذا الكون البديع، ليتهيأ للإيمان بالغيب، فالملائكة خَلْق لا يتصل بهم الإنسان ولا يخالطهم في حياته الظاهرة، ولكن القرآن يعلمه أن في خلقهم من العجائب والقُوَى ما يَبْهر ويُروع.. فهذه الأجنحة المتعددة مثنى وثلاث ورباع إشارة إلى طاقاتهم العظيمة التي زودهم الله بها لإنفاذ ما يؤمرون به.. والله سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء، فليس هناك قيد على قدرته سبحانه ولا شيء يقف أمامها: « إن الله على كل شيء قدير ».

* * *

(١) سورة فاطر ١.

إن حديث الخَلْق في القرآن يبين أنه المَدْخل إلى إثبات وجود الله سبحانه واليقين بصدور هذا الكون عن قدرته القاهرة.

* * *

القرآن يتحدى المنكرين:

□ لقد تحدى القرآن الجاحدين المنكرين أن يثبتوا أن لأحدٍ في هذا الكون غير الله سبحانه أيّ أثر في الخَلْق والإيجاد. ووقفوا أمام هذا التحدي عاجزين..فهل يستطيعون الزعم بأنهم خلقوا أنفسهم، فضلاً عن أن يزعموا أنهم خلقوا في هذا الكون ذَرَّةً واحدة؟!

تأمل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أمْ خَلقوا السمواتِ والأرضَ بل لا يُوقنون﴾ (١).

○ أما ادعاء الوجود بغير مُوجِد فهو زعم باطل لا يجرؤ على القول به عاقل.. فقد تقرر في العقول أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل مسبَّب لا بد له من مُسَبِّب..

وذلك هو المنهج القرآني في الاستدلال والإقناع كما يتضح من آيات سورة الطور: «أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون».. فهي تضع احتمالين أمام الجاحدين.. وعليهم أن يثبتوا واحدا منهما إن استطاعوا: فإما أن يكون خَلْقهم من غير خالق.. وإما أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم أو خلقوا السموات والأرض.. لكن أحدا من هؤلاء الجاحدين في القديم أو الحديث لم يستطع إثبات واحد من هذين الاحتمالين.. فهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا في هذا الكون صغيرا ولا كبيرا.. وإذن فليس أمامهم

---

(١) سورة الطور ٣٥ ـ ٣٦.

بحكم العقل إلا التسليم بأنهم مخلوقون مُحْدَثُون.. وأن الكون مِنْ حولهم مخلوق مُحْدَث.. وهذا ما يقتضيه العقل السليم بعد أن أحاطت به الحجة من كل جانب، لكن المؤسف أن هؤلاء المبطلين المعاندين لا يستسْلمون أمام هذه الحجج القاطعة، ولا يتخلون عن الإنكار والتكذيب: «بل لا يوقنون» فهم يتعامَوْن عن الآيات البينات ويصمون آذانهم عن نداء الكون الذي يشهد بقدرة خالقه العظيم.

وأولئك الجاحدون هم آفة البشرية في كل عصر.. وهم سبب ما يحيق بها من محن وكوارث: ﴿ولو أن أهلَ القرى آمنوا واتَّقَوْا لَفتَحْنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرضِ ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [1] فهم يعيشون في الكون محجوبين عن حقائقه معرضين عن آياته.. والقرآن ينعى على هؤلاء الغافلين عمى أبصارهم عن آيات الخلق في قوله سبحانه: ﴿أوَ لم ينظروا في ملكوتِ السموات والأرضِ وما خَلَق اللهُ من شيء وأنْ عسى أن يكونَ قد اقتربَ أجلُهم فبأيِّ حديثٍ بَعْدَه يؤمنون﴾ [2].

وإن دعوة القرآن إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض لتشمل مدًى فسيحًا لا حدود له.. فإن كل علوم البشر وثقافاتهم وتجاربهم واختراعاتهم لا تبلغ حد الإحاطة الشاملة بملكوت السموات والأرض.. وإن علمًا واحدًا من هذه العلوم ليستغرق الأعمار ولا يصل الإنسان فيه إلى مداه.. ثم انظر إلى هذا العموم في قوله سبحانه: ﴿وما خَلَقَ اللهُ شيء﴾ فإنها جملة مؤلفة من كلمات معدودة، لكنها تعني من أجناس المخلوقات وصنوفها ما لا يحصيه العد والحصر.. فهي آية واحدة من كتاب الله..

---

(١) سورة الأعراف ٩٦.

(٢) سورة الأعراف ١٨٥.

تحيط بهذه العوالم جميعا وتوقظ وعي الإنسان تجاهها.. وتنعي على الغافلين إهمالهم النظر فيها!

مغزى هذه الدعوة:

○ وقد كان لا بد لهذه الدعوة القرآنية أن يكون لها أثرها في موقف المسلمين من علوم الكون.. فقد فهم المسلمون مغزى هذه الدعوة.. فاتجهوا في عصورهم الواعية إلى علوم الكون يتعمقون معرفتها، استجابة للتوجيه القرآني بالنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء فبرعوا فيها وأفادوا الإنسانية بثمرات عقولهم ونتائج بحوثهم، وجعلوا من هذه العلوم الكونية وسيلة لتعميق حقائق الإيمان وتأكيد إعجاز القرآن..

○ وحينما أعرض المسلمون في عصور الوهن عن هدى القرآن ابتعدوا عن علوم الكون وتأخروا فيها، فضعفوا وتَقهقروا.. وسبقهم غيرهم، فأدى ذلك بهم إلى الذلة والهوان.. ولو أنهم حافظوا على هذا النهج القرآني لظلوا في مكان القيادة من الركب البشري، ولواصلوا تقدمهم في مجالات البحث والاكتشاف، كما كانوا في عُصورهم الزاهرة..

○ إن الماديين الجاحدين ليسوا أَوْلَى بعلوم الكون من المؤمنين الموقنين. بل إن الاشتغال بهذه العلوم استمدادًا من التوجيه القرآني، عبادةٌ لها ثوابها الجزيل، إلى جانب آثارها النافعة في حياة الإنسان.

أما الجاحدون.. فبأيّ لسان يتحدثون عن الكون ويزعمون المعرفة ببداية خَلْقه، حين يعللون لهذا الخلق بأباطيل لا أساس لها من العقل ولا حجة لها من العلم، وهم كما بين القرآن لم يشهدوا خلق هذا الكون بل كانوا في مرحلة العدم، ولم يشهدوا خلق أنفسهم.. ويغفلون عن أن آيات الخَلْق شواهد واضحة على وجود الحق، كما بين الكتاب الكريم.

عجز المنكرين:

▫ إن القرآن يتحدى طوائف الضالين والمشركين أن يثبتوا لغير الله سبحانه قدرة على الخلق والإيجاد من عدم. نجد ذلك التحدي في مثل قوله سبحانه: ﴿يا أيها الناس ضُرِب مثَلٌ فاستمعوا له، إنّ الذين تَدْعون من دون الله لن يَخْلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يَسْلبهم الذبابُ شيئاً لا يَسْتنقذوه منه ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ. ما قدروا الله حقَّ قَدْره إنّ الله لَقويٌّ عزيز﴾ [1].

وهذا المثل مضروب للناس جميعا، لإثبات ان الخلق لا يكون إلا بقدرة الله سبحانه، ولو كان المخلوق ذبابا! وهو في نظر الناس أحقر الحشرات وأهونها.. فلو اجتمع هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله على خلق ذبابة واحدة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.. ولو سلبهم الذباب شيئا بأجنحته الرقيقة ما استطاعوا استرداده.. فإذا كان هذا شأنهم مع الذباب.. فكيف بغيره من المخلوقات التي تتفاوت في قدراتها وخصائصها.. مع أن الآية في خلق الذباب والنمل وغيرهما من الحشرات الضعيفة لا تقل عن الآية في خلق الوحش المفترس والطير الجارح..

التلقيح في الأنابيب:

○ وفي عصرنا الذي بلغ العلم المادي فيه شأوًا بعيداً من التقدم والإحكام واكتشاف المزيد من خصائص المادة.. لم يتغير موقف البشر من العجز عن الخلق والإيجاد من عدم.. وما يزال هذا العلم بكل طاقاته عاجزا عن خلق ذبابة أو نحلة أو بعوضة!

أما ما يزعمه أدعياء العلم من استطاعتهم تلقيح النطف في الأنابيب،

---

(١) سورة الحج ٧٣ ـ ٧٤.

بعيدًا عن الأرحام، فهي خدعة لا حقيقة لها فإنهم لا يخلقون شيئا من عدم، بل يعمدون إلى نطفة رجل وبويضة امرأة فيضعونها في أنبوب مشابه في صفاته لرحم المرأة ثم يعيدون النطفة الممتزجة بالبويضة مرة أخرى إلى رحم المرأة، فإذا تخلق من هذا الالتقاء بين النطفة والبويضة مخلوق فإن ذلك لا يكون إلا بقدرة الله سبحانه الذي أودع سر الحياة في هذه الحيوانات المنوية التي تعد بالملايين! والله سبحانه هو خالق النطفة وخالق البويضة، وهو الذي قدر من تفاعلهما نمو الجنين وتطوره حتى يصل إلى كماله. فهل يستطيع هؤلاء أن يخلقوا من الجماد كائنا حيا، مستقلا بحياته، بغير نطفة ولا بويضة؟! وما دام التخلق يتم بين عنصرين مخلوقين لله سبحانه فلا بد أن ينسب الخلق لله سبحانه وحده.

وهكذا يبقى التحدي القرآني في قضية الخلق قائما في هذا العصر، رغم تقدم البحث والاختراع، وسيبقى قائما حتى تنتهي الحياة.

وعجيب أمر هؤلاء المغرورين الذين يتخذون من العقل سبيلا إلى الجحود والتكذيب، مع أن هذا العقل هبة من الله سبحانه لهم، وكل نتائج هذا العقل واستدلالاته إنما هي دليل على القدرة الإلهية التي وهبت الإنسان هذه القوى والمواهب.. فلا ينبغي للبشرية أن تعصى خالقها بنعمه، أو تجحده بعطاياه.. فلن يستطيع أحد أن يرد عليها هذه النعم إن سلبها الله إياها.. كما قال تبارك وتعالى:

﴿قل أرأيتم إنْ أخذَ اللهُ سَمْعَكم وأبصارَكم وختمَ على قلوبكم مَنْ إلهٌ غيرُ الله يأتيكم به، انظر كيف نصرِّفُ الآيات ثم هُمْ يَصْدِفُون﴾[1]. فالسمع والبصر والفؤاد نعم إلهية لا يملك الإنسان أن يهبها لغيره ولا أن يمسكها على نفسه، وآيات الخلق قائمة بنفس الإنسان وهي أقرب الأشياء

(١) سورة الأنعام ٤٦.

إليه.. وبإمكان الإنسان أن يصل من هذه الآيات القائمة بنفسه إلى معرفة خالقه العظيم الذي هو أقرب إليه من حبل وريده، كما قال سبحانه: ﴿ولقد خلقّنا الإنسانَ ونعلم ما توسوسُ به نفسُه ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد﴾ (١). ولهذا دعا القرآن الناسَ إلى رؤية هذه الآيات في أنفسهم وفي الكون من حولهم. قال الله سبحانه: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (٢).

الله هو الخالق

إن لفظ الخلق لا يجوز أن ينسب إلى أحد غير الله سبحانه حين يراد بهذا اللفظ الإيجاد من العدم، فالله سبحانه وحده هو الخالق بهذا المعنى: ﴿هو الله الخالقُ البارىء المصوِّر له الأسماءُ الحُسْنى﴾ (٣).

أما ما جاء في القرآن من الإخبار عن عيسى بن مريم عبدالله ورسوله، عليه السلام، أنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير، في قوله سبحانه: ﴿وإذ تخلقُ من الطين كهيئة الطير بإذني﴾ (٤) وقوله سبحانه: ﴿ورَسُولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلقُ لكم من الطِّين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله﴾ (٥) فإن المراد بالخلق في هاتين الآيتين التصوير والتقدير، أي صنع تماثيل على هيئة الطير من الطين ـ بإذن الله سبحانه ـ فإذا نفخ فيها عيسى عليه السلام كانت طيرا بإذن الله، أي بقدرته سبحانه، لتكون آية على نبوة عيسى ومعجزة دالة على صدقه.. فلم يكن عيسى بن مريم في الحقيقة خالقا لهذا الطير.. وإنما كان

(١) سورة ق ١٦.
(٢) سورة الداريات ٢٠ ـ ٢١.
(٣) سورة الحشر ٢٤.
(٤) سورة المائدة ١١٠
(٥) سورة آل عمران ٤٩.

مصورا لهيئته فقط.. أما الخلق بمعنى الإيجاد من العدم ونفخ الحياة في المخلوق فهو من أمر الله سبحانه وبقدرته وحده، وليس لعيسى بن مريم ولا لغيره مدخل في هذا الأمر العظيم، فلا لَبْس في هذا المقام ولا غموض، ولهذا جاءت كلمة «بإذني» مرتين في الآية الأولى، كما جاءت كلمة «بإذن الله» في الآية الثانية، ليتضح أنه لا يجوز وصف غير الله سبحانه بأنه خالق، أي موجد من العدم على غير مثال.. تبارك الله أحسن الخالقين.

يدبر الأمر:

○ لقد جمع القرآن بين الخلق والتدبير في آية واحدة: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ لكنه أفرد الحديث عن التدبير الإلهي لأمر الكون في أربعة مواضع من كتاب الله.

منها آيتان في سورة واحدة هي سورة يونس، إذ جاء ذكر التدبير في الآية الثالثة من السورة في قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبِّر الأمرَ ما مِنْ شفيع إلَّا مِنْ بَعْدِ إذنه ذلكم اللهُ ربكم فاعبُدوه أفلاَ تذكَّرون﴾[1]. ثم جاء ذكر هذه الحقيقة في صورة سؤال موجَّه للمشركين الذين كانوا يقرّون بالتدبير الإلهي بألسنتهم ثم يخالفون مقتضى هذا الإقرار في عبادتهم وتوجههم لغير الله سبحانه!

جاء ذلك في الآية الحادية والثلاثين من السورة نفسها، في قوله سبحانه: ﴿قل من يَرْزقكم من السماء والأرض أمْ مَن يملك السمعَ والأبصارَ ومن يُخْرج الحيَّ من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبّر الأمر؟ فسيقولون

(١) سورة يونس ٣

الله فقل أفلا تتقون. فذلكم الله ربُّكم الحقُّ فماذا بَعْدَ الحقِّ إلا الضلالُ فأنَّى تُصْرَفُون.﴾.

ثم جاء تأكيد هذه الحقيقة في سورة الرعد، وهي سورة حافلة بالمشاهد الكونية الموقظة لمشاعر الإنسان تجاه خالقه العظيم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿اللهُ الذي رفع السموات بغير عَمَد ترونها ثم استوى على العرش وسخَّر الشمسَ والقمر كُلٌّ يَجْري لأجلٍ مُسَمًّى، يدبِّرُ الأمرَ يفصِّلُ الآياتِ لعلكم بلقاءِ ربكم توقنون﴾[1]. ثم جاء تصوير هذه الحقيقة في صورة أخرى، في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿اللهُ الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع أفلا تتذكَّرون. يدبِّرُ الأمرَ من السماء إلى الأرضِ ثم يَعْرج إليه في يومٍ كان مقداره ألفَ سنةٍ مما تعدُّون. ذلك عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم. الذي أحْسنَ كلَّ شيء خَلَقه وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين﴾[2].

○ ونلاحظ أن هذه المواضع الأربعة التي جاء فيها ذكر التدبير الإلهي لأمر هذا الكون، قد سبقت بالحديث عن حقيقة الخلق حتى يتأكد في العقول والقلوب اقتران الخلق بالتدبير، ولتبطل فِرْية الذين زعموا أن الله سبحانه ترك الكون بعدما خلَقه.. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، إذ لا يليق بكمال الحكمة ترك أمر الكون مضطرباً بغير سُنّة يجرى عليها.. والواقع المشاهد يدل على كمال التدبير الإلهي الذي نظَّم أمور الكون وفق نظام محكم، لا يختل ولا يتفاوت وإلى هذه الحقيقة أشارت الآيات في سورة «يس» في قوله تعالى: ﴿والشمسُ تجري لِمُسْتَقرٍّ لها ذلك تقديرُ

(١) سورة الرعد ٢.

(٢) سورة السجدة ٤ ـ ٧.

العزيز العليم. والقمر قدَّرْناه منازلَ حتى عاد كالعُرْجون القديم. لا الشمسُ ينبغي لها أن تُدْرِك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبحون﴾[1]. والمراد بالتقدير في هذه الآية التدبير.. وقد جاءت لفظة التقدير بهذا المعنى في مواضع من كتاب الله سبحانه، منها قوله تعالى في سورة المرسلات: ﴿فقَدَرْنا فنِعْمَ القادرون﴾[2] أي دبرنا الأمور أو أردنا وقوعها بحسب تدبيرنا. كما جاءت لفظة التقدير بمعنى الخلق وفق مقدار تقتضيهِ الحكمة، كما في قوله سبحانه: ﴿وخلقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً﴾[3] وقوله تعالى عنِ الانسان: ﴿مِن أيِّ شيءٍ خلَقه. مِنْ نطفه خلَقه فقدَّره﴾[4].

• أما الآيات الأربع التي تحدثت عن التدبير الالهي للكون، فقد جاءت على نسق واحد وهو قوله تعالى: «يدبر الأمر» والألف واللام تفيد الاستغراق أي كل أمر في السماء والأرض، فليس في الكون أمر لا يقع في دائرة التدبير الإلهي الحكيم، وما دام الخلق كله لله، فلا بد أن يكون الأمر كله وفق إرادته سبحانه. وهذا هو أساس العقيدة التي تربط الإنسان بخالقه سبحانه، فيخصه سبحانه بالخضوع والعبادة والدعاء والرجاء، ولا يصرف شيئاً من ذلك لغير الله سبحانه، مهما بلغ من قوته أو جاهه.

وما أقوى هذه العقيدة الثابتة التي يرى فيها المؤمن الكون كله شاهداً على الوجود الإلهي، ويرى آيات الخلق والتدبير في كل ما يراه أو يحسّه. وشتان بين هذا المؤمن الموقن وغيره من الجاحدين الحائرين، الذين يعيشون هائمين لا يعرفون خالقهم.. ولا يرون تدبيره لأمر الكون.. فلا يذوقون

---

(١) سورة يس ٣٨ ـ ٤٠.
(٢) سورة المرسلات ٢٣.
(٣) سورة الفرقان ٢.
(٤) سورة عبس ١٨ ـ ١٩.

حلاوة الإيمان ولا يعرفون طمأنينة القلب.

أما المؤمنون الموقنون فهم كما وصفهم الله سبحانه: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذكر الله، ألا بذِكْرِ الله تطمئنّ القلوب﴾ [١].

من مظاهر التدبير الإلهي:

أشار القرآن إلى كثير من مظاهر التدبير الإلهي لأمر الكون، فتكررت فيه الإشارة إلى تدبير أمر المطر، وهو من أمور الغيب التي لا مدخل لغير الله سبحانه فيها، ولذلك جاء ذكر هذا التدبير باعتباره من مفاتيح الغيب التي انفرد الله سبحانه بعلمها، قال تبارك وتعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ [٢].

○ فتكوين المطر ونزوله في موقع معين، هو من تقدير الله سبحانه وتدبيره، وهي حقيقة كونية ينبغي أن يتأملها الإنسان، ولو كان يعيش في بيئة لا تعتمد في السقاية على المطر، بسبب جري الأنهار فيها، لأن الأنهار ما هي إلا مجارٍ لمياه الأمطار، ولولا الأمطار ما فاضت تلك الأنهار ولا تدفق فيها الماء.. ومن هنا كان المطر ظاهرة ملحوظة من البشر جميعاً، وخاصة العرب الذين خاطبهم القرآن وكانوا يعيشون في بيئة صحراوية لا تعرف جريان الأنهار.. ولهذا أثار القرآن العناية بتأمل تلك الظاهرة، إذ هي سبيل إلى إدراك معنى التدبير الإلهي الحكيم. يقول تبارك وتعالى: ﴿وهو الذي يُنَزِّل الغيثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وينشرُ رحمتَه وهو الوليُّ

---

(١) سورة الرعد ٢٨.

(٢) سورة لقمان ٣٤.

الحميد﴾[1]. إن نزول هذا الغيث بعد يأس الناس من نزوله وحزنهم بسبب الجدب وضيق العيش.. آية من آيات رحمة الله بعباده، وليس المطر كما يزعم الماديون الجاحدون ظاهرة طبيعية لها أسبابها من الرياح والحرارة فحسب، بل إنها أثر من آثار التدبير الإلهي الذي سخر الرياح وأجراها كما أراد، والذي جعل في الشمس هذه الطاقة الحرارية الهائلة التي تبخر مياه البحر وتصَعِّدها إلى طبقات الجو.. ثم يكون سقوطها أمطاراً حيث شاء الله.. وهذا هو الفارق بين التصور الإيماني.. وبين الظن المادي الجاهل، إذ يغفل الماديون عن معنى القدرة والتدبير الإلهي ويظنون أن المادة تصرف نفسها، وهذا منطق يرفضه العقل وتنكره البديهة، ويأباه العلم المادي نفسه القائم على قانون السببية، فلا يعقل أن يكون من طبيعة المادة تكوين السحب وتسييرها إلى مكان معين لينزل فيه ماؤها! فأي عقل لهذه المادة يجعلها تختار مكاناً دون مكان.. ووقتاً دون وقت.. ولماذا يتأخر نزول المطر أو يقلّ.. إن كان نزول المطر مسألة مادية محضة؟!..

○ أما القرآن فقد أوضح لكل ذي عقل أن تكوين السحب ونزول الأمطار آية من آيات الله سبحانه.. لا شأن للبشر بها..

قال تبارك وتعالى: ﴿هو الذي يُريكم البَرْقَ خوفاً وطمَعاً ويُنْشيء السحابَ الثِّقَالَ ويسبِّحُ الرعدُ بِحَمْده...﴾[2]. فهذا هو البرق ينذر ويبشِّر.. فإما أن يكون وسيلة عذاب يَصْعق ويَقْتل، أو يكون بشارة بنزول المطر.. فهو ناشيء عن إرادة حكيمة وفق تدبير وتقدير، وليس أمرًا من أمور الطبيعة الجاحدة كما يزعم الجاهلون. وها هي السحب المثقلة ببخار الماء تنشأ بقدرة الله سبحانه، ولا يستطيع بشر أن يزعم أنه الذي

---

(١) سورة الشورى ٢٨.

(٢) سورة الرعد ١٢ ـ ١٣.

ينشيء السحب ويحمّلها بالماء، فإذا نزلت هذه الأمطار صاحبها الرعدَ على قَدْر ما في السحب من شحنات كهربية، والمؤمن يسبح الله حين يسمع صوت الرعد، شكراً له وتعظيماً لقدرته، كما أن صوت الرعد نفسه دلالة على تسبيح الله وبيان لقدرته التي انفردت بالخلق والتدبير، فهو تسبيح بدلالة الحال، أو هو تسبيح يشترك فيه الإنسان مع هذه الظواهر التي ينشئها الله بقدرته..

فما أروع هذا المشهد وما أوضح دلالته للمؤمنين. وهذا المطر لا ينقطع في حياة البشر في أنحاء الأرض.. فهناك أمطار في الشتاء.. وأمطار في الصيف.. وأخرى في الربيع والخريف..

ومواقعها تختلف في كل فصل.. بحيث لا يخلو جزء من الأرض من موسم أمطار.. وليست كميات المطر النازلة فيها سواء.. وهذا في ذاته دليل على عنصر الإرادة والتقدير في نزول المطر، وأنه آية من آيات الخالق الحكيم.. ولهذا جاء التعبير عن هذه الآية الإلهية في صور مختلفة لتكون سبيلاً من سبل الإيمان. يقول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ ترَ أنّ الله يُزْجي سحاباً ثم يؤلِّف بَيْنَه ثم يَجْعلُه ركاماً فترى الوَدْقَ يَخرُجُ مِنْ خِلَاله، وينزِّلُ من السماء من جبالٍ فيها مِنْ بَرَدٍ فيصيبُ به مَنْ يشاءُ ويَصْرفه عمَّن يشاء يكاد سَنَا بَرْقِه يَذْهبُ بِالأبصار. يقلِّب اللهُ الليلَ والنهار إنّ في ذلك لَعِبْرَةً لِأولى الأبصار﴾ (١).

○ فهذه الآية تتحدث عن سوق السحاب بقدرة الله سبحانه، وتراكم هذه السحب بأمره، وعن الظواهر التي تنشأ من ذلك، وكلها ملحوظة محسوسة لا ينكرها عاقل. فلم يبقِ أمام العقل السليم إلا الإيمانَ بهذه الآيات والاعتبار بها في الدلالة على مُوجِد هذا الكون ومدبِّر أموره.

---

(١) سورة النور ٤٣ ـ ٤٤.

●وفي القرآن كثير من شواهد التدبير الإلهي لأمور الكون غير المطر.. كإنبات الزرع المختلف الألوان والثمرات مع كونه يخرج مِن أرض واحدة ويسقى بماء واحد: ﴿وفي الأرضِ قِطَعٌ متَجاوراتٌ وجنّاتٌ من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنوان وغيرُ صِنْوان يُسْقَى بماءٍ واحد ونفضّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ إنّ في ذلك لآياتٍ لِقوم يعقلون﴾ [1].

﴿فَلْينظر الإنسانُ إلى طعامه. أنّا صَببْنا الماءَ صَبًّا. ثم شقَقْنا الأرضَ شقاً. فأنبتنا فيها حَبًّا وعنباً وقَضْباً وزيتوناً ونخلاً وحدائقَ غُلْباً. وفاكهةً وأبًّا. متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [2].

﴿وأنْزَلْنا من السماء ماءً بِقَدر فأسْكَنَّاه في الأرض وإنّا على ذَهابٍ به لقادرون. فأنشأنا لكم به جناتٍ من نخيلٍ وأعناب لكم فيها فواكهُ كثيرة ومنها تأكلون. وشجرةً تخرجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تنبتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكلين﴾ [3].

وغير ذلك من الآيات التي تدعو إلى تأمل التدبير الإلهي في إخراج الزروع التي يعتمد عليها الإنسان في معاشه، وليس للإنسان فيها من عمل إلا الحرث وإلقاء البذور في جوف الأرض.. أما حياة النبات ونموه حتى يؤتى ثمراته فلا مدخل للبشر فيها.

كما قال سبحانه: ﴿أفرأيتم ما تَحْرثُون. أأنتم تَزْرعونه أمْ نحن الزارعون﴾ [4].

● وكذلك الآية الإلهية في تدبير أمر الإنسان وهو جنين في بطن أمه:

---

(١) سورة الرعد ٤.
(٢) سورة عبس ٢٤ - ٣٢.
(٣) سورة المؤمنون ١٨ - ٢٠.
(٤) سورة الواقعة ٦٣ - ٦٤.

﴿ألم نخلقكم من ماءٍ مَهين، فَجَعَلناه في قرار مَكين. إلى قَدَر معلوم. فقَدْرنا فنعم القادرون﴾ [٢].

وتِلك أمثلة لما جاء في القرآن الكريم من لفت الأنظار إلى تأمل شواهد التدبير الإلهي لحياة الإنسان ولأمور الكون كله:

﴿وعِنْدَه مفاتحُ الغيب لا يَعْلمها إلا هو ويعلم ما في البَرِّ والبحر وما تَسْقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حَبَّة في ظلماتِ الأرض ولا رَطْب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وهو الذي يتوفاكُمْ بالليلِ ويعلم ما جَرحْتم بالنهار ثم يَبْعثكم فيه ليُقْضَى أجل مسمّى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون. وهو القاهرُ فَوْقَ عباده ويرسلُ عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفَّتْهُ رُسُلنا وهم لا يفرِّطون﴾ [٣]. فهو تدبير مُحْكَم وقهر تام، وقدرة لا يُعجزها شيء في السموات ولا في الأرض.. شهد بذلك الكون كله في أحواله جميعاً.. لا يشذ عن تلك الشهادة إلا جاحد مطموس البصيرة.

---

(٢) سورة المرسلات ٢٠ ـ ٢٣.

(٣) سورة الأنعام ٥٩ ـ ٦١.

الفصل الثاني

«اللَّه لا إلٰه إلا هو . . »

□ القضية التالية لإثبات وجود الله سبحانه وخلقه للكون وتدبيره لأحواله، هي قضية التوحيد، وقد عنى بها القرآن عناية بالغة في السور المكية، باعتبارها نقطة الخلاف الأولى بين دعوة الإسلام وأوهام الجاهلية: ﴿وعَجِبُوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهةإلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجَاب. وانطلق الملأ منهم أن امشُوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشَيء يراد﴾ [(١)].

من هنا أقام القرآن الدليل الناصع على فساد عقيدة الشرك، ونادى البشر جميعًا ليعبدوا إلهاً واحداً في ذاته وصفاته لا ندّ له ولا شريك، ولا صاحبة له ولا ولد: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد﴾ [(٢)].

وقد تضمن القرآن دلائل عقلية وكونية على وحدانية الله سبحانه.

منها قوله تعالى: في سورة الإسراء:

---

(١) سورة ص ٤ ـ ٦.

(٢) سورة الإخلاص ١ ـ ٤.

﴿قل لو كان معه آلهةٌ كما يقولون إذًا لابْتَغَوْا إلى ذي العَرْشِ سبيلاً﴾ [١].

وقوله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان اللهِ ربِّ العَرْشِ عمَّا يَصِفون﴾ [٢].

وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ما اتَّخَذَ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إله، إذن لذَهبَ كلٌّ إله بما خلق ولَعلا بعْضهم على بعض سبحان الله عما يَصِفُون. عالم الغيبِ والشهادةِ فتعالى عما يشركون﴾ [٣].

فقد بينت آية الإسراء أنه لو كان مع الله إله آخر لوقع الصراع والتنازع.. وبينت آية الأنبياء أنه لو كان هناك آلهة غير الله لفسدت السموات والارض، ثم أوضحت آية «المؤمنون» أن الله سبحانه لم يتخذ ولداً وأنه ليس معه إله، ولو كان معه آلهة آخرون لانفرد كل منهم بخلقه، ولتكبَّر بعضهم على بعض حتى يُسَلِّم سائرهم لأقواهم، وحينئذ فالأقوى هو الإله، والآخرون ليسوا آلهة، وهكذا نرى السور الثلاث قد تكاملت في إيضاح جوانب الدليل وتأكيد نفي الشريك عن الله سبحانه بحكم العقل، إلى جانب شواهد الكون.

• ونلاحظ أن آية سورة المؤمنون التي أقامت الدليل العقلي على نفي الشريك عن الله سبحانه قد سُبقت بدليل كَوْني على تلك الحقيقة، يعد تمهيداً للحجة العقلية. قال تبارك وتعالى:

﴿قل لِمَنِ الارضُ ومَنْ فيها إن كنتم تَعْلَمون. سيقولون لله قل أفلا

(١) سورة الإسراء ٤٢.
(٢) سورة الأنبياء ٢٢.
(٣) سورة المؤمنين ٩١ ـ ٩٢.

تذكرون. قل مَن ربُّ السمواتِ السَّبْع وربُّ العرشِ العظيم. سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل مَنْ بيَده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجِيرُ ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل فأنَّى تُسْحَرون. بل أَتيناهم بالحقِّ وإنهم لكاذبون﴾ [1] وبعدها تأتي الآية التي تنفي عن الله سبحانه الولد والشريك، وتبين ما ينشأ عن افتراض وجود الشركاء من فساد ينفيه نظام الكون المحْكَم ووَحدة الخلق في السُّنن والتكوين.. وهذا يبين أن القرآن قد سلك مَسْلك النظر الكونيّ ومَسْلك الدليل العقلي في إثبات التوحيد ونفى الشركاء.

● كما نلاحظ أن هذه الآيات من سورة المؤمنون قد جاءت بأسلوب السؤال وتقرير الجواب، وهو أسلوب التشويق الذي نجده في القرآن في المواطن التي تَحتاج إلى إيقاظ المشاعر الهامدة وتحريك القلوب الجامدة، وقد أحاطت هذه الآيات بالمعاندين من كل جانب، بإثارة هذه الأسئلة المفاجئة التي تستخرج الجواب أسرع ما يكون: «لمن الأرض ومن فيها» «من ربُّ السموات السبع» «مَنْ بيده ملكوتُ كل شيء» والجواب في كل موضع: «لله» أي ذلك خالص لله سبحانه لا ينازعه فيه أحد، وإذن: «فأنّى تُسْحَرون» أي كيف تصرفون عن هذه الحقائق وتتجاهلون دلالة الكون وهو يناديكم بأوضح منطق، منطق المشاهدة والعيان.

وأمام هذا الدليل العقلي الذي أقامه القرآن على نفي الشركاء وإثبات الوحدانية لله سبحانه لم يبق للمشركين المعاندين من حجة، وقد طالبهم القرآن أن يظهروا ما لديهم من برهان على ما ادعوا من دون الله من أنداد، فلم يجدوا ما يقولون إلا الزور والبهتان.

قال تبارك وتعالى: ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله، أروني ماذا

---

(١) سورة المؤمنون ٨٤ ـ ٩٠.

خَلقوا من الأرضِ أم لهم شِركٌ في السمواتِ ائتوني بكتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أو أثارة مِنْ علمٍ إن كنتم صادقين. ومن أضلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دُعائهم غافلون﴾ [1].

فها هم المشركون في صورتهم الحقيقية، لا يملكون دليلا من شواهد الكون على ما يزعمون: «أروني ماذا خلقوا من الأرض» ويكتفي السِّياق هنا بالأرض ولا يطالبهم برؤية ما خلقت أصنامهم في السماء! فحسبهم إن استطاعوا أن يدلونا على أثر معبوداتهم الباطلة في الأرض وحدها، أو في جزء صغير منها، وأن يدلونا على نصيب معبوداتهم من السماء لكنهم لا يقدرون على هذا ولا ذاك. ثم تطالبهم الآيات بالدليل العقلي؛ إن كان لديهم دليل: «ائتوني بكتاب من قَبْل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين» وأيّ علم يثبت لهم أن لله شركاء فيما خلق وبرأ؟! وأيّ كتاب يقرهم على مَسْلك الجهالة والجحود؟! وإذن فليس للشرك من حُجة ولا برهان.. بل هو أهواء مُتَّبعة وأوهام متسلطة، وقع هؤلاء الأشقياء صرعى بها، فأصبحوا نَجساً، إذ فارقتْهم طهارةُ القلب وغابت عنهم بديهةُ العقل، وسلامة الوجدان، ولهذا استحقوا أن يوصفوا بهذا الوصف في قول الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجدَ الحرام..﴾ [2].

* * *

○ إن تناول القرآن لحقيقة التوحيد ودلائله وهدمه للشرك واجتثاثه لأصوله، يدل على أن هذه القضية بالغة الأهمية في دعوة الإسلام، فهي الأساس الذي يقوم عليه صرح الإيمان، وهي النقطة الفاصلة والمبدأ الذي

---

(١) سورة الأحقاف ٤ ـ ٥.

(٢) سورة التوبة ٢٨.

لا يقبل االقرآن حوله جدلاً ولا إغضاء.. فقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم يصدع بما أمره الله به، إذ أعلن على العرب الذين كانوا يتبعون ما أَلْفَوْا عليه أسلافهم، قول الحق سبحانه: ﴿إنّ إلهكم لوَاحد. ربُّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما وربُّ المشارق﴾[١].

لكن المشركين عجبوا من هذه الدعوة وقالوا كما ذكر القرآن: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إن هذا لشيء عُجَاب.﴾[٢] وهكذا تختل الموازين وتتبدل الحقائق، فيعجب المشركون من دعوة الرسول ﷺ لهم إلى إله واحد، ولا يَعْجبون من إشراكهم بالله ما لم ينزّل به سلطاناً، وما ليس لهم به من علم، وما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم؟!.

○ وهكذا يعوجّ المنطق حين تُطْمَس البصائر ويضطرب العقل ويسود الهوى ويغلب الاستكبار، فأصبح التوحيد عند المشركين خروجاً عن الأصل ومخالفة لما أجمعوا عليه، بل زعموا أنه مخالفة للدين حين قالوا: ﴿ما سَمِعْنا بهذا في الملةِ الآخرة إن هذا إلا اختلاق.﴾[٣]

● وقد يسأل سائل: لماذا حكى القرآن أقاويل المشركين، مع القطع بفسادها وجهالتها؟.

والجواب: أن الإسلام دين الحق، لا يخاف شيئاً من عرض هذه الأقوال الباطلة، بل إن القرآن يعرضها ليفضح أصحابها ثم لينقضها من جذورها، ومن هنا سجل القرآن مواقف هؤلاء المشركين كما سجل مواقف الأقوام جميعاً من رسلهم وما ردّوا به عليهم، حتى لا تبقى لهم شبهة، ولا يزعم زاعم أن لهم رأيا لم يُنَاقش أو حجة لم يردّ عليها.

---

(١) سورة الصافات ٤ ـ ٥.
(٢) سورة ص ٥.
(٣) سورة ص ٧.

من أقاويل المشركين:

● لقد زعموا ـ فيما زعموا ـ أنهم إنما يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله، اقرأ قوله تعالى في سورة الزُّمَر: ﴿إنا أنزَلنا اليك الكتابَ بالحقِّ فاعبُد اللهَ مُخلِصاً له الدِّين. ألَا لله الدِّينُ الخالص، والذين اتَّخَذُوا من دُونه أولياءَ ما نَعْبُدُهم إلَّا لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفَى، إنّ الله يَحْكُم بينهم فيما هم فيه يختلفون. إن الله لا يهدى مَنْ هو كاذبٌ كَفَّار﴾[1].

□ وقد كان الرد القرآني على هذه الشبهة موجزاً حاسماً فبين أن هؤلاء كاذبون مُغرقون في الجحود: ﴿إنّ الله لا يهدي مَنْ هو كاذبٌ كَفّار﴾ لأن الذي يبتغي التقرب إلى الله سبحانه لا يتقرب إليه إلا بما يرضاه سبحانه من أنواع الطاعات والعبادات، ولا يتقرب إليه باتخاذ أنداد معه، يساويهم بالله سبحانه في الخوف والرجاء، ويتوجه اليهم بالقربات والدعوات، ويعتقد أن لهم مَدْخلاً في التدبير والتصريف! فهذا الزعم الجاحد ما هو إلا كذب صُرَاح والتياثٌ في التفكير. وأيُّ زلفى هذه التي تجعل الإنسان يعتقد أن حجراً أصمَّ ينفعه أو يضره.. أو أنه سبيل القرب من الله؟!

● إن هؤلاء قد أهدروا نعمة العقل وأصمُّوا آذانهم عن نداء الفطرة، وضلّوا بسفاهتم، وورّثوا الضلالة مَنْ يأتي بعدهم ممن يتبع سبيلهم!

○ ومضت الآيات من سورة الزمر تستنكر هذا الادعاء، وتبين أن الله سبحانه لم يتخذ ولداً وليس له شريك، وأنه لم يجعل لشيء مِنْ خَلقه استحقاقَ العبادة أو التقديس، فقال سبحانه: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً

---

(١) سورة الزمر ٢ ـ ٣.

لاصطفى مِمَّا يَخْلُق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهّار﴾[1].

○ وبعد لفْت الأنظار إلى بدائع الخلق يأتي تقرير الحقيقة والنَّعْيُ على المعرضين عنها: ﴿ذلكم الله ربُّكُمْ له المُلْك لا إله الا هو فأنَّى تُصرَفون. إنْ تَكْفروا فإنّ الله غنيٌّ عنكم ولا يَرضى لعباده الكفر وإن تَشْكُروا يَرْضَهُ لكم﴾[2].

● وحين نتدبر سورة «الزُّمر» نرى أن الموضوع الغالب فيها هو مناقشة أباطيل المشركين وفضح مواقفهم ومسالكهم الخاطئة، وتثبيت دعائم التوحيد، وهذه السورة مكية في أكثر آياتها، وليس منها إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، فلهذا كان موضوعها الأول هو الردّ على مزاعم المشركين وبيان تناقضهم في مسالكهم، إذ يتجهون إلى الله وَحْدَه ساعة الخطر وعند الضرر! فإذا كشف الله عنهم النقمة وبدَّلها نعمة، رجِعوا إلى أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة:

﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّه مُنيبًا إليه ثم إذا خَوَّله نعمةً منه نسيَ ما كان يَدْعو إليه من قبلُ وجعل لله أنداداً ليُضلَّ عن سبيله قل تمتَّعْ بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار﴾[3]. ثم تُجابه السورة المشركين بأنهم قد خسروا خسرانا مبيناً، وأي خسارة أكبر من خسارتهم أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟!

﴿قل إني أخافُ إنْ عصيتُ ربِّي عذابَ يومٍ عظيم. قل الله أعبدُ مُخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم مِنْ دونه قل إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين﴾[4].

---

(١) سورة الزمر ٤.

(٢) سورة الزمر ٦ ـ ٧.

(٣) سورة الزمر ٨.

(٤) سورة الزمر ١٣ ـ ١٥.

• وتضرب سورة الزُّمَر مثلا للمشركين يدلّهم أوضح دلالة على فساد تصورهـم وشناعة سلوكهم، في زعمهم أنهم إنما يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله سبحانه:

﴿ولقد ضربنا للناسِ في هذا القرآنِ من كلِّ مثلٍ لعلهم يتذكرون. قرآناً عربيًّا غير ذِي عِوَجٍ لعلهم يتَّقون. ضربَ الله مثلاً رَجُلاً فيه شركاءُ مُتَشاكِسون ورجلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هل يَستويان مثلا. الحمدُ للهِ بل أكثرهم لا يعلمون﴾[1].

• فهل يرضى أحدهم أن يكون له عَبْدٌ يشاركه فيه غيره من السادة؟! أم يحبّ أن يكون عبده خالصَ الولاء له لا يوزّع مشاعره بين عدد من المُلاَّك، بل يختص بها سيده وحده لا ينازعه فيها منازع؟!.. وإذن فكيف يكون التقرب إلى الله في زعمهم بالإشراك به؟! وكيف يظن هؤلاء الجاحدون أن الله يقربهم إليه حين يعبدون معه غيره؟!

ولوضوح الدلالة وزوال الشبهة بتقرير هذا المثل، ختمت الآية بحمد الله سبحانه فقد أظهر الحق لمن يريد اتباعه، وبين أن الشرك لا يمكن أن يكون سبيلًا من سُبل الإيمان ولا طريقاً من طرق الرضوان: ﴿الحمدُ لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ لأنهم يتبعون الجهالة ويتعبدون بالضلالة.

• كما نلاحظ في سورة الزمر تأكيداً لوصف المشركين بالكذب عن طريق تكرار هذا الوصف، حتى يعلم الناس جميعاً أن الشرك ما هو إلا كَذب، وادعاء لغير الحقيقة، وليس له من حجة أو منطق أو برهان.

﴿إنك ميتٌ وإنهم ميّتون. ثم إنكم يَومَ القيامة عند ربّكم تختصمون. فمن أظلمُ ممن كذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم

---

(١) سورة الزمر ٢٧ ـ ٢٩.

مثوى للكافرين. والذي جاء بالصِّدْق وَصَدَّقَ به أولئك هم المتَّقون﴾[1].

فهي مفاضلة بين اتجاهين: كذب يُفْتَرى وتكذيبٌ بالصدق، من جانب، وحقٍّ يأتي به الصادق الأمين ويصدّقه فيه المؤمنون من الجانب المقابل. أما الكذب فهو الشرك، وأما الصدق فهو التوحيد، ولا مناص لمن يحترم عقله ويدرك معنى وجوده، من اتباع طريق الصدق ورفض هذه الأكاذيب.

○ وتسلك سورة الزمر، في مناقشة المشركين، طريق الحوار، وهو من أنجع الأساليب في التعليم والإقناع.. والسؤال الأول تذكيرٌ بحقيقة الخلْق: ﴿ولئن سألتَهم من خلق السمواتِ والأرض ليقولُن الله﴾ والجواب لا يَحتمل الانتظار لأنه بدهيّ لا خلاف عليه: ﴿الله﴾ وهذا ما كان المشركون يقرّون به ولا يجادلون فيه. ومن هنا يأتي السؤال الثاني: ﴿قل أفرأيتم ما تَدْعُون مِنْ دون الله، إن أرادَني اللهُ بِضُرٍّ هل هُنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أو أرادني برحمةٍ هل هُنَّ مُمْسِكَاتُ رحمتِه؟ قل حَسْبِي اللهُ عليه يتوكل المتوكلون﴾ وما داموا لا يرون لهذه الأصنام أثرًا في حياتهم، في كشف الضر عَمَّنْ ابتلاه الله به، أو في منع الخير والرحمة عمَّنْ قدَّرها اللهُ له، فلماذا يستمسكون بعبادتها؟! إنه العناد والاستكبار والوهم الضالّ، وليس هناك من سبيل إلا أن يرجع الأمر إلى الله في هؤلاء المنكرين المشركين: ﴿قل حَسْبِيَ الله عليه يتوكل المتوكلون﴾.

● كما نقضت سورة الزمر شبهة أخرى للمشركين فقد زعموا من قبلُ أنهم يتقربون بعبادة الأصنام إلى الله سبحانه، ثم زعموا أنهم يعبدونها لتشفع لهم عند الله، فجاء الجواب القرآني الصريح: ﴿أم اتَّخذوا مِنْ دون الله شفعاءَ قُل أوَ لَوْ كانوا لا يَمْلكون شيئاً ولا يعقلون؟! قل لِلَّهِ

---

(١) سورة الزمر ٣٠ ـ ٣٣.

الشفاعةُ جميعاً له مُلْكُ السمواتِ والأرض ثم إليه تُرْجَعون﴾.

○ والشفيع لا بد أن يتَّصف بالعقل والبيان، كما ينبغي أن يكون له شأن عند من يشفع عنده. ولكن هذه الجمادات التي قدَّسوها لا تملك شيئاً، وليس لها عند الله وزن، فهي أحجار صمَّاء، لا تَعْقِل ولا تُبِين، فكيف يزعم المشركون أنهم يبتغون عندها الشفاعة، التي لا ينالها الملائكة المقربون إلا إذا رضي الله لهم ذلك: ﴿ولا يشفعون إلا لِمَن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾ [١]، ﴿مَنْ ذا الذي يَشْفعُ عنده إلا بإذنه﴾ [٢].

وهكذا انهارت دعاوى المشركين في القُرْبيَ والشفاعة بهذا الردّ القرآني المحكم.

* * *

○ ولا تترك سورة الزمر المشركين حتى تبين شناعة حالهم وفساد قلوبهم، إذ تشمئز من التوحيد وتستبشر بالشرك!! وتلك غاية الانتكاس وتشويه الفطرة، لأن العكس هو الصحيح:

﴿وإذا ذُكر اللهُ وَحْده اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذُكِر الذين مِن دُونِه إذا هم يَسْتبشرون. قل اللهمَّ فاطرَ السمواتِ والأرضِ عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بَيْن عِبَادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ [١].

* * *

---

(١) سورة الزمر ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) سورة الأنبياء ٢٨.
(٣) سورة البقرة ٢٥٥.
(١) سورة الزمر ٤٥ ـ ٤٦.

وفي سورة الزمر، ذات الموضوع الواحد، مواقف في حرب الشرك وأهله تستوجب التأمل والاعتبار. ففيها ثلاث إشارات إلى كذب المشركين في اعتقادهم أن لله سبحانه شركاء وأنداداً، فالأولى في قوله سبحانه: ﴿إنّ الله لا يَهْدي مَنْ هو كاذبٌ كفّار﴾ والثانية في قوله تبارك وتعالى: ﴿فمَنْ أظلمُ مِمَّنْ كذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه﴾، والثالثة في قوله عز من قائل: ﴿ويومَ القيامة تَرى الذين كذبوا على اللهِ وجوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أليس في جهنم مَثْوًى للمتكبِّرين﴾.

● وهذه الإشارات الثلاث تتدرج في أحوالها ومواقفها، فالأولى تخبر أن الله لا يهدي هؤلاء المشركين الكاذبين، والثانية تخبر أنهم أشدّ الناس ظلماً للحقيقة ولأنفسهم، والثالثة تبين عاقبة هذا الظلم بتصوير حالهم يوم القيامة جزاء كذبهم واستكبارهم، فوجوههم مُسْوَدَّة رمزاً لسواد قلوبهم وتشويه فطرتهم.

□ ثم يأتي الموقف الأخير في سورة الزمر لمفاصلة هؤلاء المشركين الكذبة. ﴿قل أفغَيْرَ اللهِ تأمرُونِّي أعْبُدُ أيها الجاهلون. ولقد أُوحِيَ إليك وإلى الذين من قَبْلك لئن أشركت لَيَحْبَطَنَّ عملُكَ وَلَتكُونَنَّ من الخاسرين. بل الله فاعبُدْ وكن من الشاكرين﴾[1] فقد تهيأ الموقف لهذه المفاصلة الحاسمة بعد مناقشة الشبهات ودحض المفتريات وتصوير حقيقة حال المشركين الذي لا يَعْدو كونه كذباً واستكباراً، بعد ذلك كله يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يخاطب هؤلاء الضالين بقوله: ﴿أفغَيْرَ الله تأمُرونِّي أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: أفبعدَ وضوح هذه الحقائق ودحض هذه الشبهات تطالبونني أن أوافقكم على هذا الضلال وأن أقركم على هذا الكذب والافتراء: أن أعبد غير الله، أو أن أرضى عن عبادتكم لغيره

(١) سورة الزمر ٦٤ ـ ٦٦.

سبحانه؟!.. إنّ هذا جهل لا أساس له، وظلم لا أشْنَع منه!

○ وقد تغير مساق الخطاب بعد ذلك إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أعرض الخِطابُ عنهم، بعد أن وجه إليهم الحقيقة، وبعد أن أنذرهم بالمصير، واتجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، باعتباره الذي جاء بالصدق وصدَّق به، وباعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين، لربط حلقات الأجيال وبيان أن التوحيد هو دعوة كل الأنبياء والمرسلين من قبل، وأنه لم يأت نبيٌّ إلا به، وأنه لا يُقْبَل عمل إلا على أساسه: ﴿ولقد أُوحي إليك وإلى الذين مِن قَبْلك لئن أشركتَ ليَحبطنَّ عملُك ولتكوننَّ من الخاسرين. بل الله فاعبُدْ وكُن من الشاكرين﴾.

أما الوعيد في قوله سبحانه: ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ فإنما يقصد به إعلام الكافرين أن الله سبحانه لا يغفر أن يشرك به وأنه لا يعفو عن هذه الخطيئة، حتى لو كان مرتكبها نبياً مُرْسَلاً أو ملكاً مقرَّباً! فما بالك بهؤلاء المشركين الكذبة؟! فهذا التحذير يقصد به إيصاد باب العفو عن هذه الجريمة النكراء وتشنيع جزائها حتى يحذر منها كل عاقل.

* * *

● وفي ختام سورة الزمر نقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وما قَدَروا الله حقَّ قَدْره والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامة والسموات مَطْويّات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾(١) فنجد فيها كشف بواطن هؤلاء المشركين وبيان علة تردِّيهم في هذه الهاوية، ذلك أنهم لم يعرفوا عظمة خالقهم ولم يتصوروا كماله عز وجل، ولم تمتلىء قلوبهم بإدراك معنى قدرته التي ذل لها

(١) سورة الزمر ٦٧.

كل شيء، ولو أنهم أدركوا هذه المعاني لنزّهوا الله سبحانه عن أن يكون له شريك في المُلْك، ولعرفوا أن اتخاذهم الأنداد من دون الله خروج عن حد الإيمان بعظمته وكماله.

وهكذا نرى أن سورة الزمر ذات موضوع واحد مترابط الأجزاء، تنتهي بمتدبرها إلى التوحيد الخالص والإيمان الصحيح. بدأت بذكر مقولات المشركين والرد عليها، وانتهت ببيان مصائرهم، مقرونةً ببيان مصائر المؤمنين الموحِّدين، حتى يتضح الفارق وتزول الحجب عن البصائر ولهذا سميت سورة الزُّمَر أخذاً من نهايتها.. وشتان ما بين المشهدين: ﴿وسِيق الذين كفروا إلى جهنم زُمَرا﴾ وبعدها: ﴿وسِيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمَراً﴾ ونهايتها حمد الله على هذا المصير الحق والقضاء العادل الذي أعطى كلاًّ من الفريقين ما يستحق: ﴿وترى الملائكة حافِّين مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحون بحمد ربهم وقُضِي بينهم بالحق وقيل الحمدُ للهِ رب العالمين﴾ (١).

حديث القرآن عن الأصنام:

• كان مشركو العرب يعبدون أوثانا وأصناماً ينحتونها من الحجارة، ومن هنا كان تعجيب القرآن من تقديسهم حجارة صماء لا تحسّ بهم ولا تردُّ عليهم، إذ ليس لها حياة ولا شعور، فكان تحقير هذه الأصنام وتصويرها في صورتها الحقيقية أمراً لازماً، لعلهم يفيقون من الأوهام التي سيطرت عليهم.

○ نقرأ في سورة الأعراف قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فتعالَى اللهُ عما يُشركون. أيشركون مالا يَخْلُق شيئًا وهم يُخْلَقون. ولا يستطيعون لهم

---

(١) سورة الزمر ٧٥.

نصرًا ولا أنفسَهم يَنْصرون. وإنْ تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم سواء عليكم أدعَوْتموهم أمْ أنتم صامتون. إنّ الذين تَدْعُون مِنْ دُون الله عبادٌ أمثالُكم فادعوهم فَلْيستجيبوا لكم إنِ كنتم صادقين. ألهم أرجلٌ يَمْشُون بها أمْ لهم أيْدٍ يَبْطِشُون بها أم لهم أعينٌ يُبْصرون بها أم لهم آذانٌ يَسْمعون بها قل ادْعُوا شركاءكم ثم كِيدُونِ فلا تُنْظِرون. إنّ وليِّيَ اللهُ الذي نزَّل الكتابَ وهو يتولَّى الصالحين. والذين تَدْعُون مِن دُونه لا يستطيعون نَصرَكم ولا أنْفُسَهم ينصرون. وإن تَدْعوهم إلى الهدى لا يَسْمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يُبْصرون﴾ (١).

• فهذه صفات الأصنام على حقيقتها، ليس بها حياة، وليس لها حواسّ ولا جوارح، ولا تملك لمن يدعونها نصراً، بل لا تستطيع الدفاع عن نفسها، ولكن نسَق هذه الآيات يدعونا إلى التأمل في حكمة تكرار بعض الجمل فيها كقوله سبحانه: ﴿ولا يستطيعون لهم نَصْراً ولا أنفسَهم ينصرون﴾ ثم يأتي قوله: ﴿ولا يستطيعون نَصْرَكم ولا أنفسَهم ينصرون﴾ ولأن قضية إثبات التوحيد ونَفْي الشرك هي القضية الأولى في القرآن، فقد جاء تأكيد عجز الأصنام عن نصر مَنْ يعبدونها، بل عن نصر أنفسها في هذه الصورة، فذكرت هذه الحقيقة مرتين، الأولى في سياق الإخبار بها مجردة في غيبة هؤلاء المشركين.. والثانية في مواجهتهم بها بضمير المخاطب: ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسَهم ينصرون﴾ فالأولى حُكْم.. والثانية مواجهة ومجابهة..

وهذا هو مغزى التكرار في الجملتين الأخريين: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ ولكن التعبير يختلف في بعض الألفاظ ليفيد معنى جديداً... فالآية الأولى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوكم سواء عليكم

---

(١) سورة الأعراف ١٩٠ ـ ١٩٨.

أدعوتموهم أمْ أنتم صامتون﴾ والثانية: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يَسْمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾. فالآية الأولى قد أفادت أن هذه الأصنام لا تستطيع اتباع من يدعوها إلى الهدى، فلا فرق لديها بين الكلام والصمت، لأنها صمّاء لا تحس ولا تسمع، والثانية أوضحت هذا المعنى في صورة أخرى، فبينت أنها لا تسمع من يدعوها إلى الهدى، ولا تبصر من يقف أمامها وإن خيل إليه أنها تنظر إليه. والمغزى في ذلك إرادة تأكيد هذه الحقيقة، حتى لا تبقى شبهة في قطع الصلة بين هذه الأصنام والحياة والإحساس.

○ لقد أكد القرآن عجز هذه الأصنام وهوانها بمختلف صور التعبير، وأثار إحساس المخاطبين بذل هذه المعبودات الباطلة وحقارتها، فهي أضعف من الإنسان الذي يعبدها وأعجز!

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿قل أنَدْعُواْ مِنْ دُون اللهِ ما لا ينفعنا ولا يضرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بَعْدَ إذ هدانا الله كالذي استهوَتْه الشياطينُ في الأرضِ حَيْرانَ له أصحابٌ يَدْعونه إلى الهدى ائتنا، قل إن هُدَى الله هو الهُدَى وأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لرب العالمين﴾ (١).

فهذا الاستفهام الإنكاري يجسّم خطيئة المشركين في دعائهم ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم، كما يصور الهاوية التي ينحدر إليها من تستهويه الشياطين إلى حيرة الضلال، فلا يجيب نداء من يدعوه إلى سلوك الطريق المستقيم.

* * *

---

(١) سورة الأنعام ٧١.

مثل الأصنام:

كما سلك القرآن كل طريق يوضح حقيقة هذه الأصنام، ومنها ضرب الأمثال المعبّرة عن السِّمات الدقيقة، الكاشفة للبواطن، كقوله تبارك وتعالى في تشبيه علاقة الأصنام بعابديها:

﴿مثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإنّ أوْهنَ البيوتِ لبَيْتُ العنكبوتِ لو كانوا يعلمون. إنّ الله يعلم ما يَدْعون مِنْ دونه من شيءٍ وهو العزيز الحكيم. وتلك الأمثال نضربها للناس وما يَعْقلها إلا العالمون﴾ (١).

فليس هناك أوهن ولا أوْهَى من بيت العنكبوت، ذلك الذي يطير بنفخة واحدة، ويزول بأدنى ملامسة، فكيف يعوِّل عاقلٌ على هذا الضعف ليحتمي به.. أو على هذا الهوان ليعتزّ به؟!.

وإذن فهذه المعبودات الباطلة ليست شيئاً في الحقيقة: ﴿إنّ الله يَعْلم ما يَدْعون مِنْ دُونه من شيءٍ﴾ ولا يجوز أن تكون نِدًّا لخالق الأرض والسموات، سبحانه وتعالى عما يشركون.

□ لقد أوضح القرآن هوان تلك المعبودات الباطلة وضعفها وعجزها، ومن ثم فلا يجوز لإنسان يحترم عقله أن ينحدر إلى هاوية الشرك، وهو يعلم أنه لا غَنَاء لهذه المعبودات ولا قدرة: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنَّ ما يَدْعُون مِنْ دُونِه هو الباطل وأنَّ الله هو العَلِيُّ الكبير﴾ (٢) ولهذا سمَّاها القرآن باطلاً، في مقابلة الحق وهو التوحيد، فالباطل هو ما لا حقيقة له ولا دليل يثبته، والحق هو ما ثبت بالدليل واتضح بالحُجّة، وقد جاء هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿ذلك بأنّ الذين كفروا اتبعوا الباطل وأنَّ الذين

(١) سورة العنكبوت ٤١ ـ ٤٣.
(٢) سورة الحج ٦٢.

آمنوا اتبعوا الحقَّ من ربهم، كذلك يَضْرب اللهُ للناس أمثالَهم﴾[1].

□ والمثل المضروب للحق والباطل في سورة الرعد يهدف إلى تعميق إدراك هذه الحقيقة، وهي أنه لا ثبات للعقائد القائمة على الأوهام قال الحق تبارك وتعالى: ﴿أنْزَل من السماء ماءً فسالَتْ أودية بقَدَرها فاحتمل السَّيْل زَبَداً رابياً ومِمّا يوقِدُون عليه في النار ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زبَدٌ مثله كذلك يَضْربُ الله الحقَّ والباطل فأما الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ما ينفع الناسَ فيمكثُ في الأرض. كذلك يضربُ الله الأمثال﴾[2]. فقد جاء هذا المثل عقب الحديث عن المشركين وضلال تصوراتهم، في قوله سبحانه: ﴿أمْ جعلوا لله شركاء خَلقوا كخَلْقه فتشابَهَ الخلْقُ عليهم قل الله خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهَّار﴾[3]. ومن هنا كانت الإشارة واضحة إلى الحق والباطل.

الشرك ظلم عظيم:

وفي سورة لقمان، وهي مكية، جاء التنفير من الشرك والنَّهى عنه في صورة أخرى، إذ وصفت الشرك بأنه ظلم عظيم، بل هو أعظم الظلم، جاء ذلك في وصية لقمان لابنه، إذ يقول الحق سبحانه: ﴿وإذ قال لقمانُ لابنه وهو يَعِظهُ يا بنيَّ لا تُشْرِكْ بالله إنّ الشركَ لَظُلْمٌ عَظيم﴾[4]. فهي وَصية الأب المشفق على ولده، حتى يحفظ عليه نقاء الفطرة وسلامة القلب، لأن عاقبة هذا الظلم وخيمة تدمّر الحياة وتلقى بالإنسان في جحيم الكفر وعذاب النار.

---

(١) سورة محمد ٣.

(٢) سورة الرعد ١٧.

(٣) سورة الرعد ١٦.

(٤) سورة لقمان ١٣.

ثم جاءت هذه الوصية بعد ذلك موجهة إلى الناشىء: «أن لا يطيع والديه إن جاهداه على الكفر» وهي مقابلة بين موقفين: موقف أب مؤمن ينهى ابنه عن الشرك ويحذره من الوقوع في هاويته، وهو لقمان الحكيم، وموقف آخر يهتدي فيه الشاب، إلى التوحيد الذي ضل عنه من يقوم على تربيته وتأديبه؛ وهو ﴿وإن جاهداك على أن تُشْرِكَ بِي ما ليس لك به عِلمٌ فلا تُطعْهُما وصاحِبْهُما في الدنيا معروفاً واتَّبعْ سبيلَ مَنْ أنابَ إليّ﴾ [1] وهو موقف واجهه بعض أصحاب رسول الله ﷺ، إذ كان الشاب منهم يدخل الإسلام طائعاً ويبرأ من عبادة الأوثان، فإذا والداه المشركان يريدان إخراجه من نور التوحيد إلى ظلام الشرك وهو ظلم عظيم!

ولهذا دعا نوحٌ عليه السلام على قومه المشركين بالهلاك العامّ، حتى لا يَطْبعوا الناشئة بطابعهم المظلم: ﴿ربِّ لا تَذرْ على الأرض من الكافرين دَيَّاراً. إنكَ إنْ تَذرْهُمْ يُضلّوا عِبادكَ ولا يَلِدُوا إلا فاجرًا كَفَّارا﴾ [2].

○ ولا ينتهي حديث سورة لقمان عن قضية الشرك عند هذا الوصف والتحذير بل أتبعت الآيات بالإقناع ببطلان هذه العقيدة، والمقارنة بينها وبين نور التوحيد:

﴿ألم ترَوا أنَّ الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسْبغَ عليكم نِعَمه ظاهرةً وباطنةً، ومن الناس من يجادل في الله بغير عِلْم ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنير. وإذا قيل لهم اتَّبِعُوا ما أنْزَل اللهُ قالوا بَلْ نَتَّبعُ ما وَجَدْنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطانُ يَدْعوهم إلى عذاب السَّعير. ومَنْ يُسْلِمْ وَجْهَه إلى الله وهو مُحْسِن فقد استمسك بالعُروةِ الوُثْقَى وإلى اللهِ

(١) سورة لقمان ١٥.

(٢) سورة نوح ٢٦ ـ ٢٧.

عاقبةُ الأمور. ومَنْ كفرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْره﴾[1].

إنه أسلوبٌ آخر من أساليب الإقناع والتوجيه إلى عقيدة التوحيد.. يبدأ باستعراض نعم الله على خلقه التي لا مانح لها سواه، ثم يقبِّح حال أولئك الذين يجادلون في عقيدة الألوهية وليس لديهم علم، ولم ينالوا حظاً من الهداية، ولا صلة لهم بالوحي، وهم يرفضون دعوة التوحيد ويستمسكون بما ألفوا عليه أسلافهم ولو أدى بهم إلى عذاب السعير. وهنا يتهيأ المجال لبيان سلامة اتجاه من يستمسك بالفطرة وهي التوحيد الخالص.. إنه حينئذ مستمسك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم، ومتبع للحق الذي لا شبهة فيه.

وهكذا تنتهي بنا سورة لقمان إلى أن الشرك باطل لا حقيقة له، وداء مهلك ينبغي أن تبرأ منه الإنسانية، إن أرادت السعادة والنجاة: ﴿وما يَجْحدُ بآياتنا إلا كل ختَّار كَفُور﴾.

القرآن يتناول تاريخ الشرك:

● عُني القرآن بعرض مواقف الأقوام الذين جاءهم المرسلون من رب العالمين، تجاه العقيدة الأساسية التي بعث بها الأنبياء، وهي الإيمان بالله سبحانه خالقاً للكون ومدبراً لأمره وعبادته وحده، لا ندَّ له ولا شبيه ولا شريك..

وأول هؤلاء الأقوام قوم نوح، فهو أول الرسل، ثم قوم هود وصالح، ثم قوم إبراهيم الخليل، عليهم الصلاة والسلام.

□ وقد فصل القرآن في عَرْض موقف قوم نوح وقوم إبراهيم من

(١) سورة لقمان ٢٠ ـ ٢٣.

دعوة التوحيد، باعتبار الفترة الزمنية الطويلة التي عاشها نوح، ولأن إبراهيم الخليل أبو الأنبياء.

ووفق الترتيب الزمني، يأتي بعد ذلك قوم لوط وقوم شعيب، ثم قوم يونس، إلى أن نصل إلى قصة موسى عليه السلام، وفيها قمة المواجهة بين التوحيد.. وادعاء بشرٍ أنه إله.. ثم يأتي حديث دعوة عيسى عليه السلام وموقف أتباعه من التوحيد.. والخاتمة هي عرض موقف مشركي العرب من قضية التوحيد..

○ ومن الضروري لمن يدرس قضية التوحيد في القرآن، أن يتأمل مواقف هؤلاء الأقوام تباعاً، ليستخلص منها الحقائق والعبر.

□ ولكن.. كيف كانت بداية الانحراف البشري عن منهج التوحيد، وكيف نشأت الوثنية التي كانت داء وبيلا حاول الأنبياء شفاء الإنسانية منه؟

لقد عُرفت الوثنية أول ما عرفت في قوم نوح، إذ أن القرون السالفة عاشت على التوحيد، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. قال ابن كثير رحمه الله: «فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عُبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض» (١).

ولهذا كانت العناية بتفصيل قصته مع قومه في القرآن. فقد ذكرت قصته مع قومه في سورة الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت، والصافات والقمر، كما أنزلت فيه سورة كاملة

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير بتحقيقنا ١/٩٢.

اقتصرت على قصته مع هؤلاء القوم العتاة، هي سورة نوح. وهي سورة مكية تضمنت بيان دعوة نوح لقومه: ﴿قال يا قوم إنّي لكم نَذِيرٌ مبين. أنِ اعبُدوا اللهَ واتَّقُوه وأطيعون. يغفرْ لكم مِنْ ذنوبكم ويؤخِّركم إلى أجلٍ مسمَّى. إنّ أجَلَ اللهِ إذا جاء لا يؤخَّر لو كنتم تَعلمون﴾ (١).

وقد أثار نوح عليه السلام عاطفة قومه نحو التوحيد والإيمان الصحيح بالله، بأنْ ذكّرهم بالنعم الإلهية التي تغمرهم وتحيط بآفاق حياتهم، ودفعهم إلى التفكير في عظمة الله سبحانه وجلاله، فقال لهم: ﴿ما لكم لا تَرْجُون لله وقارًا وقد خَلقكم أطوارًا. ألَمْ تَرَوْا كيف خلق الله سَبْعَ سموات طِبَاقًا. وجَعل القمرَ فيهنَّ نُوراً وجعل الشمسَ سِراجًا. والله أنبتكم من الأرضِ نباتًا. ثم يُعيدكم فيها ويُخْرجكم إخراجًا. والله جَعل لكم الأرض بساطا لِتَسْلكُوا منها سُبُلا فِجَاجا﴾ (٢).

لكن القوم استكبروا وعصَوْا، وأصرّوا على عبادة أصنامهم التي اخترعوها، وكانت في الأصل تماثيل لمن مات من أحبّائهم وصلحائهم، فتناسخت القرون، حتى جاء منهم من عبدوها وزعموا أنها شفعاؤهم عند الله!

وقد أنكر القرآن هذا الموقف الضال لهؤلاء القوم الذين اخترعوا عبادة الأوثان، بقوله سبحانه: ﴿ومكروا مكْرًا كُبَّارا. وقالوا لا تَذرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعًا ولا يغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا. وقد أضلّوا كثيرا﴾ (٣).

وقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وقالوا لا تَذرُنَّ آلهتكم﴾ قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم

(١) سورة نوح ٢ ـ ٤.
(٢) سورة نوح ١٣ ـ ٢٠.
(٣) سورة نوح ٢٢ ـ ٢٤.

نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وانتُسخ العِلْمُ عُبدت. قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ.

هكذا استدرجهم الشيطان خطوة بعد خطوة نحو الضلال وسوء المآل، أتاهم من قِبَل العاطفة والذكرى، وانتهى بأخلافهم إلى عبادة أحجار لا تنفع ولا تضر.

□ وبهذا يتبين أن أمر العقيدة لا يكون بالابتداع، ولا مجال فيه للهوى أو الفكر البشري القاصر، والمؤمن الحق لا يجعل عاطفته إلا حيث يأمره الله سبحانه.

ونلاحظ أن مضمون دعوة نوح لقومه قد اقتصر في أكثر الآيات التي جاءت فيها هذه القصة على جانب العقيدة وإخلاص العبادة لله، فليس هناك قضية غيرها لأن قوم نوح هم أول الأقوام في تاريخ الوثنية المظلم، فلا عجب أن تكون العناية بردِّهم إلى التوحيد الخالص، فإن رجعوا إليه ونبذوا عبادة الأصنام كان من السهل تكليفهم بالعبادات أو الشرائع، ولكنه ما داموا على الشرك فلن يلتزموا بشيء من تكاليف الدين وآدابه..

○ ومن هنا فإن أكثر الآيات التي تناولت موضوع دعوة نوح لقومه تتفق في هذا الغرض، وهو النهي عن الشرك والأمر بالتوحيد: فقد قال لهم نوح: ﴿اعْبُدوا اللهَ ما لكُمْ من إله غيره إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم﴾[1]. وقال: ﴿أن لّا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذابَ يوم أليم﴾[2]. وقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾

(١) سورة الأعراف ٥٩.

(٢) سورة هود ٢٦.

وقال: ﴿يا قوم إني لكم نذير مبين. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ [1].

فقد جمعت هذه الآيات بين الأمر بالتوحيد الخالص والأمر بالعبادة الخالصة، لأن التوحيد باللسان مع الإشراك في العبادة لا ينفع ولا يقبل من صاحبه. وفي سورة نوح جاء الأمر بعناصر ثلاثة: وهي العبادة والتقوى وطاعة الرسول: ﴿أنِ اعبدوا الله واتقونِ وأطيعون﴾ وهي دعائم الدين الحق في كل رسالة سماوية، وهي تشمل أسس الدين، لأنها تجمع بين القول والعمل كما تجمع بين عبادة القلب وهي التقوى وعبادة الجوارح وهي الطاعة والامتثال..

○ وفي جواب قوم نوح له، كما عرضه القرآن، لا ترى لهم حجة يدافعون بها عن معبوداتهم الباطلة، وإنما اتجهوا إلى إلقاء الشبهات حول صحة رسالته، دون تعرض للموضوع الذي دار حوله الحوار: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين. ألّا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مِثْلَنَا، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذِلُنا باديَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ [2]. وكلها شبهات بعيدة عن مناقشة حقائق موضوع الدعوة التي جاء بها نوح عليه السلام، وهي إثبات بطلان عقيدة الشرك، والأمر بعبادة الله وحده، فلم يجدوا أمامهم إلا التعلل بهذه العلل الكاذبة، وهي أن نوحا عليه السلام بشرٌ مثلهم، وأن أتباعه من الضعفاء والفقراء، وأنهم يظنون أن نوحا وأتباعه كاذبون في دعوى الرسالة والإيمان بها!

○ وكان جواب نوح عليه السلام غايةً في الوداعة واللطف واللين، إذ

---

(١) سورة نوح ٢ ـ ٣.
(٢) سورة هود ٢٥ ـ ٢٧.

قال لهم كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿قال يا قومِ أرأيتم إنْ كنتُ على بينةٍ من ربِّي وآتاني رحمةً من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنُلْزِمُكُموها وأنتم لها كارهون. ويا قومِ لا أسألُكم عليه مالًا إنْ أجْرِيَ إلا على الله، وما أنا بطاردِ الذين آمنوا إنهم مُلَاقُوا ربِّهم ولكنِّي أراكم قومًا تجهلون﴾ (١) لكن المشركين أغلقوا باب الحوار وضاقوا ذرعا بهذه الدلائل الواضحة، وقالوا له: ﴿يا نوحُ قد جادَلْتَنا فأكثَرْتَ جِدَالنا فأتنا بما تَعِدُنا إنْ كنتَ من الصادقين﴾ (٢).

وأضافوا إلى هذا الانقطاع في جانب الحجة، توعدهم لنوح عليه السلام بالإيذاء؛ فقد أنذروه أن يكفّ عن دعوتهم وإلا رجموه بالحجارة وقتلوه. ﴿قالوا لئن لم تَنْتَه يا نوحُ لَتَكونَنَّ مِن المَرْجُومين﴾ (٣) لولا أن نجاه الله سبحانه من هذا الكرب العظيم: ﴿ولقد نادانا نوح فلنِعْمَ المجيبُون. ونجَّيناه وأهْلَه من الكَرْب العظيم﴾ (٤).

وكان تعجبهم من دعوة التوحيد، وفرط استمساكهم بالوثنية، سبباً في اتهامهم نوحا عليه السلام بأنه «في ضلال مبين» ووصفهم إياه بالجنون، إذ يحاول أن يردهم إلى عبادة الله وحده: ﴿كذَّبت قَبْلهم قومُ نوحٍ فكذّبوا عَبْدَنا وقالوا مجنونٌ وازْدُجِر. فدعا رَبَّه أنّي مغلوبٌ فانتَصِر﴾ (٥).

□ والذي يعنينا من كل هذه المناقشة بين نوح وقومه أن نتبين أن قوم نوح، وهم أول من ابتدعوا عبادة الأصنام، لم يقدموا حجة مُقْنعة،

---

(١) سورة هود ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) سورة هود ٣٢.
(٣) سورة الشعراء ١١٦.
(٤) سورة الصافات ٧٥ ـ ٧٦.
(٥) سورة القمر ٩ ـ ١٠.

ولم يناقشوا في حوارهم مع نبيهم موضوع العقيدة، وإنما أثاروا شبهات كاذبة تتصل بشخصية الرسول وأتباعه، ثم أتبعوا ذلك بالوعيد والتهديد..

* * *

قوم هود:

□ ولا يختلف موقف عاد قوم هود، وهم أول الأمم التي ابتدعت الوثنية، بعد الطوفان، عن موقف قوم نوح من قضية التوحيد، فقد قالوا لنبيهم؛ وهو يدعوهم إلى التوحيد: ﴿إنّا لَنراكَ في سفاهةٍ وإنّا لنظنُّك من الكاذبين﴾ (١) وهي قولة قريبة من قولة قوم نوح له، إذ تشابهت قلوبهم فتشابهت أقوالهم وأعمالهم!

لكنّ عادًا قد أضافوا إلى أباطيل قوم نوح أباطيل جديدة، تكشف عن تطور الضلالة ومحاولتها أن تستند إلى فلسفة تجادل بها، وتلقى بها الشبهات على دعوة التوحيد!

فقد قال قوم هودٍ له: ﴿يا هودُ ما جئتنا ببينة وما نحن بتَارِكي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إنْ نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلهتنا بِسُوء﴾ (٢).

ومن أعجب العجب في هذا المنطق أن يزعموا أن هودا عليه السلام ما جاءهم ببينة! كأنهم يبحثون حقاً عن بينة ويبتغون الدليل! ثم أتبعوا ذلك بقولهم له: ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي ليس كلامك كافياً لإقناعنا بترك عبادة هذه الأصنام! ولم يسألوا أنفسهم عن البينة التي استندوا إليها في عبادتهم لها من دون الله! وقد رماهم هود عليه السلام

---

(١) سورة الأعراف ٦٦.

(٢) سورة هود ٥٣ ـ ٥٤.

بالافتراء، في عبادتهم لغير الله، إذ قال لهم: ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ فكان عليهم أن يأتوا بالدليل على صحة اعتقادهم، بدلا من زعمهم أن هودا لم يأتهم ببينة!

أما قولهم له: ﴿إن نقولُ إلّا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء﴾ فهو من خبثهم في الجدل، إذ أرادوا أولا أن يصفوه بالجنون حتى لا يكون لقوله حجة، ثم أرادوا أن يصفوا آلهتهم بالقدرة على النفع والضرر، فزعموا أن بعضها قد أصاب هودا بالجنون.. ومن ثم فإن عليه، في نظرهم، أن يؤمن بها ويعبدها مثلهم حتى ترفع عنه ما أصابته به!

○ ويا له من منطق فاسد خبيث، لقد أراد هود أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، فأرادوا هم أن يلقوه في ظلمات الكفر، وحاشاه!

ولهذا فقد أعلن هود عليه السلام براءته مما يشركون: ﴿قال إنِّي أُشْهِدُ الله واشهدوا أنِّي بريء مما تُشْركون. من دونه فكِيدُوني جميعًا ثم لا تُنْظِرون﴾ [١] فتحداهم وتبرأ من آلهتهم وسخر منها وبين أنها جماد لا تضر ولا تنفع، فلماذا يخافها؟ بل إنه يطلب منهم جميعاً أن يحاولوا كَيْده بما يستطيعون، وألاّ يُمْهِلوه، إن كانوا قادرين! وأعقب هذا التحدي بذكر توكله على الله سبحانه ليبين لهم سرَّ قوته وثباته، وسبب استهانته بوعيدهم الكاذب، فهو يتوكل على الله وحده، مالك الملك والآخذ بِنَواصي العباد: ﴿إنِّي توكلتُ على الله ربِّي وربِّكم ما مِنْ دابَّةٍ إلا هو آخِذٌ بناصّيتها إنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيم﴾ [٢].

وكان عجز قومه عن أن يمسّوه بسوء، هم وآلهتهم المفتراة، دليلا على كذبهم وبهتانهم وعجز أصنامهم، لكونها جماداً كسائر الجماد، وكان موقف

(١) سورة هود ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة هود ٥٦.

هود عليه السلام في توكله على الله وتحديه لقومه واتخاذه عجزهم عن إيذائه دليلا على عجز أصنامهم، شبيهاً بموقف نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿فعلى الله توكلتُ فأجْمِعُوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمَّة ثم اقضوا إليَّ ولا تُنْظِرون﴾ (١). وهو دليل محسوس وبرهان يقيني على عجز الأصنام التي اتخذوها أنداداً لله، تعالى الله عما يشركون.

* * *

قوم صالح:

○ ولم يختلف موقف ثمود قوم صالح، عن موقف أسلافهم عاد قوم هود، في جدالهم عن أصنامهم وإبائهم قبول دعوة التوحيد، ولهذا قرن القرآن بين عاد وثمود في بعض الآيات، إشارة إلى تشابه موقفيهما وعاقبتيهما، فقد قالوا لنبيهم حين دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام: ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبدُ آباؤنا﴾ (٢) فتركوا قضية عدم استحقاق الأصنام للعبادة، وجعلوها قضية تراث آبائهم الذين يحافظون عليه، ولو كان ضلالا مبيناً.. وكان جواب صالح عليه السلام: ﴿قال يا قوم أرأيتم إنْ كنتُ على بينة من ربي وآتاني منه رحمة، فمن يَنْصُرُني من الله إنْ عصَيْته، فما تَزيدُونني غير تَخْسير﴾ (٣). أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه، ما عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعوتكم إلى عبادته وتوحيده.

وليس المقام هنا مقام عرض هذا القصص، وإنما نتأمل مواقف الأقوام

---

(١) سورة يونس ٧١.
(٢) سورة هود ٦٢.
(٣) سورة هود ٦٣.

من دعوة التوحيد، كما فصَّلها القرآن، لنعلم أنه لم تكن للشرك حجة في جيل من الأجيال، بل هو العناد والاستكبار واتباع الأهواء. فهؤلاء ثمود قوم صالح، طلبوا من نبيهم آية على صدق دعوته واتهموه بالسحر: ﴿إنما أنت من المسحَّرين. ما أنت إلا بشرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بآية إن كنت من الصَّادقين﴾ [١] وحين جاءتهم الآية التي طلبوا ازدادوا طغياناً وكفراً، كما قال الحق سبحانه: «وما منعنا أن نرسلَ بالآيات إلا أنْ كذَّبَ بها الأوَّلون. وآتينا ثمودَ الناقة مُبْصرةً فظلموا بها وما نرسل بالآياتِ إلا تخويفا﴾ [٢].

ولم تكن عقيدة التوحيد الواضحة، بحاجة إلى آيات أو خوارق، لو أنهم تأملوها بعقولهم ورجعوا إلى أنفسهم، ولكن متى كان للكفر حجة، أو منطق، أو منهج للبحث وابتغاء الدليل؟!

إبراهيم الخليل يحاور المشركين:

○ عني القرآن ببيان مواقف الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مناقشة طوائف المشركين، سواء من كانوا يعبدون الأصنام، أو يعبدون الكواكب، أو البشر.. فقد كان له حوار مع أبيه.. وحوار مع قومه وحوار مع النمرود الذي طغى وادعى أنه إله. وفي كل تلك المواقف دار الحديث عن التوحيد وإثبات وجود الله سبحانه، من جانب إبراهيم الخليل، ونقيض ذلك من جانب هؤلاء المشركين، مهما اختلفت عقائدهم..

○ وكانت دعوة إبراهيم لأبيه هي أول ما بدأ به، وكان أبوه مشركاً يعبد الأصنام، فكان أحق الناس بإخلاص النصيحة له، وقد بدأ دعوته له

---

(١) سورة الشعراء ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) سورة الإسراء ٥٩.

بندائه باسم الأبوة الحانية: ﴿يا أبتِ﴾ ليعلم أنه مشفق عليه راغب في هدايته، وكانت الدعوة في صيغة سؤال يحرك العقل للنظر، ويقيم الدليل على فساد عقيدة هذا الأب: ﴿لِمَ تَعْبدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصر ولا يُغْنِي عنك شيئاً﴾ [1] أي كيف استحقت هذه الجمادات العاجزة أن تنال منك العبادة والتقديس وأنت أقوى منها وأعلم؟!

وكان جواب أبيه محزناً مخيباً للآمال! أفبَعْدَ أن استثار ابراهيم فيه نداء العقل وبين له عوار الوثنية كما تدركه البديهة، وخوَّفه من عذاب الرحمن إن بقي على شركه وضلاله.. يقول له أبوه: ﴿أراغِبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تَنْتهِ لأرجمنَّك واهجرُني مَليًّا﴾ [2]. فأوصد كلَّ منافذ الهداية المتاحة له في دعوة ولده النبي الصديق، واستنكر أن يرغب ابنُه عن آلهته! وتوعده بالرجم إن لم ينته عن هذه الدعوة، وطلب منه مفارقته وهجره!

○ ولم يجد الخليل عليه السلام بُدًّا من مفارقة أبيه واعتزال قومه، وأصنامهم.. لينأى بنفسه عن هذا الضلال المبين: ﴿وأَعتَزِلُكُم وما تدْعون من دُون الله وأدعو ربِّي عسَى أَلّا أكون بدُعاءِ ربي شقيّا﴾ [3]. بل تبرأ من أبيه حين اتضحت له عداوته لدعوة التوحيد: ﴿فلمّا تَبين له أنه عدوٌّ لله تبرَّأ منه﴾.

مع قومه:

○ أما موقف الخليل عليه السلام من قومه في دعوتهم للتوحيد، فقد تضمن مشهدين: أحدهما مع عبدة الكواكب والنجوم من أهل حَرّان،

---

(١) سورة مريم ٤٢.
(٢) سورة مريم ٤٦.
(٣) سورة مريم ٤٨.

وهو ما جاء في سورة الأنعام. ومشهد مع عبدة الأوثان من أهل بابل، وهو ما أشارت إليه سور الأنبياء والشعراء والعنكبوت وغيرها من سور القرآن.

أما الأول فقد جاء الحديث عنه في قوله تعالى: ﴿وكذلك نُرِى إبراهيم ملكوت السمواتِ والأرض وليكون من الموقنين. فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربِّي، فلما أفل قال لا أحبُّ الآفلين. فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربِّي فلما أفل قال لئـن لم يَهْدِنى ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمسَ بازغة قال هذا ربيِّ هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريءٌ ممَّا تُشْركون. إني وجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّـذي فَطَـر السمـواتِ والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾ [1].

لقد امتلأ قلب الخليل عليه السلام يقينا بآيات القدرة الإلهية المتفردة في آفاق الكون سمائه وأرضه، فعرف وحدانية الله سبحانه عن طريق هذا النظر، واستقر الإيمان في قلبه استقراراً مكيناً معتمداً على هذه الشواهد والدلائل..

وقد كان في وسع الخليل عليه السلام أن يكتفي بإخبار قومه من أهل «حران» بأن هذه الكواكب والنجوم لا تستحق التأليه والعبادة، لأنها مخلوقة مُحْدَثة ومُسَخَّرة وفق تدبير الإله الواحد سبحانه، لكنه آثر أن يكون أسلوب الإقناع بهذه الحقيقة قائماً على المناظرة والاحتكام إلى المحسوس، حتى ينتهي بهم إلى النتيجة نفسها، وهي أن هذه الكواكب تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم، والله سبحانه لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

---

(١) سورة الأنعام ٧٥ - ٧٩.

○ وقد كان الكوكب الأول الذي لاحظه الخليل عليه السلام هو «الزُّهَرة» وهو بعيد عن الأرض، فلما غاب عنه بعد فترة، قال الخليل عليه السلام: «لا أحبُّ الآفلين» أي لقد فقد هذا الكوكب وأمثاله استحقاق العبادة، لأنه يغيب، والإله الحق لا يزول ولا يغيب، وإذن فهناك قوة أكبر من هذا الكوكب هي التي أطلعته ساعات معينة ثم دبَّرت له المغيب.. وهكذا في دورة مقدرة بنظام دقيق.

○ ثم انتقل الخليل عليه الصلاة والسلام إلى ملاحظة القمر، لأنه أقرب إلى الأرض وأوضح للناظرين، ولأنه موضع إعجاب البشر في ضوئه وبهائه، وحينما رآه الخليل عليه السلام بازغاً قال لقومه ـ في مقام المناظرة والافتراض: «هذا ربِّي» أي في فرضكم وظنكم، فتعالوا لنرى حقيقة هذا الفرض، وهل يصلح القمر أن يكون معبوداً يتجه إليه الإنسان بخوفه ورجائه؟ ها هي الساعات تمضي.. فإذا القمر يغيب عن الأنظار كما غابت الزهرة.. وإذن فهو مخلوق مسخَّر، له مشرق ومغرب، وله حركة مقدرة لا يملك أن يتقدم عنها ولا أن يتأخر.

○ وسار إبراهيم عليه السلام خطوة بعد أخرى لهدى قومه إلى المعبود الحق، مع كونه مؤمناً به في أعماق قلبه، لكنه تدرّج بهم.. فكوكب الزهرة لا يصلح للعبادة.. والقمر مع هدايته وإشراقه لا يصلح للعبادة أيضاً، فماذا بعد؟ لقد اختار الخليل عليه السلام الشمس، التي تبدو ظاهرة للعيان قوية وهاجة، تنير الأرض وتبعث الدفء فيها؛ ﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾ ولاحظ الخليل الشمس أمام قومه، مظهراً لهم الانبهار بعظمتها ﴿فلما أفلت قال يا قوم إنِّي بريء مما تشركون﴾ فلا شيء مما تعبدونه يصلح لهذا المقام، وما دامت هذه الكواكب والنجوم العظيمة مخلوقة محدثة، ومَرْبُوبةً مسخرة، فإن العبادة يجب أن تتجه إلى خالقها ومُحْدِثها ومُسَخِّرها سبحانه! ﴿إني وجهتُ وجهي للذي فطر

السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

لقد أسقط إبراهيم الخليل بهذه المناظرة العملية المعتمدة على شواهد الحس والعقل المستندة إلى مشاهد الكون، كل أباطيل قومه، فليس لهم بعد ذلك من حجة، ولهذا قال لهم حين حاجُّوه في اختياره عقيدة التوحيد: ﴿أتُحَاجُّونِّي في الله وقد هَداني ولا أخاف ما تُشْركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً، وَسِع ربِّي كلَّ شيء عِلما أفلا تتذكَّرُون. وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّل به عليكم سُلْطانًا فأيُّ الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ (١).

* * *

مع أهل بابل:

● وبدأت الآيات التي تحدثت عن حوار إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهل بابل الذين كانوا يعبدون الأصنام، بتأكيد نعمة الله عليه بوفور عقله وتمام رشده: ﴿ولقد آتينا إبراهيمَ رُشْدَه مِنْ قبلُ وكُنّا به عالمين﴾ (٢)، لأن المقام هنا مقام جدل وحِوار عقلي أما مناظرته لعبدة الكواكب فقد بدئت ببيان إدراك إبراهيم لآيات القدرة في خلق السموات والأرض: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السمواتِ والأرضِ وليكون من المُوقِنين﴾.

○ وأراد الخليل عليه السلام أن يستدرج قومه عُبّاد الأصنام، شيئاً فشيئاً، وأن يدفعهم إلى التفكير في شأن معبوداتهم الباطلة ففاجأهم بهذا السؤال: ﴿ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون﴾ (٣) أي ما حقيقتها؟ ولماذا

(١) سورة الأنعام ٨٠ - ٨١.
(٢) سورة الأنبياء ٥١.
(٣) سورة الأنبياء ٥٢.

رفعتموها إلى مكانة التقديس والعبادة؟

○ وجاء الجواب ضعيفاً متهافتاً، لا مدخل فيه للعقل أو الاقتناع: ﴿قالوا وجَدْنا آباءنا لها عابدين﴾ [١] فهو التقليد الأعمى والانصياع دون حجة أو دليل. وهنا تهيأ الموقف للخليل عليه السلام ليَصْدَع فيهم بدعوة الحق قائلاً لهم: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾.. ودهش قومه من هذه المباغتة التي انتهت بتقرير ضلالهم وضلال آبائهم من قبل! واستهولوا منه أن يهاجم معتقداتهم بهذه السرعة وبهذا الحزم، فأرادوا أن يتثبتوا من موقفه فلعله مازح معهم لا يعني ما يقول: ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾..

لكن الخليل عليه السلام جزم الأمر معهم، وأعلنهم بتأكيد موقفه وصحة حكمه فقال لهم: ﴿بل ربكم ربُّ السموات والأرض الذي فطرهُنَّ، وأنا على ذلكم مِنَ الشاهدين﴾ [٢].

ولا نريد هنا استقصاء تفاصيل قصة الخليل مع قومه، ولكننا نتأمل طريقته في الإقناع بدعوة التوحيد وهو يجادل قومه على تعدد معتقداتهم الباطلة..

وكان من تدبير الخليل إبراهيم أن أقام الحجة على قومه فواجههم بالحقيقة التي يلمسونها بأيديهم ويحسّونها بأنفسهم، ليعلموا عجز هذه الأصنام عن الدفاع عن نفسها، فكيف يتوهمون فيها القدرة على جلب النفع أو دفع الضرر..

وتم لإبراهيم عليه السلام ما أراد حين رجع القوم إلى معبدهم فوجدوا أصنامهم قطعاً متناثرة، فتحيروا في معرفة الفاعل الذي حطمها وقالوا:

---

(١) سورة الأنبياء ٥٣.

(٢) سورة الأنبياء ٥٦.

﴿مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين﴾[1] وكانت تلك الجملة بداية تخبطهم وتناقضهم.. فلو كانت آلهة حقاً ما استطاع أحد أن ينالها بسوء! إنه استفهام يحمل في صيغته النَّعْيَ على عقولهم الضعيفة التي لم تغن عنهم شيئاً: ﴿مَنْ فعل هذا بآلهتنا﴾ وإذا كان هذا الفاعل ظالماً كما يقولون، فآلهتهم هي المظلومة التي وقع عليهم الظلم!

وهل هناك إله يظلمه خلقه ويوقعون الأذى به؟!

فما أشد سفاهتهم.. وما أعظم احتقارهم لأنفسهم وعقولهم.. ومع هذا ظلوا يبحثون عن هذا الظالم الذي فعل بآلهتهم ما فعل!

○ وحين عرفوا أنه الخليل إبراهيم أتوا به ليحاكموه على أعين الناس.. وكان هذا ما يرجوه الخليل إبراهيم من تحطيمه لأصنامهم.. وساءلوه: ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا يَنْطقون﴾[2].

○ وهو حوار فرضي، أراده الخليل أن يصدم عقولهم لتفيق من غفلتها، إذ افترض أن هذا الكبير الذي نجا من التحطيم هو الفاعل.. فالأمر بحاجة إلى سؤال الأصنام المحطمة من الذي فعل ذلك بها.. أهو إبراهيم أم الصنم الكبير؟ كما يقع الشك والترجيح بين احتمالين، فيحتاج الأمر إلى سؤال الشهود أو سؤال المجنيّ عليه!!

وكادت الصدمة التي أرادها الخليل لهم أن تتحقق وكادوا يفيقون من غيهم، بهذه الإجابة التي أجابهم بها الخليل.. لكن العناد غلب عليهم فحال بينهم وبين الهداية: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتُم الظالمون﴾[3]

---

(١) سورة الأنبياء ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء ٦٢ - ٦٣.
(٣) سورة الأنبياء ٦٤.

أي في عبادتكم لها. وقال بعض المفسرين: في ترككم إياها دون حارس!!

○ وسواء كان هذا المعنى أو ذاك، فقد تحيروا من مفاجأة إبراهيم لهم بقوله: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ لكنهم رجعوا إلى ظلمة الكفر فقالوا له: ﴿لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون﴾ [١].

وكانت تلك هي اللحظة الحاسمة في الحوار، إذ التقط الخليل هذا الخيط منهم صائحاً فيهم: ﴿أفتعبدون مِنْ دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ وعندها أسقط في يد القوم، ولم يجدوا إلا أن يقول بعضهم لبعض: ﴿حَرِّقُوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾ [٢].

وأيُّ آلهة هذه التي تحتاج إلى نصر ولا تستطيع الثأر لنفسها، بعد أن عجزت عن دفع الضر ولم تَنْج من التحطيم؟!

● وقد حاكم الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، معتقدات قومه الباطلة وردّ على أوهام المشركين في حوار جاء في سورة الشعراء: ﴿واتْلُ عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصنامًا فنظَلّ لها عاكفين. قال: هل يسمعونكم إذ تَدْعُون. أو ينفعونكم أو يضرُّون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين﴾ [٣]. فانتزع منهم الخليل إقرارًا بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، فلماذا يعبدونها من دون الله؟ ولم يجدوا جواباً إلا التقليد والمحاكاة في الجهالة والعناد!

---

(١) سورة الأنبياء ١٥.

(٢) سورة الأنبياء ٦٨.

(٣) سورة الشعراء ٦٩ - ٧٧.

وقد جعل الخليل هذه المعبودات الباطلة عدوّاً له، مع كونها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، ليبين لهؤلاء الجهال والأشقياء أنهم يقدسون ما لا غنَاء له ولا ضرر منه، فتحداهم باتخاذ هذه المعبودات عدواً له، والشأن في العدو أن يحاول إيقاع الضرر بعدوه، فإن كان في قدرتها أن تمسَّه بسوء، وهو عدو لها، فلتفعل.. لكنها عاجزة عن ذلك، لكونها لا تسمع ولا تبصر ولا تحس.

○ وبعد هذا التأكيد لعجز هذه الأصنام عن النفع أو الضرر... وفقدها لصفات الحياة والإدراك والحس.. يأتي إيضاح صفات الله سبحانه في خلقه وتدبيره.. فبعد نفي صفة الحياة والقدرة عن هذه المعبودات الباطلة ناسب السِّياق التذكير بصفات الخالق الرازق المحيي المميت سبحانه. ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يُطْعِمنى ويَسْقين. وإذا مرِضْتُ فهو يشفين. والذي يميتنى ثم يُحْيين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين. ربِّ هَبْ لي حُكْماً وألحقني بالصالحين﴾ [1].

○ ونلاحظ في هذه الآيات أنها جاءت في صيغة الفعل المضارع يهدين. يطعمنى ويسقين. ما عدا الفعل «خلقني» فقد جاء بصيغة الفعل الماضي، وذلك لإفادة تحقق الخلق بمجرد وجود الإنسان في هذه الحياة الدنيا.. أما الهداية والرزق والشفاء والمغفرة، فهي أمور متجددة، يلحظها الإنسان حالاً بعد حال، ولا تنقطع عنه ما دام موجوداً في هذه الحياة.

○ كما نلحظ أن الخليل عليه السلام قد فصَّل في ذكر الرزق: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ ولم يذكره مجملاً، لأن هذا التفصيل مطلوب في هذا السياق، إذ هو دليل من أدلة الحكمة والتدبير الإلهي، في مواجهة عجز

---

(١) سورة الشعراء ٧٨ ـ ٨٣.

المعبودات الباطلة عن النفع والضرر، فإذا وجد الطعام دون الشراب، أو العكس، لم يغن أحدهما عن الآخر، ولهذا فصل القرآن في لفت الأنظار إلى الطعام، كما لفتها إلى الشراب، قال سبحانه: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ [1] وقال عز من قائل: ﴿أفرأيتم الماء الذي تَشْربون﴾ [2]. فتدبير أمر الطعام والشراب للعباد دليل من أدلة الربوبية القائمة التي ليس لهذه المعبودات الباطلة من صلة بها..

وإنما ذكر الخليل عليه السلام الطمع في المغفرة في هذا المقام لبيان افتقار العبد إلى الله سبحانه في الدنيا والآخرة، فهو يفتقر إليه في طعامه وشرابه وشفائه من الأسقام، كما هو مفتقر إليه في مقام الحساب والجزاء ﴿يومَ تجدُ كل نفسٍ ما عملتْ من خير مُحْضرًا وما عملت مِنْ سوء تودُّ لو أن بينَها وبينه أمَدا بعيدا﴾ [3].

○ وهكذا أوضح الخليل عليه السلام حقائق التوحيد في مواجهة هؤلاء الجاحدين، الذين عكفوا على تماثيل يعبدونها، وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تُغْنى عنهم شيئاً، ويبين لهم أن الله سبحانه هو الإله الحق الذي يجيب الدعاء ويمنح الشفاء، ويرزق عباده ما يحتاجونه من ماء وغذاء، ومغفرته سبحانه يوم القيامة مناط الطمع والرجاء.. فأنَّى يُصرفون؟ وكيف يفكرون؟!

بين الخليل والنمرود:

○ وكان حوار الخليل عليه الصلاة والسلام مع النمرود الجاحد بالألوهية، استكمالاً لجوانب دفاعه عن عقيدة التوحيد وإقامة البراهين على

(١) سورة عبس ٢٤.
(٢) سورة الواقعة ٦٨.
(٣) سورة آل عمران ٣٠.

فساد دعوى الشرك، وقد أبى النمرود بن كنعان، وكان ملكاً كافراً، أن يَقْبل دعوة التوحيد التي واجهه بها الخليل عليه السلام، بل أدى به غروره وجحوده الى إنكار وجود الله سبحانه، وسأل الخليل عليه السلام: من هذا الإله الذي تدعوني إلى عبادته وتوحيده؟.

وكان جواب الخليل عليه السلام كما جاء في القرآن: ﴿رَبِّي الذي يُحْيي ويميت﴾ [1] فأراد الخليل أن يلفت نظر هذا الجاحد إلى الاستدلال على وجود الخالق سبحانه بالتأمل في أحوال هذه المشاهَدات.. وكيف توجد هذه العوالم الحية من العدم.. ثم تؤول مرة أخرى إلى الفناء، بعد الحركة والنضرة والبهاء؟ فمن الذي أوجدها أولاً.. ثم من الذي قضى عليها أن تذوق الموت بعد الحياة!.

○ ويا له من دليل ناصع، كفيل بإيقاظ العقول وردِّها إلى الصواب، ولكنّ النَّمْرود الجاحد لجأ إلى المغالطة والخداع، وحاول سد الباب الذي فتحه الخليل أمامه للوصول إلى حقائق الإيمان.. فإذا هو يزعم أنه هو أيضاً يحي ويميت! فلم لا يكون إلهاً كذلك؟!

○ أما كيف زعم النمرود أنه يحي ويميت.. فقد أتى برجلين استوجبا القتل، فامر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر، وظن أن هذا يسوِّغ له معارضة قول الخليل عليه السلام: ﴿ربِّي الذي يحي ويميت﴾ وشتان بين المقامين!.

وهنا أدرك الخليل عليه السلام أنه أمام جاحد مجادل بالباطل، فلم يشأ أن يطيل معه المناظرة في الفرق بين المعنيين المقصودين لكل منهما في شأن الإماتة والإحياء، مع ظهور بطلان دعوى النمرود أنه يحي ويميت، إذ

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

الإحياء المقصود في كلام الخليل هو الإيجاد من العدم، لا العفو عن إنسان استحق القصاص!

• وأراد الخليل عليه السلام أن يسد باب الجدل بالباطل واللعب بالألفاظ أمام هذا المجادل المخادع فقال له: ﴿فإنّ اللهَ يأتي بالشمس من المَشْرق فأْتِ بها من المغرب. فبُهِتَ الذي كفر﴾[1].

○ وهذا هو الذكاء في عرض الدعوة وحسن الاستدلال عليها، ومجابهة المجادلين بالباطل بالأدلة الحسية والعقلية التي لا يملكون عليها جوابا!

لقد تحداه الخليل عليه السلام أن يغير شيئاً من نظام هذا الكون، إن كان صادقاً فيما ادعاه لنفسه من ألوهية، استناداً إلى غروره واستكباره، فأظهر له ضعفه وعجزه.. وبيَّن له أنه مخلوق ضئيل، كان عليه أن يعرف خالقه العظيم ويفرده بالعبادة والدعاء!

ولم يرجع النمرود الكافر عن جحوده، بعد انقطاعه في مقام المناظرة، مع وضوح الدلائل التي أظهرها الخليل عليه السلام لأن المعرفة وحدها لا تكفي، بل لا بد من التخلي عن العناد، وغسل القلب من أدران الظلمة والفساد، وعندها يعرف الإنسان طريق الرشاد.. ودون ذلك.. هيهات أن يستفيق من غيّه وعناده!

* * *

وهكذا نرى في هذه المشاهد القرآنية مما دار بين الأنبياء وأقوامهم، كيف تطور الجدل وتفلسف العناد، وكيف تشابهت القلوب والأفكار فتشابهت الأقوال والأعمال..

○ ولا يبقى أمام المتأمل البصير في معاني الكتاب الكريم شبهة في

---

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

وضوح قضية التوحيد.. وإقامة الدلائل عليها بالنظر العقلي والتأمل الكوني.. وبطلان دعوى الشرك.. واضطراب منطق المجادلين عنه.. فليس أمام العاقل إلا التسليم بحقيقة التوحيد كما أوضحها القرآن.

المشركون من أهل الكتاب:

□ فصل القرآن الحديث عن رَدِّ مقولات عبَدة الأصنام، سواء كانوا من مشركي العرب أو من الأمم السالفة على امتداد التاريخ.. ولم يترك القرآن المشركين من أهل الكتاب، الذين بدلوا دينهم، وهو دين التوحيد في أصله، كما جاء به المرسلون، فأدخلوا فيه ما ليس منه، ونسبوا إلى الله سبحانه الولد، تعالى عما يقول الكافرون علوا كبيراً، وزعموا أن الله سبحانه ثالث ثلاثة.

ومع أن موقف القرآن من أهل الكتاب، يحتاج إلى تأمل مُفْرد في بحث خاص، الا أننا نشير في هذا المقام إلى ما يتصِل بعقيدة التوحيد، التي هي الأساس المكين الذي يقوم عليه بناء الإسلام..

○ لقد بين القرآن أن اليهود قد انحدروا إلى هاوية الشرك قبل النصارى، ولم يمنعهم عن ذلك وجود نبيهم موسى عليه السلام وأخيه هارون بينهم!

○ فحين خرجوا من البحر بعد أن أنجاهم الله من عدوهم الذي كان يذبّح أبناءهم ويستحي نساءهم، تاقت أنفسهم الكدرة إلى عبادة الأوثان: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهَةٌ، قال إنكم قوم تَجْهلون، إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُم إلَهًا وهو فضَّلكم عَلى العالمين﴾ [1].

(١) سورة الأعراف ١٣٨ ـ ١٤٠.

• وعجيب أن ينسى هؤلاء الأذلاء الأصل الأول الذي يقوم عليه بناء الإيمان، وهو توحيد الله سبحانه اعتقادًا وعبادة، فكيف أعجبوا بعكوف عُبَّاد الأصنام على عبادتها، وكيف تمنوا أن يجعل لهم موسى وثناً يعبدونه كهؤلاء الأشقياء..﴿قال إنكم قومٌ تَجْهلون﴾.. لقد ارتدُّوا في هذه اللحظة إلى الجاهلية التي تَحُول بين الإنسان وعقله.. والتي تَسْتَذِلُّ الإنسان للجماد الذي لا يَعْقل!

○ وكان هذا الموقف دليلاً على فساد قلوبهم واستعدادها لقبول الوثنية، كلما أمْكَنَتْها!

○ ولم يمض وقت طويل.. حتى سقط القوم سقطةً أبشع من تلك التي وعظهم منها موسى عليه السلام وذكَّرهم فيها بنعمة الله سبحانه عليهم.. وذلك حين ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه.. ليتلقى الوحي، واستخلف أخاه هارون عليه السلام وهو نبي كريم، على قومه.. وجاء موسى السامريّ بسحره وتخييله.. وصنع لهم عجلاً من الذهب، وجعل له صوتاً.. وقال لهؤلاء الحمقى الذين ضعفت في قلوبهم عزمة الإيمان: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾[1].

• وسرعان ما أكب القوم على عبادة عجل الذهب، لأنهم سمعوا له خُواراً!!

فيا لَضَيْعة العقل.. ويا لوهن الإيمان! ﴿أفلا يَرْون أن لا يَرْجع إليهم قَوْلًا ولا يملك لهم ضرًّا ولا نفعا﴾![2].

وما الإله في نظر بني إسرائيل؟! وهل يكفي خُوَار العِجْل، لو كان خوارًا حقاً، ليتخذوه إلهاً يعبد؟!

(١) سورة طه ٨٨.

(٢) سورة طه ٨٩.

وضاعت صيحة هارون عليه السلام، وهو يناديهم، كما جاء في القرآن: ﴿يا قَوم إنما فُتِنتم به، وإنَّ ربَّكم الرَّحمٰن فاتَّبعوني وأَطيعُوا أمرى﴾ [١].

لَكنهم أبَوْا الرجوع عن عبادة العجل وقالوا: ﴿لن نَبْرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾ [٢].. ورجع موسى عليه السلام من الميقات.. حاملاً ألواح التوراة.. ليجد قومه قد ارْتكسُوا إلى عبادة وثن.. صنعه السامرىّ أمامهم واحتال ليجعل له صوتاً كصوت العجل! وغضب موسى عليه السلام.. وظن أن أخاه هارون قد تهاون في الإنكار عليهم أو بيان الحقيقة لهم، ودافع هارون عن نفسه بأنه قد أنكر عليهم ولكنه لم يقاومهم حتى لا يُنْسب إليه التفريق بينهم: ﴿قال يا بن أُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرَّقت بين بني إسرائيل ولم تَرْقُبْ قولي﴾[٣].

○ واتجه موسى عليه السلام إلى السامريّ، صانع الوثن، لكي يشهد بما صنع أمام هؤلاء الحمقى، ويكشف سرَّ خداعه لهم.. حتى لا تبقى في نفوسهم شبهة تجاه هذا العجل من الذهب! ﴿قال فما خَطْبك يا سامريُّ؟ قال: بَصُرْت بما لم يَبْصُروا به فقبضتُ قبضةً مِنْ أثَر الرسول فنبَذْتُها وكذلك سَوَّلتْ لي نفسي﴾[٤] والمراد بالرسول هنا جبريل عليه السلام، كما قال المفسرون، وقد عرفه السامري وأدرك أنه لا يمسّ أثره شيئاً إلا دبَّت فيه حياة، فقبض قبضة من هذا التراب وألقاها في عجل الذهب فصار له صوت.. ولكن كيف جازت هذه الخدعة على هؤلاء الذين جاهد موسى عليه السلام لاستنقاذهم من قبضة فرعون الجبار، وذهب لميقات ربه ليأتيهم بألواح التوراة وفيها هدى ونور؟!.

---

(١) سورة طه ٩٠.
(٢) سورة طه ٩١.
(٣) سورة طه ٩٤.
(٤) سورة طه ٩٥ ـ ٩٦.

● والدرس البليغ الذي يتركه هذا الموقف هو أن موسى عليه السلام لم يكتف بشهادة السامري أمام قومه بخداعه لهم في شأن هذا العجل، بل أتى به موسى عليه السلام ليُحْرَق أمام أعينهم، ثم قذف به في البحر وهم ينظرون... فهل يكون إلهاً ذلك الذي يُحْرَق ثم ينسف؟! ﴿وانظر إلى إلهٰكَ الذي ظَلْتَ عليه عاكفاً لَنُحَرِّقنَّه ثم لنَنْسفَنَّه في اليمِّ نَسْفا﴾ [١] ثم تأتي الحَقيقة القرآنية، الفاصلة بين التوحيد والشرك: ﴿إنما إلهكم اللهُ الذي لا إله إلا هو وَسِع كلَّ شيء عِلْما﴾ [٢].

وبقيت آثار هذه الوثنية في قلوب بني إسرائيل، كما قال الحق سبحانه: ﴿وأُشْرِبوا في قلوبهم العِجْلَ بِكُفْرهم﴾ [٣].. أي خالطت عبادته شِغاف قلوبهم وطُبعت بطابعه! وكان هذا سبباً فيما حاق بهم من ذلة وغضب: ﴿إنّ الذين اتخذوا العِجْل سَينالُهم غضبٌ من رَبِّهم وذِلَّةٌ في الحياة الدنيا وكذلك نَجْزِي المُفْتَرين﴾ [٤].

● وامتد هذا الخلل في عقيدة بني إسرائيل، الذين حرفوا دينهم، حتى زعمت أجيال منهم ان لله سبحانه ولداً، كما ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود عُزَيْر ابنُ الله﴾ [٥]. وهو انتقال بالشرك من عبادة الأوثان إلى نسبة الولد إلى الله سبحانه، فخرجوا بذلك عن التوحيد الصحيح الذي ينزه الله سبحانه عن الوالد والولد والصاحبة والشريك: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفوا أحد﴾ [٦].

---

(١) سورة طه ٩٧.
(٢) سورة طه ٩٨.
(٣) سورة البقرة ٩٣.
(٤) سورة الأعراف ١٥٢.
(٥) سورة التوبة ٣٠.
(٦) سورة الإخلاص.

● وخرج اليهود، الذين بدَّلوا دينهم عن التنزيه لله سبحانه، وهو مقتضى الإيمان به ومعرفة عظمته وجلاله، فإذا هم ينسبون إلى الله سبحانه في كتبهم المبدَّلة ما لا يليق بجلاله وكماله..

وقد أشار القرآن الى بعض مقولاتهم الفاسدة، ليعلم الناس أن هؤلاء، مع ادعائهم معرفة الله والإيمان به وتوحيده، قد فارقوا ذلك كله وخالفوا مقتضاه: ﴿وقالت اليهودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولةٌ، غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا. بل يَدَاهُ مَبْسوطتان يُنفق كيف يشاء﴾[1].. ﴿لقد سمع اللهُ قولَ الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء. سنكتبُ ما قالوا﴾[2].

○ وسواء كانت هذه المقولات قد جرت على ألسنة بعض جهالهم، أو كانوا جميعاً يعتقدونها فإنَ كتبهم التي يزعمون أنها مقدسة تفيض بسوء القول، وتنسب إلى الله سبحانه ما يجب أن ينزهه عنه كل مؤمن!

○ ويظهر من تأمل حديث القرآن عن عقائد اليهود التي نال منها التحريف والتبديل كل منال، أن هؤلاء لا يُعدُّون من أهل التوحيد بحال.. وأنهم تساوَوْا مع المشركين في كثير من المعتقدات.. ومن هنا كان التحالف الذي نشأ بينهم ضد الإسلام، حتى زعموا أن المشركين أهدى سبيلاً من المسلمين الموحدين: ﴿ألَمْ ترَ إلى الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب يُؤمنون بالجبْتِ والطاغوت ويقولون لِلَّذين كفروا هؤلاء أهْدَى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ومن يَلْعن اللهُ فلن تجدَ له نصيراً﴾[3].

○ وإياهم عنى القرآن في قول الحق سبحانه عن طوائف المشركين:

---

(١) سورة المائدة ٦٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة النساء ٥١ ـ ٥٢.

﴿لَمْ يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيِّنة . رسولٌ من الله يتلو صحفا مطهرة. فيها كُتُبٌ قيِّمة﴾ (١).

★ ★ ★

□ أما المشركون من النصارى فإن شأنهم أعجب.. إذ انتقلوا من التوحيد الذي كان عليه أسلافهم، إلى التثليث الذي ابتدعته أهواؤهم، دون سند من عقل أو برهان من علم، فخرُّوا في هاوية الكفر وهم يظنون بأنفسهم الإيمان:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ (٢)

﴿لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم﴾ (٣).

○ وقد ناقش القرآن دعاوى النصارى في شأن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، وبين لهم أنه بَشَرٌ مثلهم، وإن كانت ولادته بغَير أب، فليس بأعجب من آدم عليه السلام الذي خلقه الله من عدم، بغير أب ولا أم: ﴿إنّ مَثَل عيسى عند الله كَمثل آدمَ خلَقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (٤).

○ وأوضح القرآن للعالمين أن عيسى بن مريم رسول كسائر الرسل، لم يخرج عن حد البشرية وأن أمه امرأة كسائر النساء لا تتميز إلا بتقواها ويقينها: ﴿ما المسيح ٱبْنُ مريم إلا رسولٌ قد خلَتْ من قَبله الرسل وأمُّه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنَّى يُؤْفَكُون﴾ (٥).

---

(١) سورة البيِّنة ١ ـ ٣.
(٢) سورة المائدة ٧٣.
(٣) سورة المائدة ٧٢.
(٤) سورة آل عمران ٥٩.
(٥) سورة المائدة ٧٥.

ومن يحتاج إلى الطعام لا بد أن يكون بشراً يَعْرض له ما يعرض لسائر البشر من أحوال! ولم يترك القرآن شبهة من شبهات أهل الكتاب إلا ناقشها وردَّ ما فيها من بهتان.. وحذَّر النصارى من الانقياد لمقولات أسلافهم وتقليدهم في أهوائهم الضالة وعقائدهم المضطربة، فقال سبحانه: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غير الحق ولا تتَّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلُّوا مِنْ قَبْلُ وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل﴾ (١) ونلحظ في هذه الآية تأكيد وقوع هؤلاء الغُلاَة في الضلال والإضلال.. وما يزال هذا شأنهم في عالمنا المعاصر! حيث يريدون أن يصبح التثليث عقيدة عالمية، ويطمعون أن يخرجوا أهل التوحيد الخالص عن توحيدهم ليتبعوهم في نسبة الصاحبة والولد إلى الله سبحانه، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

* * *

وقد بين القرآن ما يكون من سؤال الله سبحانه نبيه عيسى عليه السلام.. ليكون شاهدًا على نفسه وقومه، بريئًا مما صنعوا بعده! فعيسى عليه السلام يشهد على نفسه أنه عبدٌ لله، كسائر العبيد، لا شأن له بالألوهية، ولا نسبة له إلى الله سبحانه، إلا نسبة المخلوق للخالق.. كسائر البشر..

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابنُ مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يُشْرك بالله فقد حَرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ (٢).

ويوم القيامة يشهد عيسى على نفسه بأنه عبد.. ويبرأ إلى الله مما أحدث أتباعه من اتخاذه وأمَّه إلهين مِن دون الله، ويقرُّ بأنه دعاهم إلى عبادة الله

(١) سورة المائدة ٧٧.

(٢) سورة المائدة ٧٢.

ربّه وربِّهم: ﴿يَوْمَ يَجْمع اللهُ الرُّسُلَ فيقول ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلْمَ لنا إنك أنت علاّمُ الغيوب﴾ [١].

﴿وإذ قال الله يا عيسى ٱبْنَ مريم أأنت قلتَ للناس اتَّخذوني وأُمِّيَ إلَهَيْن مِنْ دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقولَ ما ليس لي بحق، إن كنتُ قُلْتهُ فقد علمتَه تَعْلَم ما في نفسي ولا أعلم ما في نَفْسك إنك أنت عَلاَّم الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أَمَرْتَني به أن اعبدوا الله ربِّي وربّكم وكنت عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم، فلما تَوَفَّيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تُعَذِّبْهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [٢].

● إن مناقشة القرآن لما أحدثه اليهود والنصارى في دينهم من تبديل، تكشف عن خروجهم عن حقيقة التوحيد، وتسلكهم في عداد المشركين الذين يتخذون لله أنداداً من خلقه..

○ وقد كانت محاجَّة القرآن لأهل الكتاب فاصلةً في قضية العقيدة، فإما إيمان وتوحيد.. وإما كفر وشرك.. وليس هناك وسط بين هذين الطرفين: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَـوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبَيْنكم، ألَّا نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذَ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولَّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ [٣]. وليس هناك في مجال الاعتقاد من فرق.. بين المشركين عبدة الأوثان.. وأهل الكتاب المحرفين عبدة البشر من دون الله.. فكلاهما شرك وخروج عن التوحيد الذي لا يقبل إيمان بغيره..

وهكذا كان حكم القرآن..

---

(١) سورة المائدة ١٠٩.

(٢) سورة المائدة ١١٦ ـ ١١٨.

(٣) سورة آل عمران ٦٤.

الفصل الثالث

«ولله الأسماء الحسنى . . »

صفات الكمال:

● بعد الإيمان بوجود الله سبحانه وتوحيده، يأتي تنزيهه عن كل ما لا ينبغي لجلاله.. وقد بيَّن القرآن صفات الكمال الأسمى التي يتصف بها الخالق العظيم ونزهه عن كل ما لا يليق بهذا الكمال، وأساس الأمر في هذا التنزيه قوله تبارك وتعالى: ﴿ليس كمِثْلهِ شيء﴾ [1].

○ فكل صفة وصف الله سبحانه بها نفسه فإنه لا يُشْبهها شيء من صفات المخلوقين، بل هي صفة تليق بذاته وتتنزه عن صفات خلقه.

□ وصفات الكمال التي وصف بها الحق تبارك وتعالى نفسَه نجدها في آيات كثيرة في سور متعددة في القرآن، ولنقرأ آية الكرسي التي جمعت بعض هذه الصفات، يقول الحق سبحانه:

﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القَيُّومُ لا تَأْخذُه سِنَةٌ ولا نوم له ما في السمواتِ وما في الأرضِ مَنْ ذا الذي يَشْفع عنده إلا بإذنه يَعْلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وَسِع كرسيُّه السمواتِ والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العليُّ العظيم﴾ [2].

---

(١) سورة الشورى ١١.

(٢) سورة البقرة ٢٥٥.

○ وفي هذه الآيات صفات للإثبات وأخرى للنفي، فقد أثبتت له سبحانه من صفات الكمال الحياة والقيومية، والقيوم اسم من أسماء الله تعالى لا يوصف به سواه، وهو صيغة مبالغة من قائم، ومعناه الشديد القيام على الأشياء والحِفَاظ عليها، الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه، من قولهم: قام بالأمر يقوم به.. إذا تولاه ورعاه.. وكل ما في الكون محتاج إلى هذه الصفة التي يتضمنها هذا الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى ولولا التدبير والحفظ الإلهي لَفنِيَ الكون وهلك مَنْ فيه. وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله سبحانه:

﴿إن الله يمسك السموات والأرضَ أنْ تَزُولاَ ولئن زالتا إنْ أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾[١]، فإنه يتضمن تأكيد قيومية الله سبحانه على هذا الخلق، فلولا حفظه سبحانه له وتدبيره لأمره لزال وانقضى، وما استطاع أحد أن يمسكه لو أزاله الله سبحانه! وقد جاء في آية الكرسي صفتان أخريان من صفات الإثبات وهما العليّ والعظيم، ومعنى العلي: الرفيع القدر الذي يعلو على وصف الواصفين وقد جاء هذا الوصف في آيات أخرى كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إنّ الله كان علياً كبيراً﴾[٢]، وأما العظيم فهو الكبير الذي لا شيء أكبر منه!

أما صفات التنزيه في آية الكرسي ففي قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾، فقد نفت عنه الشريك، كما نفت عنه السِّنَة والنوم: ﴿لا تأخذه سِنة ولا نوم﴾ والسِّنَة هي النومة الخفيفة أو الفتور الذي يسبق النوم، والمقصود نفي النوم ومقدماته عن الله سبحانه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا يؤوده حِفْظهما﴾ أي لا يثقل عليه سبحانه ولا يشق حفظ السموات

---

(١) سورة فاطر ٤١.

(٢) سورة النساء ٣٤.

والأرض وما فيها، فليس هناك أمر تعجز عنه القدرة التي تقول للشيء كن فيكون...

كل هذه الصفات في آية واحدة، آية الكرسي التي ورد في فضل تلاوتها كثير من الآثار، وما ذاك إلا لأنها تجمع الكمالات التي يتصف بها الخلاَّق العظيم وتنفي عنه سبحانه كل ما لا يليق بكماله وجلاله..

المنهج القويم في فهم صفات الله سبحانه:

□ ولا بد أن نقرر هنا بإيجاز المنهج القويم الذي ينبغي أن يفهم به المسلم الصفات التي وصف الله بها سبحانه نفسه في القرآن.. وليس أمامه إلا منهج واحد صحيح.. عرفه أسلافنا من أهل السنة والجماعة، الذين لم يبتدعوا ولم يؤوِّلوا، ولم يقحموا عقولهم في أمر لا مجال للعقل فيه.. بل قبلوا ما جاء في الكتاب الكريم، بمعناه الظاهر، وفوضوا علم الكيفية إلى الله سبحانه، كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «والصواب ما عليه أئمة الهدى، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، لا يتجاوَز القرآن والحديث، ويتبع في ذلك سبيل السلف الماضين أهل العلم والإيمان والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة»(١).

• إنه المنهج الفطري الذي لا تأويل فيه ولا تعطيل ولا تجسيم ولا تشبيه، كما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله حين سئل عن معنى استواء الله سبحانه على عرشه فقال: «الاستواء معلوم والكَيْف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»..

وإنما كان السؤال عن كيفية الاستواء بدعة لأن أحداً من الصحابة لم يسأل عنه رسولَ الله ﷺ، لأنهم كانوا يحملون كل صفات الباريء

---

(١) رسالة الإكليل للإمام ابن تيمية. مجموعة الرسائل الكبرى.

سبحانه على ما يليق بكماله وجلاله، ولا يحاولون إقحام العقل البشري في معرفة كيفيات صفات الخالق الجليل، وقد وسعهم أن يعلموا أنه «ليس كمثله شيء» وما دام الحق سبحانه قد وصف نفسه بصفة فينبغي الإيمان بها دون محاولة لمعرفة كنهها أو قياس على صفات المخلوقين المحدثة!

○ وقد بين الحديث الشريف عدد أسماء الله الحسنى في قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»[1] وقد أشار القرآن إلى تلك الأسماء إجمالا في قوله سبحانه: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾[2] وذكر كثيراً منها تفصيلاً في مواطن متعددة من القرآن، ولكنها لم ترِدْ جميعاً فيه. فمنها ما جاء في قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالِمُ الغيب والشّهادةِ هو الرحمنُ الرحيم. هو الله الذي لا إلهَ إلا هو الملِكُ القُدُّوسُ السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون. هو اللهُ الخالق البارىء المصوِّر له الأسماء الحسنى يسبِّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾[3]

ففي هذه الآيات الثلاث من ختام سورة الحشر ذكر لعدد من الأسماء الحسنى في سياق متتابع: الله. الرحمن. الرحيم. الملك. القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. الخالق. البارىء. المصور. العزيز. الحكيم.

وجملتها ستة عشر اسماً من الأسماء الحسنى التي تحوى صفات الكمال التي ينبغي لكل مسلم أن يحصيها ويعرف معانيها.. وقد عنى المفسرون بشرح معاني الأسماء الحسنى، وألّفت في شرح معانيها كتب مفردة، كما صنع الزجاج اللغوي النحوي الشهير، إذ ألف كتاباً في شرح معاني تلك الأسماء،

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الأعراف ١٨٠.

(٣) سورة الحشر ٢٢ ـ ٢٤.

وكذلك صنع الإمام القرطبي صاحب التفسير، فألف كتاباً سماه: «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى».

○ وفي هذه الأسماء أسماء واضحة الدلالة بمعناها اللغوي، كالرحمن والرحيم والقويّ والعزيز والسميع والبصير والحكيم والخبير، وأسماء أخرى يحتاج عامة الناس إلى معرفة المراد منها، كاسم المؤمن مثلاً، فإن المعنى اللغوي الذي يتبادر إلى الأذهان: هو المصدِّق أو المُعْتَقِد. لكن المعنى المراد من هذا الاسم غير هذا المعنى اللغوي القريب. قال القاضي عياض رحمه الله في كتاب «الشفا»: «فمعنى المؤمن في حقه تعالى: المصدِّقُ وَعْدَه عباده، والمصدقُ قولَه الحقَّ، والمصدِّق لعباده المؤمنين ورسله». وقيل: الموحِّد نفسَه، وقيل: «المُؤْمن عِبَادَهُ في الدنيا من الظلم، والمؤمنين في الآخرة من العذاب».

وهذا المعنى الأخير تشهد له آيات من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ولا يَظْلِمُ ربُّك أحدا﴾(١)، وقوله سبحانه: ﴿وما ربُّك بِظلاَّم لِلْعبيد﴾(٢) وقوله سبحانه: ﴿فوقَاهم اللهُ شَرَّ ذلكَ اليومِ ولَقَّاهم نَضْرةً وسروراً﴾(٣).

○ أما أسماء الله سبحانه التي تدل على القوة والغلبة والقهر، فإن معناها لا بد أن يُحْملَ على ما يليق بكماله سبحانه وعدله، فالله سبحانه مع رحمته التي وسعت كل شيء وبرِّه بعباده ولطفه بهم وإحسانه إليهم.. قوي عزيز جبار، أي قهَّار لعباده لا يُغَالَب في أمره ولا تُرَدُّ مشيئته، وهو سبحانه متكبر، ومعنى المتكبر إذا وصف به الخَلْق: ادّعاء الكبرياء، أما في أسماء الله سبحانه فإن المعنى مختلف، فهو بمعنى الجبار الذي لا يُغْلَب والكبير الذي لا شيء أكبر منه، وهو تفيد الاتصاف بالكبرياء عن حق..

---

(١) سورة الكهف ٤٩.

(٢) سورة فصلت ٤٦.

(٣) سورة الدهر ١١.

وهكذا الشأن في صفات الكمال الأعلى، فيها جانب القوة والقهر، وجانب الرحمة والبر والإحسان، وفيها جانب العلم والحلم والعزة والحكم، وكل هذا مما ينبغي له سبحانه من كمالات: ﴿إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين﴾.

□ ولا بد أن يعلم المسلم أن هذه الأسماء منها ما يوصف به البشر، ولكن بمعنى آخر بعيد عن معناها حين يوصف بها الخالق سبحانه.. وليست كل هذه الأسماء الحسنى يجوز تسمية البشر أو وصفهم بها، فلا يجوز أن يسمى إنسان أو يوصف بأنه رحمن أو قيوم أو قدوس ونحوها من أسماء ينفرد بها الحق تبارك وتعالى، ولكن بعض هذه الأسماء قد ورد في القرآن منسوباً إلى البشر، بمعنى آخر بعيد كل البعد عن معاني الأسماء الحسنى. فقد سمّى الله رسوله ﷺ في القرآن رءوفاً رحيماً في قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنْفُسِكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ ولكن الرأفة والرحمة بالنسبة للبشر عبارة عن لين في القلب وإشفاق على الغير، أما استعمال الرءوف والرحيم في أسماء الله الحسنى فإن له معنى آخر غير المعنى البشري..

وكذلك استعمال الحفيظ والعليم وصفاً ليوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم﴾.. فهما وصفان لبشر.. بمعنى يناسب ضعف البشر وحدوثه..

ولكنهما حينما يأتيان في أسماء الله الحسنى تكون لهما دلالتهما التي تليق بكماله سبحانه وجلاله، وتنزهه عن مشابهة خلقه..

تعريف العباد بربهم العظيم:

○ وإذا تأملنا سور القرآن الكريم وجدنا في كثير منها ما يمكن أن

يسمى تعريف العباد بربهم العظيم الذي تفرد بالكمال والجلال والوحدانية وتنزه عن مشابهة خلقه في ذاته وصفاته..

فهذه سورة الحج، وهي سورة مكية يمكننا أن نتعرف من تأمل سياقها إلى الطريقة القرآنية في إعلام الناس بصفات الخالق الواحد تبارك وتعالى..

ففي مطلعها أمر للناس جميعاً بتقوى الله سبحانه، فهو القوي الغني القهار الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. ولا نجاة لهم إلا باتقاء أسباب غضبه وأليم عقابه: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ (١) ويتلو ذلك بيان شدة العذاب الذي أعده الله لمن كفر به وتنكب طريقه: ﴿وَلَكنَّ عذاب الله شديدٌ﴾ ثم تبين الآيات ضلال الذين يجادلون في شأن الألوهية دون علم ولا حجة.. استناداً إلى ظنونهم وخيالاتهم التي لا يجوز التعويل عليها في أهون القضايا.. فما بالك بشأن العقيدة التي يقوم عليها عمل الإنسان.. وعلى أساسها تكون عاقبته؟!

﴿ومن الناس من يجادلُ في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مَرِيد. كُتِبَ عليه أنه مَنْ تولَّاه فأنه يضلّه ويَهْديه إلى عذاب السَّعير﴾ (٢)..

وبعد آيات أخرى يأتي تأكيد ضلال هذا الفريق الهالك والنعي على سفاهته واستهزائه بأمر العقيدة، فهو يجادل في الله، لا ليصل إلى الحق بل ليضل غيره عن سبيل الإيمان والهدى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علمٍ ولا هدى ولا كتاب منير. ثانِيَ عِطْفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزْي ونذيقه يومَ القيامة عذابَ الحريق. ذلك بما قدَّمت يداك وأن الله ليس بظلَّام للعبيد﴾ (٣).

---

(١) سورة الحج ١.
(٢) سورة الحج ٣ ـ ٤.
(٣) سورة الحج ٨ ـ ١٠.

وهما صورتان من صور المجادلين في ذات الله وصفاته، ابتغاء صَرْف الناس عن التوحيد واليقين، وإلقائهم في متاهات مضلة من الجدل العقيم الذي لا يملك صاحبه شيئاً من مصادر العلم الصحيح.. فليس معه علم.. ولا هدى ولا كتاب صحيح ينير له طريق البحث عن الحق.. وإذن فلا شيء معه من وسائل الاهتداء وبلوغ اليقين..

وهنا يتهيأ العقل والقلب لمعرفة الصحيح في شأن الألوهية، وما ينبغي لها من كمال وجلال.. فيأتي تعريف العباد بربهم العظيم، بذكر بعض صفات كماله سبحانه: ﴿إن الله يُدْخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ إن الله يفعل ما يريد﴾ [1]. وفي هذه الآية ذكر لصفة من صفات الله سبحانه وهي الإرادة، التي ليس لها قيد ولا حاجز: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ [2] كما قال سبحانه في سورة البروج: ﴿ذو العرشِ المجيدُ. فَعَّال لما يريد﴾ [3].

وفي الآيات التالية لهذه الآية من سورة الحج إشارة أخرى إلى طلاقة الإرادة الإلهية التي لا يحدُّها شيء: ﴿ومن يُهن اللهُ فما له مِنْ مُكْرِمٍ إنّ الله يفعل ما يشاء﴾ [4].

وهذا التقرير يأتي بعد تقرير سابق لهذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ [5].

* * *

- وفي سورة الحج أيضاً ذكر للفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ليشهدوا

---

(١) سورة الحج ١٤.

(٢) سورة الحج ١٤.

(٣) سورة البروج ١٥ ـ ١٦.

(٤) سورة الحج ١٨.

(٥) سورة الحج ١٦.

منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ (٣) فلفظ الجلالة علَمٌ على الذات الإلهية، وقد قال بعض المفسرين إنه الاسم الأعظم، وهذا الاسم يوصف بغيره من الأسماء كقوله سبحانه: ﴿وما نَقَموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ (٢) ولكنه لا يأتي صفة لغيره من الأسماء، ولهذا نقول في صلاتنا ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾ فيأتي لفظ الجلالة موصوفاً بالصفات والأسماء الحسنى.

ونلحظ في سورة الحج تأكيد الأمر بذكر الله سبحانه بأسمائه الحسنى في آيات متتابعة.. كقوله سبحانه: ﴿ولكل أمةٍ جعلنا مَنْسَكاً ليذكروا اسمَ الله علي ما رزقهم مِنْ بهيمة الأنعام فإلهُكم إلهٌ واحدٌ فله أسْلِمُوا وبشِّر المُخْبِتين﴾ (٣).. وقوله سبحانه: ﴿والبُدْنَ جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسمَ الله عليها صَوافَّ﴾ (٤).

ثم في قوله تعالى: ﴿لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخّرها لكم لتكبّروا الله على ما هداكم وبشِّر المحسنين﴾ (٥).

ذلك لأن سورة الحج تتناول عبادة جامعة، هي الحج إلى بيت الله الحرام، ولا بد أن تكون هذه العبادة تقريراً يقينياً لحقائق الإيمان، لأن كل شعائر هذه العبادة إنما يراد بها ذكر الله سبحانه وتنزيهه وتعظيمه.. فلا عجب أن تتكرر مشاهد هذا الذكر لاسم الله سبحانه لأن فيه تجديد عهد الإيمان وتوثيق عُرَى اليقين، وليس المقصود من الحج الحركات والمظاهر، كما قال سبحانه ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾.

(١) سورة الحج ٢٨.
(٢) سورة البروج ٨.
(٣) سورة الحج ٣٤.
(٤) سورة الحج ٣٦.
(٥) سورة الحج ٣٧.

كما نجد في سورة الحج، بعد الحديث عن الحج ومعانيه وأحكامه، حديثاً عن الجهاد.. وفيه ذكر لأسماء وصفات الحق تبارك وتعالى.. لأن بين الحج والجهاد رباطاً وثيقاً، ففي كل منهما تحمل للمشقة وإخلاص للنية وذكر لله وابتغاء لرضاه..

وقد بدأ الحديث عن الجهاد بالإذن بالقتال في قوله تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل خَوَّان كفور﴾ [1]..

وفي هذه الآية ذكر لفظ الجلالة مرتين: ﴿إن الله يدافع﴾ ﴿إن الله لا يحب كلَّ خوان كفور﴾ ولم يستغن بالضمير في الموضع الثاني بدلا من لفظ الجلالة، لتأكيد دفاع الله عن المؤمنين وتأكيد خذلانه للخائنين الكافرين.. ثم يذكر لفظ الجلالة في الآية التالية في قوله تعالى: ﴿وإن الله على نَصْرِهم لقدير﴾ [2] وبعدها قوله سبحانه: ﴿الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله﴾ [3].

وفي ذلك تأكيد لحقيقة الإيمان التي تجعل المؤمن يستشعر قوة الله سبحانه ودفاعه عن المؤمنين وحمايته للمتقين.

وفي سورة طه:

○ لقد تضمنت سورة طه تعريفاً للعباد بالخالق العظيم وبيان بعض أسمائه وصفاته، في صدر السورة الذي كان سبباً في إسلام الفاروق عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، حين قرأ هذه الآيات في الصحيفة التي كانت عند أخته فاطمة بنت الخطاب.. فإذا هذه الآيات تغير اتجاهه وتحوله من النقيض إلى النقيض من قمة الشرك والجهالة، إلى قمة الإيمان والهداية..

(١) سورة الحج ٣٨.
(٢) سورة الحج ٣٩.
(٣) سورة الحج ٤٠.

وذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده.

ولكن الإعجاز القرآني تخشع له الجبال الصمّ لو أنها تلقته كما قال الحق سبحانه: ﴿لو أنزلنا هذا القرآنَ على جَبل لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً مِنْ خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (١).

○ أما هذه الآيات من سورة طه فهي قول الحق تبارك وتعالى: ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى. إلا تذكرةً لمن يَخْشَى. تنزيلاً ممن خلَق الأرضَ والسمواتِ العُلَى. الرحمنُ على العرش استوى. له ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بَيْنهما وما تحت الثَّرى. وإنْ تجهَرْ بالقولِ فإنه يعلم السرَّ وأخْفَى. اللهُ لا إله إلا هو له الأسماءُ الحسنى﴾ (٢).

وينبغي أن نتأمل ترتيب هذا التعريف بصفات الله سبحانه وأسمائه الحسنى في هذه الآيات التي افتتحت بها سورة طه.

فنرى أن الحق سبحانه أخبر عباده أن القرآن تنزيل من الله سبحانه، والمراد بذلك تعظيم شأن المنزَّل، وهو القرآن، بالتذكير بعظمة المنزِل وجلاله وهو الله سبحانه، عن طريق ذكر أسمائه وصفاته، على الترتيب الذي يطابق العقل والنظر. قال الإمام البيضاوي في تفسيره: «فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم، وقدّم الأرض لأنها أقرب إلى الحِسِّ وأظهر عنده من السموات العُلَى».

وهي طريقة القرآن في التدرج في التعريف، والانتقال من المحسوس إلى المعقول، ومن القريب إلى البعيد، فالإنسان يعيش فوق هذه الأرض ويلامسها في أمور حياته، ومن هنا فلا بد أن يعلم أولا أن منزل القرآن هو خالق الأرض التي يعيش عليها ويرتفق بما فيها من نعم الله وعطاياه

---

(١) سورة الحشر ٢١.

(٢) سورة طه ١ ـ ٨.

الجزيلة، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عوالم السماء يرى ما فيها من آيات باهرة: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾.

قال الإمام البيضاوي: «ثم أشار إلى وجه إحداث الكائنات وتدبير أمرها، بأن قصد العَرْش فأجرى منه الأحكام والتقادير، وأنزل منه الأسباب على ترتيب ومقادير، حسب ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته فقال: ﴿الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ ليدل بذلك على كمال قدرته وإرادته».

وبهذا ينبهنا الإمام البيضاوي إلى تدبر هذا الترتيب المعجز في تعريف العباد بخالقهم العظيم بالتدرج في التنبيه إلى بديع خلقه وعظيم حكمته في قضائه وقدره.. فالذي خلق الأرض والسموات العلى هو الرحمن الذي استوى على عرشه ودان له كل شيء من خلقه، سواء في ذلك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت أطباق الثرى، وهو التراب.

ولا حاجة بنا إلى عرض الجدل الذي دار بين الفِرَق حول معنى قوله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» وحسبنا أن نقف عندما رآه السلف من أن الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة. وهم يثبتون الصفات لله سبحانه كما أخبر بها القرآن والسنة.. ولا يجنحون إلى تأويلها ويسلّمون بها كما هي دون تعطيل ولا تشبيه ولا تجسيم، ويفوضون علم حقيقتها لله سبحانه. قال البيضاوي: «ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم، عقّب ذلك بإحاطة علمه بجليّات الأمور وخفياتها على سواء فقال: ﴿وإنْ تَجْهَرْ بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾. أي وإن تجهر بذكر الله ودعائه فاعلم انه غني عن جهرك، فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى منه، وهو ضمير النفس».

* * *

• وهكذا يعرف العباد خالقهم العظيم.. بهذا المنهج القرآني الحكيم، إنه مَنْ خلق الأرض والسمواتِ العُلَى، الذي استوى على عرشه، وملك ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو مدبر أحوالها.. الذي أحاط علمه بالجهر بل بما هو أخفى من السر وهو حديث النفس ـ فمن غيره أحق بالعبادة والخضوع والإنابة؟! وهنا يصرّح القرآن بلفظ الجلالة منزهاً عن الشريك والند.. موصوفاً بأسمائه الحسنى: ﴿الله لا إله الا هو له الأسماء الحسنى﴾ فيطمئن إليه القلب وتخشع لعظمته المشاعر والجوارح..

* * *

وهذا هو منهج القرآن في تأكيد حقيقة الإيمان، وأخذه بيد الإنسان متدرجاً في هدايته وتعريفه بصفات الخالق العظيم، كقوله سبحانه في سورة الأعلى: ﴿سبح اسمَ ربك الأعلى. الذي خلق فسوَّى. والذي قدَّر فهدى. والذي أخرج المرعى. فجعله غُثَاء أحْوَى﴾[١].

وذلك لإيقاظ الوعي الكوني في نفس المؤمن ليرى آثار القدرة، فيهتدي بهـا إلى معرفة جلال الخلاق العليم..

---

(١) سورة الأعلى ١ ـ ٥.

الفصل الرابع

«كلٌّ آمن بالله وملائكته . . »

• من عناصر الإيمان التي أوضحها القرآن الإيمان بالملائكة وهو العنصر الثاني بعد الإيمان بالله سبحانه وتوحيده كما جاء في قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾..

○ وقد بدأ حديث القرآن عن الملائكة في أول سورة نزلت من القرآن وهي سورة العلق في نصفها الأخير الذي نزل بعد الجهر بالدعوة، حينما عرض أبو جهل للنبي ﷺ بالإيذاء إن لم يكفّ عن الجهر بدعوته: ﴿أرأيت الذي يَنْهى. عبداً إذا صلَّى. أرأيتَ إنْ كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيتَ إنْ كذَّب وتولّى. ألَمْ يعلم بأن الله يَرى. كَلَّا لئن لم يَنْتَه لنسفعَنْ بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليَدْعُ نادِيَه. سنَدْعُ الزبانية. كلا لا تُطِعْه واسجُدْ واقترب﴾[1].

والزبانية هم ملائكة العذاب من خزنة جهنم، وكان لا بد أن يعلم الكفار أن لله سبحانه جنوداً لا طاقة لأحد بهم.

ثم نزل قوله تعالى في سورة المدثر عن خزنة جهنم: ﴿سأُصْليه سَقَر. وما

(١) سورة العلق ٩ ـ ١٩.

أدراك ما سَقَر. لا تبقى ولا تَذَر. لوّاحة للبشر. عليها تسعَة عَشَر﴾ (١)

أما المشركون فقد سوّل لهم طغيانهم الاستهزاء بهذا العدد وقال أبو جهل لأصحابه: أما يستطيع كل واحد منكم أن يقوم إلى واحد منهم فيغلبه! وما درى هذا الشقي المشرك أن هؤلاء التسعة عشر من الملائكة لا من البشر! وأنه لا قِبَل للبشر بمقاومة هذه القوة التي لا يغالبها أحد!

ونزل قوله تعالى ردًّا على هذه المقولة الكافرة: ﴿وما جعَلْنا أصحابَ النار إلا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتهم إلا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً. ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً. كذلك يضلُّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلمُ جنودَ ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ (٢).

ليعلم البشر أن جنود الله من الملائكة لا يُغْلبون وأن قوتهم فوق طاقة البشر.

● كما تحدث القرآن عن حملة العرش من الملائكة في سورة الحاقة في قوله تعالى: ﴿والمَلَكُ على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومَئذٍ ثمانية﴾ (٣).

وقد نقل عن بعض أئمة التفسير أنه لا يدري هل هم ثمانية صفوف من الملائكة أم ثمانية أفراد. فالله أعلم. وقد وردت الإشارة إلى حملة العرش أيضاً في سورة غافر، في قوله تعالى: ﴿الذين يَحْملون العرشَ ومَنْ حَوْله يسبِّحون بحمد ربِّهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربَّنا وَسِعْتَ

---

(١) سورة المدثر ٢٦ ـ ٣٠.
(٢) سورة المدثر ٣١.
(٣) سورة الحاقة ١٧.

كلَّ شيء رحمة وَعِلْمًا فاغفرْ للذين تابوا واتَّبعوا سبيلك وقِهم عذابَ الجحيم﴾[1].

وأساس تلك العلاقة بين الملائكة والمؤمنين.. أن الملائكة كما وصفهم ربُّ العالمين في سورة الأنبياء ﴿..عبادٌ مُكْرَمُون. لا يَسْبقونه بالقول وهُمْ بأمره يَعملون. يَعْلَمُ ما بَين أيديهم وما خَلْفهم ولا يَشْفَعُون. إلا لِمَن ارتضى وهم من خشيته مشفقون﴾[2]. وكما وصفهم سبحانه في سورة التحريم: ﴿لا يَعْصُون الله ما أمَرهُمْ ويَفْعَلُون ما يُؤمَرُون﴾[3] وإذَنْ فهم مثالٌ لكمالِ الطاعة وتمامِ الانقيادِ لأمر الله سبحانه، ومن هنا تأتي محبتهم للمؤمنين الطائعين.. وبُغضهم للجاحدين العاصين، ولهذا يستغفرون للمؤمنين حتى يتقبل الله أعمالَهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويقيهم عذاب الجحيم..

ومن علاقة الملائكة بالمؤمنين، في المعونة والتأييد، ما أخبر به القرآن من إمداد الله سبحانه للمؤمنين في غزوة بدر بجند من الملائكة: ﴿إذ تستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أنِّي مُمِدُّكُمْ بِألفٍ من الملائكة مُردفين. وما جعله لله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصرُ إلا مِنْ عند الله إن الله عزيز حكيم﴾[4].

وجاء تأكيد هذا الإمداد وتفصيل أعداده في سورة آل عمران في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذِلَّةٌ فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يَكْفيكم أنْ يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم مِنْ فَوْرهم هذا يُمْدِدْكم

(١) سورة غافر ٧.

(٢) سورة الأنبياء ٢٦ - ٢٨.

(٣) سورة التحريم ٦.

(٤) سورة الأنفال ٩ - ١٠.

ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين. وما جعله الله إلا بُشْرَى لكم ولتطمئنَّ قُلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ [1].

لقد كان المسلمون في غزوة بدر قلة بالنسبة إلى أعدائهم، وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى السلاح ومن هنا احتاج المسلمون إلى هذا العدد من الملائكة، تثبيتاً لهم والقاء للطمأنينة في قلوبهم، لأن العقل البشري لا يرجح أن ينتصر الثلاثمائة على الألف بحسب مقاييس القوة المادية ومن هنا لجأ المسلمون في هذا الموقف العصيب إلى الاستعانة بالله سبحانه، بعد أن أدوا ما وجب عليهم من الاستعداد والأخذ بالأسباب الظاهرة.

وكان من أثر هذا الدعاء الصادق الاستجابة السريعة: ﴿إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم﴾.. وكانت الاستجابة بالبشرى لهم بأن الملائكة ستقاتل معهم: «.. أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين» أي متتابعين بعضهم وراء بعض..

ولم تكن معونة الملائكة للمؤمنين في هذه الغزوة قاصرة على البشارة بالتثبيت والتأييد الروحي، بل قاتلوا معهم وساعدوهم في هزيمة المشركين كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ فاضربوا فوق الأعناق وآضربوا منهم كلَّ بَنَان. ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسولَه فإن الله شديدُ العقاب﴾ [2]. ولم يكن هذا التأييد للمؤمنين أمراً عجيباً.. فقد سبقه تأييد الله لرسوله ﷺ يوم الهجرة بجنودٍ من الملائكة: «فأنْزَل اللهُ سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لَمْ تروْها» [3].

---

(١) سورة آل عمران ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) سورة الأنفال ١٢ - ١٣.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

• ومن الملائكة الحفظة الذين وكّلوا بحفظ العبادِ وكتابةِ أعمالهم وأقوالهم.. كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وإنَّ عليكم لحَافظين. كِرَاماً كاتبين. يعلمون ما تَفعلون﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿إن كلُّ نَفْسٍ لَمَّا عليها حافظ﴾ (٢) وفي سورة ق: ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسان ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسهُ ونحنُ أقربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوريد. إذ يتلقَّى المتلقِّيان عن اليمين وعن الشمالِ قعيد. ما يلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لدَيْهِ رَقيبٌ عتيد﴾ (٣)

فالصلة وثيقة بين البشر وبين هؤلاء الملائكة الحفظة الكتبة الذين يسجلون كل قول وكلِّ عمل.. خيراً كان أو شراً..

الملائكة في ليلة القدر:

• تحدث القرآن عن نزول الملائكة إلى الأرض في ليلة القدر في شهر رمضان، وهي الليلة التي ابتدئ فيها بإنزال القرآن على محمد ﷺ، أو التي أنزل فيها القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا إيذاناً بنزول الوحي على خاتم النبيين ﷺ.. ولهذا تتنزل فيها الملائكة.. ويتنزل فيها جبريل الأمين..وهو المراد بالروح في قوله سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربِّهم مِنْ كلِّ أمْر. سلامٌ هي حتى مَطْلَع الفَجْر﴾ (٤).

وهم لا يتنزلون من عند أنفسهم، بل يتقيدون بالإذن الالهي: «بإذن ربهم»..

وقد أخبر الله سبحانه بنزول الملائكة في تلك الليلة مع أننا لا نراهم..

---

(١) سورة الانفطار ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة الطارق ٤.

(٣) سورة ق ١٦ ـ ١٨.

(٤) سورة القدر ٤ ـ ٥.

لإيناس المؤمنين وتهيئة قلوبهم للعبادة الخاشعة في هذه الليلة المباركة، حين يستشعرون صحبة الملائكة وسلامهم عليهم حتى مطلع الفجر..

الروح الأمين:

• أما تسمية جبريل عليه السلام باسم الروح من بين الملائكة، فقد جاءت هذه التسميةُ لجبريل عليه السلام في مواضع عدة من الكتاب الكريم..

جاءت في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿فأرسَلْنا إليها روحنا فتمثَّلَ لها بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (١) . وجاءت التسمية في سورة الشعراء في قوله تعالى: ﴿وإنه لتنـزيـلُ ربِّ العـالمين. نـزَل بـه الروحُ الأمين. على قَلْبِـكَ لتكـونَ مـن المنذِرين﴾ (٢) .

كما جاءت تسمية جبريل عليه السلام بروح القدس في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ٱبْنَ مريمَ البيناتِ وأيَّدْناه بروح القُدُس﴾ . وفي سورة النحل في قوله تعالى: ﴿قُلْ نزَّله روحُ القُدُسِ من رَّبِّكَ بالحق ليثبِّتَ الذين آمَنُوا وهُدًى وبُشْرى للمسلمين﴾ (٣) .

ومعنى الروح السِّرُّ العظيم.. أي أنّ قوةَ جبريل عليه السلام من الأمور التي لا يَعْلمها إلا الله وحده.. ولهذا خُصَّ جبريلُ عليه السلام بكونه أمين الوحي ومبلِّغ الرسالات إلى أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

عداوة اليهود لجبريل:

○ زعم اليهود أن جبريل عدو لهم، وأن هذه العداوة هي التي تَمْنعهم

---

(١) سورة مريم ١٧.
(٢) سورة الشعراء ١٩٢ - ١٩٤.
(٣) سورة النحل ١٠٢.

من الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، لأن الذي أتاه بالوحي هو جبريل عليه السلام وعداوتهم له راجعة إلى الحقد والحسد، إذ كرهوا أن تتحول النبوة عنهم إلى هذه الأمة الوسط، وأن ينزل جبريل عليه السلام بالدين الخاتم الذي نسخ الأديان جميعاً..

وقد رد عليهم القرآن هذه الفِرِيَةَ بقول الحق سبحانه: ﴿قل من كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نَزَّله على قلبك بإذن الله مصدِّقا لما بين يديه وهدى وبُشْرَى للمؤمنين. مَنْ كان عدوًّا لله وملائكته ورُسُلِه وجبريلَ وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾ [1].

إن أحقاد اليهود على البشر جميعاً معروفة.. فلم يَسْلَمْ منهم أحد حتى نبيُّهم موسى عليه السلام الـذي آذَوْه وافتروا عليه وعصَوْا أمْرَه.. وعبدوا العِجْلَ زمنَ وجوده بينهم، فما يمنعهم بَعْدَ ذلك من عداوة جبريل الأمين.. الذي نزل بالوحي على محمد ﷺ فأكمل بناء النبوة وختم برسالته الرسالات.. وإن عداوتهم لجبريل عليه السلام هي عداوة للملائكة جميعاً، بل هي عداوة لله سبحانه، كما ردّ عليهم بذلك القرآن: ﴿من كان عَدُوًّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين﴾.

ملائكة العذاب:

○ في مقابـل بيـان القـرآن للعلاقـة اللطيفـة الودودة بين الملائكـة والمؤمنين، جاء بيان علاقة الملائكة بالفريق الآخر من البشر، وهم الكافرون الجاحدون، وعلاقة الملائكة بهم على نقيض علاقتهم بالمؤمنين.. فإذا كان الملائكة يتنزلون على المؤمنين ساعة الاحتضار، مبشرين لهم بالجنة والمغفرة ـ كما قال سبحانه: ﴿إن الذين قالوا ربُّنا اللهُ ثم استقاموا تتنزل

(١) سورة البقرة ٩٧ ـ ٩٨.

عليهم الملائكةُ ألّا تخافوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرَوا بالجنةِ التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[1] فإن لهم مع الجاحدين موقفاً آخر.. بينَته سورة الأنفال، في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفّى الذين كَفَروا الملائكةُ يَضْرِبون وجوهَهم وأدبارهم وذوقوا عذابَ الحريق. ذلك بما قدَّمَتْ أيديكم وأن الله ليس بظَلّامٍ للعبيد﴾[2].

فهذا موقف من مواقف العذاب الذي يلقاه الكافرون على أيدي الملائكة الموكلين بقبض الأرواح، وهو موقف متفق مع أعمال هؤلاء الكافرين في الدنيا: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ والملائكة هُمْ هُمْ.. لكن علاقتهم بالمؤمنين ساعة الاحتضار مبنيةٌ على سوابق أعمالهم الطيبة: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم﴾. ومن هنا فلا ظلم لهؤلاء ولا محاباة لأولئك: ﴿وأنّ الله ليس بظَلّامٍ للعبيد﴾.

وهناك مواقف أخرى للعذاب على أيدي الملائكة عرَضها القرآن في قصص الهالكين المعذَّبين من الجاحدين، كقوله سبحانه في هلاك قوم لوط: ﴿يا إبراهيمُ أعْرِضْ عَنْ هذا إنه قد جاء أمرُ ربِّكَ وإنهم آتِيهم عذابٌ غيرُ مَرْدود﴾[3].

درجات الملائكة:

○ بين القرآن تفاوت درجات الملائكة.. وهي سنة الله في خلقه أن يفضل بعضهم على بعض.. كما قال سبحانه: ﴿تلك الرسلُ فضَّلنا بعضهم على بَعْض، منهم من كلَّم اللهُ ورفَع بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى آبْنَ مريمَ البيناتِ وأيَّدْناه بروح القُدس﴾[4].

---

(١) سورة فصلت ٣٠.

(٢) سورة الأنفال ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة هود ٧٦.

(٤) سورة البقرة ٢٥٣.

فكذلك التفضيل بين الملائكة.. فهم أيضاً درجات.. لكل منهم منزلة.. ولكل منهم عمل يتفق مع منزلته.. وقد نص على ذلك التفاوت قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وما مِنّا إلا له مقامٌ معلوم. وإنا لنحنُ الصافّون. وإنا لنحن المُسَبِّحُون﴾[1].

ويظهر في القرآن تفضيل جبريل عليه السلام على الملائكة جميعاً إذ قد خُصّ بالذِّكْر بعد عموم الملائكة في قوله تعالى: ﴿تنزَّلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربهم﴾ وكذلك عطِف جبريل وميكائيل على الملائكة، وقدم جبريل على ميكائيل في قوله سبحانه: ﴿مَنْ كان عَدُوًّا للهِ وملائكته ورُسله وجبريلَ وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾.

خَلْق الملائكة:

○ لم يذكر القرآن العنصر الذي خُلق منه الملائكة، بينما ذكر العنصر الذي خُلق منه الإنس والجان: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ صَلْصَالٍ كالفَخَّارِ. وخَلق الجانَّ مِن مارجٍ من نار﴾[2].

وإذا تدبرنا الحكمة في عدم تصريح القرآن بالعنصر الذي خلق منه الملائكة وتصريحه بالعنصر الذي خُلق منه الإنس والجان.. فلعل ذلك يرجع إلى أن العنصر الذي خُلق منه الإنس والجان عنصر محسوس للإنسان وهو الطين والنار، لكن سرّ خَلْق الملائكة لا يدخل في نطاق الحس، فلذلك حجبه عنا القرآن لأن عقولنا لا تدركه.

أما ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «خُلِق الملائكة من نور» فهي إشارة إلى عالم خفيّ لا يدركه الحس،

(١) سورة الصافات ١٦٤ - ١٦٦.
(٢) سورة الرحمن ١٤ - ١٥.

لأن هذا النور ليس مادة لها جِرْم وخواص محسوسة كالطين والنار. ولهذا فإن البشر لا يرون الملائكة الحفظة الكتبة وهم يعـايشـونهم ويُحْصـون أعمالهم، ولا يرون الملائكة الذين يتعاقبون فيهم بالليل والنهار، وقد جاء ذكرهم في الحديث الشريف، ولا يرون الملائكة الطوافين الذين يحضرون حلقات العلم ومجالس الذّكر.. وهذا كله راجع إلى طبيعة خَلْق الملائكة، ومن هنا أشار الحديث الشريف إلى هذا الخَلْق اللطيف الذي يعلو فوق إدراك الحسّ، بالنور، لندرك الحكمة في عدم النص على حقيقة خلق الملائكة في القرآن، لأنه يعلو فوق إدراكنا واستعدادنا للمعرفة.

حياة الملائكة ووظيفتهم:

• بين القرآن أن الملائكة يعيشون في طاعة وعبادة أبداً، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وله مَنْ في السمواتِ والأرضِ ومَنْ عِنْدَه لا يستكبرون عـن عبـادتـه ولا يَسْتَحْسِـرون. يسبِّحـون الليـل والنهـار لا يَفْتُرون﴾[1]. فهم طائعون منقادون لأمر ربهم، لا يعرفون العصيان أو الاستكبار كما يعرفه عصاة البشر، وهم لا يكلّون ولا يكسلون عن العبادة، ولا يصيبهم الإعياء أو التعب، وهذا راجع إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها، وإلى العنصر الذي خلقوا منه.

•▫ وقد أفادت الأحاديث الصحيحة أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون. فهم مختلفون عن الإنس والجن في كل شيء.. ومن ذلك أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة كما يوصف البشر.

أما زعم المشركين أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً، فهي فِرْية رَدَّ عليها القرآن في قول الحق تبارك

---

(١) سورة الأنبياء ١٩ ـ ٢٠.

وتعالى: ﴿أفأصفاكم ربُّكم بالبنينَ واتَّخذ من الملائكة إناثا إنكم لَتقُولون قوْلًا عظيما﴾[1] وهذا تهكُّمٌ بهم وتحقير لتفكيرهم المنحرف، إذ ينسبون إلى الله سبحانه الولد، والولد إنما يكون لِمَنْ يَنْسِلُ ويَتزاوجُ من أصنافِ المخلوقات المحْدثَة، والله سبحانه ليس كمثله شيء: ﴿لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولـم يكُنْ له كفواً أحد﴾.

ولم يقف هؤلاء الضالون عند حد نسبة الولد اليه سبحانه بل جعلوا الولد إناثا وهم الملائكة، فزادوا خطيئة فوق خطيئة وكُفْراً بَعْدَ كُفْر!

إنها فرية أطلقها بعض المشركين قديماً في الجاهلية الجَهْلاء.. فناسبت هواة الأساطير والخرافات، وهي خرافات لا تستحق الالتفات، ويوم القيامة يحاكم المشركون على هذه القرية ويسألون عن دليلها إن كان لهم دليل وهيهات!

قال تبارك وتعالى في سورة الزخرف: ﴿وجعلوا له مِنْ عباده جُزْءًا إنّ الإنسان لكَفورٌ مبين. أمِ اتخذ مما يَخْلُق بناتٍ وأصفاكُمْ بالبنين. وإذا بُشِّر أحدهم بما ضَرَب للرحمن مَثَلاً ظلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيم. أو مَنْ يُنَشَّأُ في الحلية وهو في الخِصامِ غيرُ مبين. وجعلوا الملائكةَ الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا أشهدوا خَلْقَهُمْ؟ ستُكتَبُ شهادتُهم ويُسألون﴾[2].

وهكذا ارتكس هؤلاء المشركون في أودية الخيال الكاذب، واجترأوا على خالقهم سبحانه فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم! ثم عاد فريق من هؤلاء الضالين فعبدوا الملائكة من دون الله! ويوم القيامة تكذِّبهم الملائكةُ فيما ادَّعوه من عبادتهم، كما قال سبحانه في سورة سبأ: ﴿ويَوْمَ يَحْشُرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إيَّاكم كانوا يَعْبُدون. قالوا سبحانك أنت

---

(١) سورة الإسراء ٤٠.

(٢) سورة الزخرف ١٥ ـ ١٩.

وليُّنا من دُونِهم بل كانوا يَعْبُدون الجِنَّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾ [1].

وهكذا اضطربت موازين الفكر عند هؤلاء الأشقياء.. في أمر الملائكة، وأقحموا أنفسهم فيما لا علم لهم به فاستحقوا بهذا الكفر عذاب الجحيم.

كُفر من أنكر وجود الملائكة:

• لقد أضاف الله سبحانه الملائكة إليه سبحانه إضافة تشريف وتكريم، لأنهم عباد له طائعون لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وقد جاءت هذه الإضافة في كثير من آيات القرآن، ومنها الآية التي بينت عناصر الإيمان، وهي قوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكتبه ورُسُله لا نُفرِّق بَيْنَ أحدٍ من رُسُله﴾ [2] وبهذا يتبين أن الإيمان بالملائكة جزء أصيل من أجزاء الإيمان الصحيح، فقد جاء بعد الإيمان بالله سبحانه، شأنه في ذلك شأن الكتب والرسل.

كما جاء في القرآن التصريح بأن من أنكر وجود الملائكة على الصفة التي بَيَّنها القرآن، فهو كافر، إذ قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورَسُولِه والكتابِ الذي نزَّل على رسوله والكتابِ الذي أنزلَ مِنْ قَبْلُ ومن يكفُر بالله وملائكته وكتبه ورُسله واليومِ الآخر فقد ضَلَّ ضلالًا بعيدا﴾ [3].

وهكذا أوضح القرآن وجوب الإيمان بالملائكة بهذين الأسلوبين: إثباته الإيمان لمن آمن بهم في آية البقرة: ﴿آمَنَ الرسولُ..﴾ ونفيه الإيمان عمَّنْ

(١) سورة سبأ ٤٠ - ٤١.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) سورة النساء ١٣٦.

كفر بهم في هذه الآية من سورة النساء ـ ولا أصْرَح من ذلك ولا أوضح!

○ أما محاولة تأويل معنى الملائكة، أو اعتبارهم رموزاً للخير في طبيعة الإنسان.. في مقابل اعتبار الشيطان رمزاً للشر.. أو تفسير وجودهم بمصطلحات العلم المادي الحديث.. فهذا كله بعيد عن حقيقة الإيمان الذي جاء به القرآن والسنة، ولا يُقْبل من مسلم في هذا تأويل ولا تعطيل.. فقد تحدث القرآن عن الملائكة في أكثر من سبعين آية! بَيَّن فيها صفاتهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم.. وبين أنهم كائنات عاقلة، فهم يستغفرون لمن في الأرض، إلى جانب عبادتهم لله وتسبيحهم الدائم له: ﴿والملائكة يسبِّحون بحَمْد ربهم ويستغفرون لمنْ في الأرض﴾ فهم إذَنْ يؤمنون ويسبِّحون ويستغفرون إلى جانب أن لهم أفعالاً هي طاعة لأمر الله سبحانه: ﴿وهم بأمره يَعْملون﴾.

فلا يجوز لمسلم صحيح الإسلام، أن يحمل حقيقة الملائكة على غير ما أخبر به الله عز وجل في محكم كتابه من صفاتهم وأحوالهم ﴿هو الذي يصلِّي عليكم وملائكتهُ ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾[1].

وإن وجود الملائكة سابق لوجود آدم وذريته بآمادٍ سحيقة لا يعلمها إلا الله سبحانه.. وحين شاء الحق سبحانه أن يستخلف آدم وذريته في الأرض، أخبر الملائكةَ بذلك، كما قال سبحانه: ﴿وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعلٌ في الأرضِ خليفة﴾[2] ولعل الحكمة في هذا الإخبار أن الملائكة سيكون لهم بعد خَلْق آدم صلة بهذا المخلوق وذريته، فقد أمروا بعد ذلك بتكريمه وتعظيمه بالسجود له، امتحاناً لطاعتهم، وقدَّر الله

(١) سورة الأحزاب ٤٣.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

سبحانه أن يكون منهم الحفظةُ والكتبةُ وملائكة الوَحْي.. والمطر والنبات والعذاب.. والموت.. وكلها متعلقة بحياة البشر ومقاديرهم ومصائرهم.

ولم يكن جواب الملائكة على هذا الإخبار الإلهي بخلق آدم، من قبيل الاعتراض إذ قالوا: ﴿أتجعل فيها من يُفسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدماءَ ونحن نسبِّح بحمدك ونُقَدِّسُ لك﴾ وإنما كانت حكمة هذا الخَلْق الجديدِ خافيةً عليهم فأرادوا معرفتها، ووصفوا الإنسان بالإفساد في الأرض وسفك الدماء، قبل أن يوجد، لأنهم أدركوا أنه ما دام هذا المخلوق سيكون من طين ويعيش في الأرض، فلا بد أن تكون له طبيعة قابلة للخير والشر..

وحينئذ لا بد أن يقع التنازع والصراع بين ذريته، فيحصل الفساد وتسفك الدماء..

وهذا دليل يضاف إلى أدلة كون الملائكة مخلوقات عاقلة ذكية..

وحين أدرك الملائكة خصائص هذا المخلوق وعرفوا ما زوَّده الله به من الاستعداد للمعرفة والتزود من العلم.. سجدوا له سجود تحية وتكريم امتثالا لأمر الحق سبحانه: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين﴾ [1]..

فهو اللعين الذي قاس بعقله وقال: ﴿أنا خيرٌ منه خَلَقْتَني من نارٍ وخلَقْته من طين [2]﴾ ولم يمتثل إبليس للأمر الإلهي كما امتثل الملائكة، فاستحق بذلك الغواية والطرد من الرحمة.

ولم يكن إبليس من الملائكة، بل كان من الجن، كما بين القرآن في قوله سبحانه: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدمَ فسجدوا إلا إبليسَ كان

---

(١) سورة البقرة ٣٤

(٢) سورة ص ٧٦

من الجنِّ ففسَقَ عَنْ أَمْرِ ربِّه[1]﴾ فالاستثناء في قوله تعالى إلا إبليس.. استثناء منقطع، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.. وإذا عُدّ هذا الاستثناء متصلاً، فهذا من باب التغليب، لأنه كان جِنِّياً واحداً يعيش بين الألوف من الملائكة فأعطى حكمهم[2].

هاروت وماروت:

○ يبقى من متعلقات قصص الملائكة في القرآن ما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة وصفا لليهود:

﴿واتَّبعوا ما تتلو الشياطينُ على مُلْك سليمانَ وما كفرَ سليمانُ ولكنَّ الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر وما أنزل على الملكَيْنِ ببابل هاروت وماروت وما يُعَلِّمان مِن أحَدٍ حتى يَقُولاَ إنما نحن فتنةٌ فلا تَكفُر فيتعلمون منهما ما يفرِّقون به بَيْنَ المرءِ وزَوْجِه وما هُم بِضَارِّينَ به مِنْ أحدٍ إلا بإذنِ الله﴾[3].

○ فقد صاغ بعض القصاصين روايات ملفقة حول هذين الملكين وكيف أنهما نزلا الى الأرض ابتلاء لهما، لأن الملائكة اعترضوا على بني آدم وتعجبوا من إمهال الله لهم مع ما يقع منهم من المعاصي.. فركَّبَ الله سبحانه الشهوة في هذين الملكين ليرى الملائكة ما يقع منهما.. وأنهما افتتنا وعصَيا.. فعاقبهما الله سبحانه وجعلهما معلقين ببابل بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر!

وليس هناك خبر صحيح عن رسول الله ﷺ في شأن هذين الملكين.. وهذه القصة الملفقة من الإسرائيليات التي لا سند لها.. مع أن في الآية

(١) سورة الكهف ٥٠

(٢) راجع تفسير الكشاف ١/٦٢

(٣) سورة البقرة ١٠٢

قراءة أخرى بكسر اللام في «الملكين» وهي قراءة الحسن، وهي مروية أيضاً عن الضحاك وابن عباس[1].

فيكونان من البشر، على هذه القراءة وعلى القراءة المشهورة «الملَكين» بفتح اللام فلا يصح تصديق شيء من هذه الأباطيل عن هذين الملكين.

ومن المفسّرين من يرون أن ما في قوله تعالى ﴿وما أنـزل على المَلكيـن ببابل﴾ نافية، وكذلك في قوله ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفُرْ﴾، أي أنهما ما يعلمان أحدا السحر.. بل يحذرانه منه.

ومن المفسرين من رأى أن نزول هذين الملكين وتعليمهما الناس السحر، إنما كان للتحذير من الانخداع به، ولمعرفة الفرق بينه وبين المعجزة التي يؤيَّد بها النبي.. كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشـــ ـــرِّ لكن لتوقِّيه[2]

وعلى كل الوجوه فإنه لا ينبغي وصف الملائكة إلا بما وصفهم به رب العالمين: ﴿بل عبادٌ مُكْرَمون. لا يَسْبقونه بالقولِ وهم بأمره يَعْملون﴾.

ولاخير في تتبع غرائب الأقوال والروايات التي لا يؤيدها دليل ولا يثبت بها خبر.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٣/٢٣٦

(٢) تراجع الأقوال في تفسير الفخر الرازى ٣/٢٣٦

الفصل الخامس

« ...لا نفرِّق بين أحد من رسله »

• لقد بين القرآن الحكمة في إرسال الرسل في قول الحق سبحانه: ﴿رُسُلا مُبَشِّرين ومُنْذِرين لئلاَ يكونَ للناسِ على اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسل وكان الله عزيزا حكيما﴾ [١].

فمنذ أُهْبِط آدمُ وحواء إلى الأرض، وكانت لهما الذريةُ التي تكوَّن منها أول مجتمع على ظهر الأرض. وضح لهم أن الوحى السماوي ضرورة لهداية سكان هذا الكوكب. كما قال سبحانه: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعًا فإمّا يأتينكم منّى هُدًى فَمنْ تَبع هُدَايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ [٢]

وقد بدأ هذا الوحي منذ وجود هذا الجنس على ظهر الأرض، فكان آدم عليه السلام أول نبي تلقى الوحي وعلمه لأولاده: ﴿فتلقَّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتابَ عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ [٣] ﴿ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهَدَى﴾ [٤] والاجتباء هو الاصطفاء والاختيار.

وكذلك إدريس عليه السلام كان نبياً بعد آدم، ولكن القرآن لم يذكر

---

(١) سورة النساء ١٦٥

(٢) سورة البقرة ٣٨

(٣) سورة البقرة ٣٧

(٤) سورة طه ١٢٢

له دعوة ولا قضية مع قومه، وإنما وصفه بالنبوة والصديقية ورفعة المكانة: ﴿واذكر في الكتاب إدريسَ إنه كان صِدِّيقًا نبيا. ورفعناه مكانا عليا﴾ (١).

• ثم كان نوح أول رسول، له دعوة وقضية مع قومه، وفي حديث الشفاعة أن الناس يأتون نوحاً عليه السلام فيقولون له: «يا نوح أنت أول الرسل» (٢).

وعدد الأنبياء والرسل الذين ذكروا في القرآن خمسة وعشرون نبياً، منهم ثمانية عشر نبياً ورسولاً ذكروا في أربع آيات متعاقبات من سورة الأنعام، في قوله تعالى: ﴿وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومه نَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ نشاءُ إن ربَّك حكيم عليم. ووهَبْنا له إسحقَ ويعقوبَ كُلًّا هَدَيْنا ونوحًا هَدينا مِنْ قبلُ ومن ذريته داودَ وسليمانَ وأيوبَ ويوسفَ وموسى وهارونَ وكذلك نجزى المحسنين. وزكريا ويحيي وعيسى وإلياسَ كلٌّ من الصالحين. وإسماعيل والْيَسَعَ ويونُسَ ولوطًا وكُلاًّ فضَّلْنا على العالمين﴾ (٣).

• وسبعة ذكروا في مواطن متفرقة من القرآن وهم: آدم وإدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكِفْل، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتمَ النَّبيِّينَ وكان الله بكل شيء عليما﴾ (٤).

ولا نستطيع هنا أن نعرض ما جاء في القرآن من قصص الأنبياء والمرسلين، فهذا موضوع قد ألفت فيه الكتب قديماً وحديثاً.. وإنما نريد

---

(١) سورة مريم ٥٦-٥٧

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه

(٣) سورة الأنعام ٨٣ - ٨٦

(٤) سورة الأحزاب ٤٠.

هنا أن نوضح بعض الحقائق المتعلقة بقضية الإيمان بالرسل في القرآن.

شبهات المكذبين بالرسل:

• كانت بَشرِيَّة الرسل تبدو عائقاً للمكذبين عن التصديق بنبوتهم، وكان الكفار في كل جيل يعترضون على بشرية الرسول، ويقولون كما ذكر القرآن: ﴿ولو شاء الله لَأَنْزَلَ ملائكةً ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ (١)

فكانوا يتوهمون أن البشر ليسوا أهلا لِتَلقِّي الرسالة، وأن الجديرين بها هم الملائكة، وهذا من قبيل العناد والتكذيب الذي لا مُستند له من عقل أو حجة، فلو كان سكان الأرض ملائكة لأرسل الله سبحانه إليهم رسلاً من الملائكة، كما قال الله سبحانه:

﴿وما منَع الناس أنْ يُؤْمنوا إذ جاءَهُمْ الهُدَى إلا أَن قالوا أبَعَثَ اللهُ بشرًا رسولاً. قل لو كان في الأرضِ ملائكةٌ يَمْشون مطمئنين لَنَزَّلْنا عليهم من السماء مَلَكًا رسولا﴾ (٢).

بل إن القرآن قد كشفَ بواطن هؤلاء المكذبين للرسل.. المتعلّلين في تكذيبهم بأنهم بشر، إذ بين أنه لو جاءهم رسل من الملائكة لما آمنوا بهم كذلك.. فالعلة واحدة في كل حال وهي الجحود والتكذيب: ﴿وقالوا لَوْلاَ أُنزِلَ عليه ملكٌ، ولو أَنْزَلْنا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرون. ولو جعَلْناه ملكا لجعلناه رَجُلا ولَلَبَسْنا عليهم ما يلبسون﴾ (٣).

أي لو جاءهم الملك لتمَثَّل لهم في صورة بشرية، فكذبوه أيضاً، كما يكذبون الرسل من البشر... لأنهم لا يطيقون رؤية الملك وهيئته..

---

(١) سورة المؤمنون ٢٤

(٢) سورة الإسراء ٩٤ - ٩٥

(٣) سورة الأنعام ٨ - ٩

وأحياناً كان المشركون يطلبون من رسولهم أن يأتيهم بملائكة يشهدون له ويؤيدون دعواه، فقد قال فرعون عن موسى عليه السلام، كما ذكر القرآن: ﴿أمْ أنا خيرٌ مِنْ هذا الذي هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبين. فلَوْلاَ أُلْقى عليه أسْوِرَةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكةُ مُقترِنين﴾ (١).

ولقي هذا المنطق المعوجّ قبولا لدى قومه الذين استخفَّ عقولهم وخدعهم: ﴿فاستخفَّ قَوْمَه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ (٢).

وكذلك كان منطق المشركين الذين واجههم خاتم النبيين محمد ﷺ، حين قالوا له، كما ذكر القرآن: ﴿لَوْماَ تأتيْنا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ وجاء الجواب القرآني: ﴿ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بالحقِّ وما كانوا إذًا مُنظَرين﴾ (٣) فإن الملائكة لو نزلوا كما يطلبون، لكان ذلك إيذاناً بعذابهم وهلاكهم لو كانوا يعقلون.

يكذّبون الصادقين!

إن مبعث العجب في موقف المكذبين بالرسل.. أنهم كانوا يعرفون صدق هؤلاء الرسل وأمانتهم.. وكان هؤلاء الرسل يتكلمون بلسان أقوامهم ويظهرون لهم الآيات التي أيدهم الله تعالى بها.. ولكن الجاحدين أعرضوا عنها.. وأهملوا النظر في دلائلهم.. كما قال تعالى: ﴿ألَمْ يَأْتِكُم نبأ الذين كفروا من قَبْلُ فذاقُوا وَبالَ أمْرِهم ولهم عذاب أليم. ذلك بأنه كانت تأتيهم رُسُلهم بالبينات فقالوا أبشرٌ يهدُوننا فكفروا وتوَلَّوا واستغنى اللهُ والله غني حميد﴾ (٤).

---

(١) سورة الزخرف ٥٢ ـ ٥٣

(٢) سورة الزخرف ٥٤

(٣) سورة الحجر ٧ ـ ٨

(٤) سورة التغابن ٥ ـ ٦

• وما أشقى الإنسانية في تاريخها الطويل إلا هذا التكذيب برسالات الأنبياء، واتباع الفلسفات الكاذبة والمدعوات الخادعة التي هي نتاج فكرٍ بشريّ قاصر! وهذا ما أشار إليه القرآن في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يا حسرةً على العبادِ ما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون﴾ (١)..

فقد كانت الإنسانية هي الخاسرة في هذا البُعْد عن منهج الأنبياء، وهذه المعارضة لدعواتهم التي هي طريقة النجاة لمن أراد!

أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد كانوا أبْعَدَ ما يكونون عن النفع الشخصي أو الفائدة المادية.. أو المصلحة الذاتية في الدعوة.. ولهذا كانوا يقولون لأقوامهم، كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿وما أسألكم عليه من أجْرٍ إن أجرِيَ إلا على رب العالمين﴾ (٢).

وقد أمر الله خاتمَ النبيين محمدًا ﷺ أن يقول لقومه مثل هذا القول: ﴿قل ما سألتكم مِنْ أجْرٍ فهو لكم إنْ أَجْرِيَ إلا على الله﴾ (٣). ﴿قل ما أسألكم عليه من أجْرٍ وما أنا من المتكلفين﴾ (٤). وليس وراء هذا غاية في التجرد للدعوة والارتفاع بها عن المصالح والمغانم، فهي دعوة خالصة لله تستهدف إنقاذ البشرية من الشقاء وحمايتها من الهلاك والخسران..

أما الاستثناء في قوله تعالى ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ (٥). فليس فيه سؤال أجر أو ابتغاء نفعٍ.. وإنما هو تذكير للمشركين بأنهم خرجوا في عداوتهم للنبي ﷺ عن كل حد، حتى نسوا ما

(١) سورة يس ٣٠
(٢) سورة الشعراء ١٠٩
(٣) سورة سبأ ٤٧
(٤) سورة ص ٨٦
(٥) سورة الشورى ٢٣

تقتضيه القرابة والرحم من كف الأذى، فلم يكن هناك بطن من قريش إلا ولهم قرابة من رسول الله ﷺ..

لكنهم لم يَرْعَوا ذلك في علاقتهم به، فكذبوه، وافتروا عليه، بل حاولوا قتله، ثم حملوا السلاح عليه في حروب متلاحقة.. وكان عمه أبو لهب من أشد الناس عداوةً له وإيذاء لأصحابه. فلا يفهم من قوله سبحانه: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى﴾ أن الرسول ﷺ قد جعل هذه المطالبة برعاية هذه القربى أجراً له.. لأن هذه الرعاية تقتضيها الأخلاق الإنسانية وتستشعرها الفطرة السليمة.. لكن المشركين خرجوا عن كل حد في حربهم لدعوة الإسلام، فقطعوا الأرحام وخرجوا عن أخلاق الشهامة والنبل التي كانوا يفتخرون بها من قبلُ، كما وصفهم الله سبحانه: ﴿فهل عَسَيْتُم إن توليتم أن تُفسِدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعْمَى أبصارهم﴾[1].

وفي القرآن آيات واضحة الدلالة على أن الرسول ﷺ لم يبتغ من قومه أجرا من أي نوع كان: ﴿أمْ تسألُهم أجرًا فهم مِنْ مَغْرمٍ مُثْقَلون﴾[2]

النبوة اصطفاء لا كَسْب:

● يقرر القرآن أن الله سبحانه قد اختار أنبياءه وفقاً لعلمه وحكمته، دون تطلّع من هؤلاء المختارين ولا طموحٍ الى مقام النبوة.

فهو اصطفاء مقصود له أسبابه التي لا يحيط بها البشر: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾[3]. ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل

---

(١) سورة محمد ٢٢ ـ ٢٣
(٢) سورة القلم ٤٦
(٣) سورة الحج ٧٥

إبراهيم وآل عِمْرانَ على العالمين. ذريةً بَعْضُها من بعضٍ والله سميع عليم﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿أولئك الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حَملْنا معَ نوحٍ ومن ذريةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وممن هَديْنا واجتبيْنا إذا تُتلى عليهم آياتُ الرحمنِ خرُّوا سُجَّدًا وبُكيًّا﴾[2].

• ومن هنا أنكَر القرآن على المشركين الذين ظنوا أن النبوة يمكن أن تُكْتَسب بالوجاهة والقوة والثراء. وغفلوا عن أسباب الاختيار الإلهي التي لا مدخل فيها لشيء مما تواضع عليه البشر في أنظمتهم الاجتماعية: ﴿وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم. أهُمْ يقسِمُون رحمة ربك نحن قسَمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجات ليتَّخذَ بعضُهم بعضًا سُخرِيًّا ورحمةُ ربِّك خير مما يجمعون﴾[3].

ويقول سبحانه: ﴿الله أعلم حيثُ يَجْعَلُ رسالته﴾[4] ولم يكن لخاتم النبيين محمد ﷺ قبل أنه يبعث رسولا للعالمين، تطلع إلى مقام النبوة، ولا سعى لاكتساب ما يؤهله لها.. كما بين ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كُنْتَ تَدْرى ما الكتابُ ولا الإيمان﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وما كنت ترجو أن يُلْقَى إليك الكتابُ إلا رحمةً من ربك﴾[6]

وقال سبحانه: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتابٍ ولا تَخُطُّه بيمينك

(١) سورة آل عمران ٣٣ ـ ٣٤

(٢) سورة مريم ٥٨

(٣) سورة الزخرف ٣١ ـ ٣٢

(٤) سورة الأنعام ١٢٤

(٥) سورة الشورى ٥٢.

(٦) سورة القصص ٨٦.

إذاً لارتابَ المُبْطِلُون﴾[1].

وبهذا لا يبقى شك في أن النبوة لم تكن لتنال باجتهاد أو سعي من النبي إليها.. بل كان المصطَفوْن الأخيار لا يحدِّثون أنفسهم بها قبل أن ينالوها.. ولا يرجون أن تكون قبل أن يقع عليهم الاختيار..

ومن هنا تدرك لماذا أخطأتْ رجلاً مثل أمية بن أبي الصَّلْت الذي كان يسعى إليها ويُعِدُّ نفسه بقراءة الكتب السالفة ويسأل الأحبار والرهبان عن نبي آخر الزمان.. طمعاً في أن يكون هو ذلك النبي.. فلما بعث الله خاتم النبيين محمد ﷺ امتلأ قلب أمية حسَداً وعداوة له، وكفر بدعوته مع وضوح دلائل نبوته!

غاية الكمال البشري:

ويتضح في القرآن من حديثه عن الأنبياء الذين سماهم، أنهم كانوا أسوة حسنة في التقوى والإنابة لرب العالمين، والرحمة والرفق بالناس أجمعين.. وأنهم استكملوا صفات الكمال التي تنبغي للبشر.. وتنزهوا عن كل ما لا يتفق مع مكارم الأخلاق.

قال تبارك وتعالى: ﴿واذكر عبادَنا إبراهيم واسحٰق ويعقوبَ أُولِي الأيدي والأبصار. إنّا أخْلَصْناهم بخالصةٍ ذكرى الدار. وإنهم عِنْدنا لَمِنَ المصطَفَيْن الأخيار. واذكر إسماعيل والْيَسَعَ وذا الكِفْل وكلٌّ من الأخيار﴾[1]..

فالأنبياء خيرة الله سبحانه من خلقه، وهم أصحاب عزائم قوية وعقول راجحة.. ﴿أولى الأيدي والأبصار﴾ وهم يعملون للآخرة ويؤثرونها على

---

(١) سورة العنكبوت ٤٨.

(٢) سورة ص ٤٥ ـ ٤٨.

زينة الحياة الدنيا: ﴿إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذكرى الدار﴾.

وهم كما وصفهم رب العالمين في عبادتهم وتقواهم وخشوعهم وفعلهم للخيرات واستمساكهم بمكارم الأخلاق: ﴿وجعلناهم أئمةً يَهْدُون بأمرنا وأوحينا إليهم فِعْلَ الخيراتِ وإقامَ الصلاةِ وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ (١).

ولا ريب في أن الله سبحانه زوَّدهم بالعلم والحكمة، فلا يصل إلى رتبتهم في المعرفة الصادقة أحد مهما كان حظه من ابتغاء العلم أو الاشتغال بالحكمة: ﴿ولوطًا آتَيْناه حُكمًا وعلمًا﴾ (٢).

﴿ففهَّمْناها سليمانَ وكُلًّا آتَيْنا حُكْمًا وعِلمًا﴾ (٣)

كما وهبهم سبحانه الحظَّ الأوفى من الفضائل الخلقية، ومن أعظمها طاقةٌ لا تنفد من الصبر والرجاء: ﴿وأيوبَ إذ نادى ربَّه أنِّي مَسَّنِيَ الضرُّ وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشَفْنا ما به من ضُرٍّ وآتيناه أهْلَه ومِثْلَهم معهم رحمةً مِنْ عِنْدِنا وذكرى للعابدين. وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلٌّ من الصابرين. وأدْخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين﴾ (٤).

ومَنْ أوْلى منهم بالمسارعة إلى الخيرات والإخلاص لخالق الأرض والسموات، والخشوع في العبادات: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَبا ورَهبًا وكانوا لنا خاشعين﴾

هكذا جاءت صورة الأنبياء في القرآن.. في أكمل صفة بشرية.. ليس فيها شيء مما افتراه المبطلون في الكتب المحرفة، مما يشين الأنبياء ويَسِمُهم

---

(١) سورة الأنبياء ٧٣.

(٢) سورة الأنبياء ٧٤.

(٣) سورة الأنبياء ٧٩.

(٤) سورة الأنبياء ٨٣ ـ ٨٦.

بالنقص والوقوع في الأثام!

فإذا قارنّا بين صفة لوط عليه السلام في القرآن: ﴿ولوطاً آتيناه حكما وعلماً﴾ وبين ما افتراه عليه الوضّاعُون في التوراة المحرّفة، فإننا نجد الأمر من النقيض إلى النقيض!

وكذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

• أما القرآن، وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه، ففيه أمر للنبي ﷺ أن يقتدي بهؤلاء المرسلين في صبرهم وعزمهم: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزمِ من الرسل﴾ (١).

وأن يعلم أنه واحد منهم يسير على المنهج الذي ارتضاه الله لعباده المرسلين: ﴿أولئك الذين هَدَى الله فبِهُدَاهم اقْتَدِه﴾ (٢).

وليس في القرآن ذكر للأنبياء بشيء يَقْدح في عصمتهم أو يصمهم بسوء.. وما ورد فيه من مواقف بعض الأنبياء التي عاتبهم الله عليها.. فهي ليست نقائص، وإنما هي دليل على أن البشر مهما بلغوا من الكمال النفسي والخلقي فهم بحاجة دائمة إلى هداية الله سبحانه وتعليمه لهم ما هو أَوْلَى بالاتباع.. ومن هذا القبيل ما جاء في القرآن عن فتنة سليمان عليه السلام: ﴿ولقد فتَنَّا سليمانَ وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ (٣) فهذه الفتنة ابتلاء من الله سبحانه له وتعليم، ولم يَرِدْ في نص صحيح ما يؤيد الروايات الإسرائيلية عن هذه الفتنة.. وكذلك الأمر في قصة الخصمَيْن مع أبيه داود عليه السلام: ﴿وظن داودُ أَنَّما فتنَّاه فاستغفر ربَّه وخَرَّ راكعاً وأناب﴾ (٤).

---

(١) سورة الأحقاف ٣٥.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) سورة ص ٣٤.

(٤) سورة ص ٢٤.

فلا يصدق ما تزعمه الاسرائيليات أن داود عليه السلام طمع في زوجة جندي من جنوده فأرسله إلى ميدان القتال ليقتل ثم يتزوج داود امرأته!

فهذه سقطة من سقطات الطمع والشهوة لا يجوز أن تنسب إلى نبي من الأنبياء..

والتفسير الصحيح لهذه الآيات أنها مواقف تعليم من الحق تبارك وتعالى لأنبيائه ليزدادوا هدى وعدلاً ومجانبة للهوى: ﴿يا داودُ إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكُمْ بين الناس بالحق ولا تَتَّبع الهوى فيُضِلَّك عن سبيلِ الله إن الذين يَضِلُّون عن سبيلِ الله لهم عذابٌ شديد بما نَسُوا يومَ الحساب﴾ (١)

○ أما موقف يونس عليه السلام من قومه، ومغاضبته لهم فليست قادحة في عصمته ولا في كمال خلقه.. وإنما كانت باجتهاد منه حين غلب على ظنه أن هؤلاء لا يؤمنون.. وقد علَّمه الله سبحانه درساً بليغاً من دروس اليقين حين التقمه الحوت في جوفه.. ولم يجد ملجأ له إلا التسبيح والدعاء: ﴿فلولا أنه كان من المسبِّحين لَلَبِثَ في بطنه إلى يومِ يُبْعثون﴾ (٢).

وكان موقفه هذا من العظات التي وجهها الحق تبارك وتعالى لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ إذ قال: ﴿فاصبِرْ لحكم ربِّك ولا تكن كصاحبِ الحُوتِ إذْ نادَى وهو مكظوم. لولا أنْ تَداركه نعمةٌ من ربه لَنُبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربُّه فجعله من الصالحين﴾ (٣).

○ وكان من تواضع خاتم النبيين ﷺ ومعرفته بأقدار الأنبياء أنه نهى

---

(١) سورة ص ٢٦.

(٢) سورة الصافات ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) سورة القلم ٤٨ ـ ٥٠.

عن تفضيله على يونس عليه السلام فقال: «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[1] وجملة القول أن صورة الأنبياء في القرآن هي أكرم صورة وأن سيرتهم أنبل سيرة.. فهم المصطفون الأخيار الذين آتاهم الله العلم والحكمة وألهمهم فعل الخيرات والبعد عن المنكرات..

الإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً:

○ من كمال الإسلام ودلائل صدقه أنه يدعو إلى الإيمان بالرسل جميعاً، لا فرق بين متقدم ومتأخر، ولا بين عربي وغير عربي، لأن رسالات الله سبحانه إلى الأنبياء واحدة في جوهرها وأصلها، وإن اختلفت من جهة الشرائع والأحكام..

فلا يصح إيمان من يؤمن ببعض الأنبياء، ويكفر ببعض. فهذا تناقض يؤدي إلى الكفر والضلال.

قال تبارك وتعالى: ﴿آمن الرسولُ بما أُنْزِل إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكتِه وكتبه ورُسُله لا نفرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنْ رُّسِله﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿إنّ الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرِّقُوا بَيْنَ اللهِ ورُسُله ويقولون نُؤمنُ ببعضٍ ونَكْفُر ببعضٍ ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحدٍ منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورَهم وكان الله غفورا رحيما﴾[3].

● إن هذا الكفر ببعض الرسل الذي يزعم أصحابه أن لهم حظاً من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) سورة النساء ١٥٠ ـ ١٥٢.

الإيمان، يَسْلب أصحابه كلَّ نصيب من الإيمان!: ﴿أولئك هم الكافرون حقا﴾.

فما معنى أن يؤمن هؤلاء ببعض الأنبياء.. ثم يكفرون بغيرهم؟! وقضية الإيمان بالوحي الإلهي تستدعي الإيمان بكل وحي، متى ظهر صدق الرسول بما يؤيده الله به من المعجزات..

والمسلم، بمقتضى التوجيه القرآني يؤمن بالأنبياء جميعاً، وإن كان يلقى العنت ممن يدَّعون اتباعهم من اليهود والنصارى.. وهو يحب موسى وعيسى وكل الأنبياء كما يحب محمداً ﷺ.

أما غير المسلمين فقد أظهروا العداوة لمحمد ﷺ وكذبوه، إلا قليلاً ممن هداهم الله إلى الإيمان به.. وما زالت عداوتهم لدين الإسلام تحملهم على محاربته ومحاولة إطفاء نوره خلال العصور.. ويأبى الله ما يريدون: ﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ (١).

ولو أنهم نظروا في دلائل نبوة محمد ﷺ، وتأملوا معجزته الكبرى، وهي القرآن.. وتخلَّوا عن العناد والاستكبار، لرأوا الحق واضحاً والبينة ظاهرة: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البينة. رسولٌ من الله يتلو صُحفا مُطَهّرة فيها كتب قيمة﴾ (٢).

وقد كان اليهود في زمن البعثة النبوية يعرفون محمدا ﷺ وصدق نبوته، لكنهم كفروا به بغياً وحسداً، كما ذكر القرآن: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لم تَلْبِسُون الحقَّ

---

(١) سورة التوبة ٣٢.

(٢) سورة البينة ١ ـ ٣.

بالباطل وتكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون. وقالت طائفة من أهل الكتاب آمِنُوا بالذي أُنْزِل على الذين آمنوا وَجْهَ النهارِ واكفروا آخره لعلهم يرجعون. ولا تؤمنوا إلا لِمَنْ تَبِعَ دينكم قل إن الْهُدَى هدى الله أن يُؤْتَى أحدٌ مِثْلَ ما أوتيتم أو يُحَاجُّوكم عند ربكم. قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم. يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١) ﴿الذين آتيناهم الكتابَ يَعْرفونه كما يَعْرفون أبناءهم وإنّ فريقا منهم لَيَكْتُمون الحقَّ وهم يَعْلَمون﴾ (٢).

ولو أنصف أهل الكتاب أنفسهم وأشفقوا عليها من الشقاء الأبديّ.. لاعترفوا بالحق.. واحترموا منطق الأدلة اليقينية التي تثبت صدق محمد ﷺ فيما بلّغه عن ربه..

منازل الأنبياء والرسل:

○ أثبت القرآن التفاوت بين الرسل في الدرجات عند الله سبحانـه.. وفي الخصائص التي ميزهم بها.. وهذا التفاوت سنة الله في خلقه: ﴿تلك الرسلُ فضَّلْنَا بعضَهم على بعضٍ، منهم من كَلَّم الله ورفع بعضهم درجاتٍ وآتَيْنا عيسى آبْنَ مريمَ البينات وأيَّدْناه بروح القُدُس ولو شاء الله ما اقتَتَل الذين مِن بَعْدهم مِن بَعْد ما جاءتهم البيناتُ ولكن اختلفوا فمنهم من آمنَ ومنهم من كَفر ولو شاء اللهُ ما اقتتلوا ولكنّ الله يفعل ما يريد﴾ (٣).

وهذا التفضيل لا ينقض اتصافهم بصفات الكمال وتنزههم عن المعايب والآثام.. فالتفضيل زيادة في الفضائل واختصاص بدرجات من المكارم..

---

(١) سورة آل عمران ٧٠ ـ ٧٤.

(٢) سورة البقرة ١٤٦.

(٣) سورة البقرة ٢٥٣.

○ وليس من قبيل التعصب أن يؤمن المسلم بأن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء وأعلاهم درجة عند الله.. فهذا الفضل لا ينقص درجات الأنبياء، بل هو شرف لهم جميعاً.. وقد بين النبي ﷺ الخصائص التي ميزه الله بها في دعوته ورسالته فقال: «أعطيت خمساً لم يُعْطهن أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وأُحِلَّتْ لي الغنائم، وجُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأوتيتُ جوامع الكلم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس كافة»[1].

وفي القرآن ما يدل على تفضيل الله سبحانه لخاتم أنبيائه محمد ﷺ، إذ يقول سبحانه: ﴿وأنزل اللهُ عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكُنْ تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[2].

فقد أخذ الله على الأنبياء جميعاً الميثاق أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه، قبل أن يظهر في هذا الوجود! قال تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لِمَا معكم لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصْرِي؟ قالوا أقرَرْنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾[3].

ولم يكن هذا الميثاق لأحد من الأنبياء قبله ﷺ. كما أشار القرآن إلى موقف الشفاعة العظمى يوم القيامة الذي يخص الله به خاتم أنبيائه محمد ﷺ وذلك في قوله سبحانه: ﴿ومن الليل فتهجَّدْ به نافلةً لك عسى أن يَبْعثك ربُّك مقاماً محمو ﴾[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) سورة النساء ١١٣.

(٣) سورة آل عمران ٨.

(٤) سورة الإسراء ٧٩.

وهو موقف الشفاعة الذي يحمده فيه الخلق جميعاً، حين يتخلى الأنبياء عن هذه الشفاعة، ويعتذر كل منهم بعذر.. حتى يأتي الناس في موقف الحشر إلى محمد ﷺ فيسألوه الشفاعة.

فيقول ﷺ أنا لها.. فيشفع لهم بإذن ربه ويتقبل الله منه شفاعته ويقول له: «يا محمد سَلْ تُعْطَ واشْفع تُشَفَّعْ..» كما جاء في صحاح الأحاديث[1].

القرآن أوثق مصدر لتاريخ الأنبياء:

○ إن القرآن الكريم الذي يوقن كل مسلم بأنه لا ريب فيه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو المصدر الصحيح لقصص الأنبياء ومواقفهم مع أممهم، ولا يحتاج المسلم مع القصص القرآني إلى شهادة من التاريخ أو وثيقة من وثائق البشر.. فيكفي أن الله سبحانه قال ذلك في كتابه، الذي قامت الدلائل على أنه وحي صادق وتنزيل من حكيم حميد..

قال الله سبحانه: ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق﴾[2] وقال سبحانه: ﴿نحن نقصُّ عليك أحْسَنَ القَصص بما أَوْحينا إليك هذا القرآنَ وإنْ كنتَ من قَبْلِه لمن الغافلين﴾[3] وقال سبحانه: ﴿لقد كان في قصَصهم عبرةٌ لِأُوْلِي الألباب، ما كان حديثًا يُفْتَرى ولكنْ تصديقَ الذي بَيْنَ يديه وتفصيلَ كل شيءٍ وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾[4].

ومن هنا فإن الزعم بأن القصص القرآني لا يستلزم الوجودَ التاريخي، أو أنه قصص للتأثير الفنّي، لا يلزم أن يكون مطابقاً للواقع - يخرج

---

(١) حديث الشفاعة أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) سورة الكهف ١٣.

(٣) سورة يوسف ٣.

(٤) سورة يوسف ١١١.

بصاحب هذا القول الضال عن حقيقة الإيمان ويَسْلُكه في عِدَادِ المكذبين بهذا الكتاب الكريم!.

○ إنها مَقُولة خاطئة.. ابتدأها بعض المستشرقين.. وتلقاها عنهم بعض المفتونين من المسلمين، الذين صنعهم الاستعمار الفكري وأثَّرتْ فيهم التبعية الثقافية الغربية.. وقد استنكر المسلمون جميعاً هذا الزعم الضالّ، الذي يفتح باب الشك في حقائق القرآن الكريم، وهو باب، لا يدخله إلا الخاطئون المكذبون!

○ لقد ذكر القرآن أسماء خمسة وعشرين نبياً ورسولا، فما يجوز لمسلم أن يشك في الوجود التاريخي لواحد منهم، ولا أن يشك في الوقائع التي وردت في قصته كما ساقها القرآن..

وإذا كان التاريخ البشري لم يسجل هذه الوقائع، فإنما ذلك لقصوره وعجزه عن استيعاب تفاصيل حياة الإنسان عبر الأزمان!

○ إن بعض المفتونين قد يردد أن التاريخ البشري لم يسجل حادث الطوفان! فمن ذا الذي يسجِّل ومن ذا الذي يحفظ هذا التاريخ؟!

○ وإن بعضهم قد يتساءل عن قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام وبنائهما الكعبة المشرفة بأمر من الله سبحانه.. بدعوى أن هذا الحادث غير مسطور في ألواح التاريخ!

فمن ذا الذي كان يعنيه من البشر حينئذ أن يسجل هذا البناء؟! ومن ذا الذي يشهده منهم في زمنٍ أُلْقِيَ فيه إبراهيم الخليل في النار.. وتعرض فيه لخسف جبابرة الكفر في كل مكان؟!

□ هيهات أن يُسَجَّل مثل هذا التاريخ لدى طواغيت الجاهلية وعُبَّاد الأصنام!

فأي تاريخ يَعْنُون.. وأي مؤرخ يريدون؟!

حقاً إن القرآن لا يقصد في حديثه عن الأنبياء ذكراً لتواريخ السنين.. ولا تفاصيل الوقائع ولا أسماء الشخصيات ولكنه يهدف إلى ذكر أصل القصة وأهم أحداثها والعبرة التي تستقى منها..

ولكن هذا الإعراض عن التفاصيل التاريخية التي لا مدخل لها في العبرة، لا يجوز أن يكون سبباً للشك في الوجود التاريخي لصفوة خلق الله، ورسله إلى عباده.

○ وليس القصد هنا التذكير بما وقع فيه بعض المفتونين في هذا العصر، من تشكيك في صلة القص القرآني بالتاريخ.. وإنما نبتغي التحذير من مثل هذه الشبهة التي قد تساق إلى المسلمين في ثوب من التظاهر بالعلم والتقيد بمناهج البحث!

ونتساءل: أيوجد على ظهر هذه الأرض، كتاب من كتب التاريخ صحَّتْ نسبته، وثبت صدقه وبرئ من الأخطاء والتحريف المقصود أو غير المقصود؟!

وما التاريخ؟ أليس صناعة فكر بشري، يصيبه الخطأ والنسيان والوهم، ويعتريه الكذب والتناقض، ويَشُوبه القصور والعجز، وتخفى عليه كثير من الحقائق؟

بلى.. هو كذلك، وكم من أحداث سجلها التاريخ، ثم تغيرت حقائقها بعد حين، بل تحولت من النقيض إلى النقيض!

ومن هنا فإن عقيدة المسلم الحق، تقتضيه أن يؤمن بكل ما جاء في القرآن عن الأنبياء والمرسلين إيماناً يقينياً لا يعتريه شك ولا شبهة، ولا يحتاج إلى تصديق أو توثيق، من صحف المؤرخين، أو نقوش السابقين!

القرآن يسجل تاريخ خاتم النبيين:

○ من فضل الله سبحانه على هذه الأمة المسلمة أن جعل في كتابه الكريم الذي لا ريب فيه، تسجيلاً لكبار الحوادث في تاريخ هذا الدين وسيرة خاتم المرسلين، ليكون شاهداً على صدق هذا النبي، وبقاء هذه الدعوة إلى آخر الزمان.. وقد بين القرآن النعم الكبرى التي خص الله بها خاتم النبيين ﷺ، في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وأَنزلَ اللهُ عليك الكتابَ والحكمةَ وعلَّمك ما لم تكنْ تَعْلم وكان فَضْلُ اللهِ عليك عظيما﴾ [1].

كما أشار القرآن إلى رعاية الله سبحانه لمحمد ﷺ في نشأته ومراحل حياته، حتى أتم عليه النعمة بالهداية إلى الدين الحق، وحمل أمانة النبوة: ﴿والضحى. والليل إذا سجى. ما ودَّعك ربُّك وما قَلَى. وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى. ولَسوف يُعْطيك ربُّك فترضَى. أَلَمْ يجدْكَ يتيمًا فآوَى. وَوَجَدَكَ ضالًّا فهدى. ووجَدك عائلا فأغنى. فأما اليتيمَ فلا تَقْهر. وأما السائلَ فلا تنهر. وأما بنعمة ربِّك فحدِّثْ﴾ [2].

ويستطيع المسلم الذي يتدبر كتاب ربه أن يرى أهمَّ مواقف السيرة النبوية في الفترة المكية، والفترة المدنية، واضحاً في كتاب الله سبحانه، ولا نستطيع هنا أن نستقصى حديث القرآن عن محمد ﷺ وأحداث دعوته وموقف أعدائه منه، وجهاده لهم، حتى جاءه نصر الله والفتح.. فهذا حديث طويل يحتاج إلى تناول خاص وإفراد بالبحث.. وحسبنا أن نشير هنا إلى بعض النماذج لهذا التسجيل القرآني لأحداث الدعوة الإسلامية.. ففي القرآن الآيات التي تلقاها الرسول ﷺ في بدء الوحي حين جاءه الملك فقال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من عَلَق. اقرأ

---

(١) سورة النساء ١١٣.

(٢) سورة الضحى.

وربُّك الأكرم. الذي علَّم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[1] وهي أول ما نزل من القرآن بإجماع العلماء.

وفيه الأمر له ﷺ بالإنذار في بداية الدعوة: ﴿يا أيها المُدَّثر. قم فأنذر وربَّك فكبِّر. وثيابَك فَطهِّر﴾[2] والأمر له ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وأنْذِرْ عَشِيرتك الأقربين﴾[3].

وفيه أيضاً الإذن بالدعوة الجهرية للكافة:
﴿فاصْدَعْ بما تؤمر وأعرِضْ عن المشركين﴾[4].

وفي القرآن حديث عن المستهزئين الذين أرادوا أن يحولوا بين الناس وبين الإصغاء لهذه الدعوة: ﴿إنا كَفَيْناك المستهزئين. الذين يَجْعلون مع اللهِ إلهًا آخرَ فسوف يعلمون. ولقد نعلم أنك يضيق صَدْرُك بما يقولون. فسبِّحْ بحمدِ ربك وكن من الساجدين. واعبُدْ ربَّك حتى يأتيك اليقين﴾[5].

• وفي القرآن حديث عن كثير من أحداث الفترة المكية، وتوجيه لكثير من المواقف التي واجهها الرسول ﷺ..

• وفيه حديث مفصل عن حادث الإسراء والمعراج الذي وقع في السنة العاشرة من البعثة النبوية، وهو معجزة من معجزات النبي ﷺ: ﴿سبحان الذي أسْرَى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي

(١) سورة العلق ١ ـ ٥.
(٢) سورة المدثر ١ ـ ٤.
(٣) سورة الشعراء ٢١٤.
(٤) سورة الحجر ٩٤.
(٥) سورة الحجر ٩٥ ـ ٩٩.

باركْنا حوله لِنُريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾[1].

• وفي القرآن حديث عن الهجرة، أسبابها ووقائعها ونتائجها: ﴿إلَّا تَنْصروه فقد نَصَرَهُ اللهُ إذ أخْرجه الذين كفروا ثانِيَ اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزَنْ إنّ اللهَ معنا، فأنْزَل الله سكينتَه عليه وأيَّده بجنودٍ لم ترَوْها وجعلَ كلمة الذين كفروا السُّفْلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[2].

كما تحدث القرآن عن حُكْم الهجرة، وأثنى على المهاجرين المجاهدين، وتحدث عن مرحلة البناء والجهاد في المدينة، بناء المجتمع الإسلامي، بعد هجرة النبي ﷺ وأصحابه إليها، وجهاد أعداء الدين، من المشركين والمنافقين واليهود. فأشار القرآن إلى المسجد الذي أسِّس على التقوى من أول يوم: ﴿لَمسجدٌ أَسِّسَ على التقوى مِنْ أول يومٍ أحقُّ أنْ تقومَ فيه، فيه رجالٌ يحبون أن يتطهّروا واللهُ يحبُّ المُطَّهرين﴾[3] وكان ذلك الحديث في سياق الحديث عن مسجد الضِّرار الذي أسَّسه بنو غَنْم بن عوف، بجنب مسجد قُبَاء بإشارة من أبى عامر الراهب، الذي سماه رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق!

أما هذا المسجد الذي أسس على التقوى فقد قيل إنه مسجد قباء، الذي أسسه رسول الله ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء.. من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة وقيل هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويمكن الجمع بين هذين القولين بأن مسجد قباء أسس على التقوى وكذلك المسجد النبوي أسس على التقوى، وكلاهما قد بنى بأمره ﷺ، بل وشارك الرسول ﷺ

---

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة التوبة ٤٠.

(٣) سورة التوبة ١٠٨.

في العمل في بنائها.. ونلاحظ أن التعبير القرآني: «لَمسجدٌ أسس» جاء بالتنكير دون التعريف، ولهذا يصدق ذلك على كل مسجد فيه هذه الصفة، وبني على هذا الأساس.

○ وفي القرآن ذكر لأشهر الغزوات التي شهدها المصطفى ﷺ، ففيه ذكر لغزوة بدر، وأُحدٍ، والخندق، وبني النضير، وبني قريظة والحديبية، وفتح مَكة، وغزوة حنين وتبوك.

وكان التناول القرآني لهذه الغزوات تسجيلاً لمواقفها واستجلاء لدروسها، وتعليماً للمسلمين كيف يكون الجهاد الحق، وكيف تكون الطاعة المطلقة لله ورسوله..

● أما غزوة بدر فقد ذكرت مُجْملةً في سورة آل عمران، ومفصلة في سورة الأنفال.

ففي سورة آل عمران ذكرت هذه الغزوة مرتين، أولاهما إشارة الى عبرتها، دون تسميتها، في قوله تعالى: ﴿قد كان لكم آيةٌ في فئتَيْن التقتَا فئةٌ تقاتِلُ في سبيلِ الله وأخرى كافرةٌ يرَوْنهم مِثْلَيْهم رَأْيَ العَيْن والله يؤيِّد بنصره من يشاء إنّ في ذلك لَعبرةً لأولى الأبصار﴾[1]. والمخاطبون في قوله سبحانه: ﴿قد كان لكم آية﴾ هم اليهود الذين زادتهم غزوة بدر حسداً وحقداً.. بدليل قوله سبحانه قبل هذه الآية: ﴿قل للذين كفروا ستُغْلَبون وتُحْشَرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾.

ثم ذكرت هذه الغزوة باسمها في سورة آل عمران في قوله سبحانه ﴿ولقد نصركُم الله ببَدْر وأنتم أذلةٌ فاتقوا الله لعلكم تَشْكرون﴾[2] وكان

---

(١) سورة آل عمران ١٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

التذكير بهذا النصر العظيم في سورة آل عمران قبل الحديث عن غزوة أحد التي وقع فيها ابتلاء المؤمنين، حين خالفوا أمر رسول الله ﷺ.

لكن تفصيل الوقائع واستخلاص العبر من غزوة بدر جاء في سورة الأنفال.. من بدايتها إلى منتهاها، وهذا مفصل في كتب التفسير والسِّير.

• وأما غزوة أحد فقد ذكرت في سياق واحد من سورة آل عمران من قوله تعالى ﴿وإذ غدَوْتَ مِنْ أهْلك تبوِّىء المؤمنين مقاعدَ للقتال والله سميعٌ عليم﴾ (١) إلى قوله سبحانه: ﴿فانْقَلبوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهم سُوءٌ واتَّبعوا رضوانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ عظيم﴾ (٢).

وذكرت غزوة الخندق في سورة الأحزاب، من قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تَرَوْها وكان الله بما تعملون بصيرا﴾. إلى قوله تبارك وتعالى في السورة نفسها: ﴿وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ وكان اللهُ قويًّا عزيزا﴾ (٣).

وجاء ذكر غزوة بني قريظة في آيتين من سورة الأحزاب هما قوله تبارك وتعالى: ﴿وأنزل الذين ظاهَرُوهم مِنْ أهلِ الكتاب مِنْ صَيَاصِيهِم وقَذَفَ في قلوبهم الرعبَ فريقا تقتلون وتَأْسِرون فريقا. وأوْرثَكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضا لَمْ تطأوها وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ قديرا﴾ (٤).

وجاء ذكر غزوة بني النضير في سورة الحشر، من قوله سبحانه ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما

---

(١) سورة آل عمران ١٢١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٤.

(٣) سورة الأحزاب ٢٥.

(٤) سورة الأحزاب ٢٦ ـ ٢٧.

ظَنَنْتُم أن يَخْرُجوا وَظَنّوا أنهم مانعتُهم حصونُهم من الله﴾[1] إلى قوله سبحانه: ﴿لا يقاتلونكم جميعًا إلا في قُرًى محصَّنةٍ أو من وراء جُدر بَأْسُهُم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتَّى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾[2].

○ وأما غزوة الحديبية فقد كان الحديث عنها في سورة الفتح في آيات كثيرة من هذه السورة، كقوله سبحانه: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يُبَايِعون الله يدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم﴾ وقوله تعالى: ﴿لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقّ﴾ ولا بد من تأمل السورة كلها لمن أراد أن يعرف الأحداث والأحكام التي وقعت في غزوة الحديبية.

وجاء الحديث عن فتح مكة في سورة الفتح، وفي سورة النصر: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾..

ثم جاء الحديث عن غزوة حنين في قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿ويوم حنين إذ أعجبَتْكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئا﴾..

كما تحدث القرآن عن غزوة تبوك ـ وهي غزوة العسرة في سورة التوبة أيضاً في آيات متوالية، من قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكُم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقَلْتم إلى الأرض أَرَضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾.

وفي القرآن إشارات الى بعض ما وقع في الغزوات والسرايا الأخرى، كقوله سبحانه: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلامَ لسْتَ مؤمنا﴾. وقوله تعالى: ﴿يقولون لئن رجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجنَّ الأعزُّ منها الأذل﴾.

(١) سورة الحشر ٢.
(٢) سورة الحشر ١٤.

وغير ذلك من إشارات إلى أحداث وقعت خلال مرحلة الجهاد التي عاشها المسلمون مع رسول الله ﷺ، والتي انتهت بالنصر والفتح وإعلاء كلمة الله.

وهكذا يتبين أن أهم حوادث البعثة النبوية.. والدعوة.. والبناء والجهاد.. قد جاءت في محكم الكتاب الكريم، ليكون تاريخ دعوة خاتم النبيين ﷺ في الذروة العليا من الثبوت واليقين، لا مجال فيه لشك ولا موضع فيه لغموض.

الإيمان بالكتب

○ يستلزم الإيمانُ بالرّسُل، الإيمانَ بالكتب التي تلقَّاها هؤلاء المرسَلون من رب العالمين، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكته وكتبهِ ورُسله لا نفرِّق بَيْن أَحدٍ من رسله﴾ (١).

وأول ما نلمحه من الحكمة البالغة في إنزال الكتب على هؤلاء المرسلين.. أنه توجيه للعلم.. وإرشاد للإنسانية إلى فضيلة الكتابة، إذ هي أداة إلى المعرفة وتلقِّي ما أراده اللهُ من عباده في هذه الكتب التي جاء بها المرسلون.. فالكتب، تستلزم الكتابة، والكتابة وسيلة المعرفة. ولهذا كانت بداية الوحي إلى خاتم النبيين محمد ﷺ توجيهاً إلى هذه الحقيقة، إذ قال له الحق سبحانه: ﴿اقرأ باسم ربِّك الذي خَلق. خَلق الإنسانَ مِنْ علَق. اقرأ وربُّك الأكرمُ. الذي عَلَّمَ بالقلم. عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلم﴾.

وهذا ما ينبغي أن تلتفت البشرية إليه، لتدرك أثر الدين الحق في نشر الضياء والدعوة إلى العلم.. فلو شاء الله سبحانه لجعل الوحي كلاماً يحفظ دون كتابة، ولكنه سبحانه وجَّه عباده لكتابته، لتكون هذه الكتب حجة

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥.

على البشرية وأساساً لبناء العلم النافع الذي يهديها سبيل الرشاد..

• أما الحكمة في تعدد الكتب السماوية وتعاقبها، حتى خُتمت بالقرآن الذي نزل مصدّقا لِمَا بَيْن يديه من الكتاب ومُهَيْمناً عليه.. فذلك ـ والله أعلم ـ لأن كل كتاب منها قبل القرآن.. كان يناسب مرحلة من مراحل الحياة الإنسانية التي تطورت جيلاً بعد جيل.. ولأن هذه الكتب، غير القرآن، لم تكن معجزةً في بيانها، ولم تكن منزلة للتحدّي، وقد أصابها من التحريف والنسخ ما جعل الضرورة تقضي بتعاقب نزولها..

○ حتى جاء القرآن المعجزة الكبرى لنبينا محمد ﷺ محفوظاً من التحريف، فتحدّى به، متعبّداً بتلاوته.. فكان هو الكلمة الأخيرة والمعجزة الفاصلة، والحجة القائمة على البشرية إلى أن تقوم الساعة..

وقد جاء في القرآن ذكر أربعة كتب: صحف إبراهيم والتوراة، والإنجيل، والزبور. أما صحف إبراهيم فقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿أمْ لم ينبَّأْ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى﴾ وأما زبور داود فقد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وآتيْنا داودَ زَبُورا﴾.

وأما التوراة والإنجيل فقد ذكرا في كثير من آيات القرآن، بقوله تعالى: ﴿إنا أَنزلنا التوراة فيها هُدًى ونور﴾ وقوله تعالى: ﴿وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى آبْنِ مريمَ مصدّقاً لِمَا بَيْنَ يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾[1] ولم يبق من هذه الكتب في أيدي الناس إلا التوراة والإنجيل..

○ وقد بين القرآن أن اليهود حرفوا التوراة، كما أن النصارى بدلوا الإنجيل، فهو يقول عن اليهود: ﴿يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضِعه﴾[2] ويقول

(١) سورة المائدة ٤٦.

(٢) سورة المائدة ١٣.

عن النصارى: ﴿ومِن الذين قالوا إنّا نَصَارى أخَذْنا ميثاقَهم فَنَسُوا حظًّا مما ذُكِّروا به﴾[1].

• والدليل الواضح على تحريف التوراة والإنجيل اللذين في أيدي الناس اليوم، ما نجده فيهما من مخالفةٍ لحقائق الإيمان كما جاء بها القرآن.. ففي التوراة المحرَّفة التي بأيدي اليهود اليوم نجد الشَّناعات والقبائح منسوبة إلى أنبياء الله سبحانه.. بل نجد في هذا الكتاب المحرَّف سوء الأدب في الحديث عن رب العالمين سبحانه، وقد نعى القرآن عليهم هذا الصنيع في قوله تعالى: ﴿فوَيلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا مِنْ عندِ الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فوَيلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يكسِبُون﴾[2].

والإنجيل الذي في أيدي النصارى اليوم، إن هو الا قصص وأخبار مروية عن بعضِ تلامذة المسيح عليه السلام، وأقوال له عليه السلام مروية عن تلاميذه..

أما الوحي الذي أوحاه الله إلى عيسى عليه السلام وقال عنه سبحانه: ﴿وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونور﴾[3] فليس موجوداً بين النصارى، بل ضاع منهم، وفي هذا الإنجيل الذي كتب بعد رَفْع المسيح عليه السلام بمئات السنين، أخبار عن صلب المسيح، وقد بين القرآن أن ذلك لم يقع بيقين: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّهَ لهم﴾.

○ أما التوراة فإن من دلائل تحريفها هذه الوعود المفتراة التي يزعمها اليهود، من وطن لهم من النيل إلى الفرات، ومن أرضٍ فيها السمن

(١) سورة المائدة ١٤.
(٢) سورة البقرة ٧٩.
(٣) سورة المائدة ٤٦.

والعسل! تكون لهم، يزعمون أنها أرض فلسطين..

وهذا افتراء مبين، يخالف السنة الإلهية التي أعلنها القرآن: ﴿إنّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاء من عِبَاده﴾. وقد بين القرآن كذِبَ زعم اليهود أنهم شعب الله المختار.. فقال سبحانه: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذبكم بذُنوبكم بل أنتم بشر ممن خَلَق يغفرُ لمن يشاء ويعذِّب من يشاء﴾[1].

ومن هنا فلا يعقل أن يخص الله سبحانه هؤلاء الخارجين على شريعته، المحاربين لرسله.. بكون فلسطين وطناً لهم.. وفيها المسجد الأقصى الذي لا يَقدِّر هؤلاء قدره ولا يرعون حرمته.

ومجمل القول أن هذا الافتراء الذي سجله اليهود بأيديهم.. دليل على تحريف التوراة، بحيث صارت معبرة عن أطماعهم.. مسايرة لأهوائهم، مساندة لبُغْضهم للبشر وعدوانهم على الشعوب.

القرآن وحده هو الكتاب الصحيح في أيدي الناس اليوم:

• ومن هنا فلا ريب في أن القرآن وحده هي الكتاب السماوي الصحيح في أيدي النـاس اليـوم، وأما تسميـة هـذه الكتـب المحـرفـة، بالسماوية، فإنما هو باعتبار أصلها، قبل أن يصيبها التبديل والزيادة والنقص.

والقرآن هو المرجع الحق الذي يحكم على ما في هذه الكتب التي بقيت بأيدي اليهود والنصارى.. فهو مصدق لما يكون فيها من حق.. كاشف عن التحريف الذي أصابها، مبين لوجه الحق فيه.. وهذه هي الهيمنة للقرآن على الكتب السابقة، كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك

(١) سورة المائدة ١٨.

الكتاب بالحق مصدِّقا لِمَا بين يديه من الكتابِ ومُهَيْمِناً عليه﴾ (١) .

فهو الذي واجَه أهل الكتاب بما وقعوا فيه من انحرافات وضلالات.. كقوله سبحانه: ﴿يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ (٢) .

وقوله تعالى: ﴿وقالت اليهودُ عُزَيْر ٱبْنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفواههم يضاهئون قولَ الذين كفروا مِن قبلُ قاتلهم اللهُ أنَّى يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورُهْبانَهم أربابا من دون اللهِ والمسيحَ ابنَ مريم، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ (٣) .

وقد تضمنت سورة آل عمران حواراً مع النصارى واليهود.. حاكمهم فيه إلى منطق العقل وحقائق الإيمان التي لا يسع عاقل أن ينكرها، لكنهم لا يريدون الحوار على هذه الأسس.. بل يقفون موقف التعصب والجمود على موروثاتهم التي خلفها لهم أسلافهم دون مناقشة.

○ وفي القرآن بيان لوجه معجزته، وتحدٍّ للإنس والجن أن يأتوا بمثله.. فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وقد ذكر لفظ «القرآن» في القرآن سبعين مرة، لو تدبرها المسلم لكفَتْ وأغنت في تأملِ حديثِ القرآن عن القرآن.. فقد جاء في الكتاب العزيز ذكر الشهر الذي نزل فيه القرآن: ﴿شهر رمضانَ الذي أُنْزِل فيه القرآنُ هدًى للناسِ وبيِّناتٍ مِن الهدى والفرقان﴾ (٤) كما جاء فيه بيان

---

(١) سورة المائدة ٤٨ .

(٢) سورة النساء ١٧١ .

(٣) سورة التوبة ٣٠ ـ ٣١ .

(٤) سورة البقرة ١٨٥ .

الحكمةِ من إنزال هذا الكتاب الحكيم. فقال سبحانه: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي لِلَّتِي هي أقْوم ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ (١). ﴿طه. ما أنزلنا عليك القرآنَ لتشقى. إلا تذكرةً لمن يَخْشَى﴾ (٢) فالقرآن سبيل السعادة والأمان والطمأنينة.. ومن اتبعه لا يضل ولا يشقى.. وهو تذكرة وتبصرة.. ثم تذكر الآيات مصدر القرآن وتبين أنه وحي من عند الله، وليس من قول البشر ﴿تنزيلا ممن خلق الأَرض والسموات العُلَى. الرحمن على العرش استوى﴾ (٣).

كما تضمن القرآن قسماً بالقرآن.. فقد أقسم الله سبحانه بهذا الكتاب تعظيماً له وتنويهاً بإعجازه. قال سبحانه: ﴿ص. والقرآنِ ذي الذِّكْر. بل الذين كفروا في عزَّةٍ وشِقَاق﴾ وقال سبحانه: ﴿ق. والقرآنِ المجيد. بل عَجِبُوا أنْ جاءهم منذرٌ منهم﴾ ﴿يّس. والقرآنِ الحكيم. إنك لَمِن المرسلين﴾.

ونلحظ أن القسم بالقرآن يأتي في سِيَاق بيانِ إعجازه، ودلالته على صدق الرسول الذي جاء به.. ﷺ.

○ وقد أقام القرآن الدليل على إعجازه، ورد شبهات الجاحدين المستكبرين. وجاء التحدِّي القرآنيُّ للمنكرين على ثلاثةِ مراحل: فقد تحداهم بالإتيان بمثله فعجزوا، ثم بِعَشر سُوَر.. ولو كانت مفتراة في معانيها.. فعجزوا.. ثم بسورة واحدة فعجزوا..

أما المرحلة الأولى فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فليأتوا بحديث مثله إنْ كانوا صادقين﴾ (٤).

---

(١) سورة الإسراء ٩.
(٢) سورة طه ١ ـ ٣.
(٣) سورة طه ٤ ـ ٥.
(٤) سورة الطور ٣٤.

والثانية في قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه بل فأْتوا بعشر سور مثلِه مُفْتَرَيات﴾ [١] والثالثة في قوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قُل فأْتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون اللهِ إنْ كنتم صادقين﴾ [٢]

○ أما ما حكاه القرآن عن المشركين العاندين أنهم كانوا يقولون حين يسمعون القرآن: ﴿لو نشاء لقلنا مثلَ هذا إنْ هذا إلا أساطير الأوَّلين﴾ [٣]. فقد ذكر القرآن هذا القول عنهم تقريعاً لهم وبياناً لجهالتهم وكذبهم.. وإلا فما الذي حال بينهم وبين هذا القول، ولو قالوا مثله لأبطلوا دعوته.. وهم إنما حملوا السلاح في وجه الإسلام حين أعيتهم الحجة وامتنعت عليهم المعارضة.. فما كان أغناهم عن هذا كله.. لو أنهم جاءوا بمثل القرآن.. أو مثلِ عشر سور منه أو حتى سورة واحدة.. أما الوقوف عند ترديد هذا القول: ﴿لو نشاء لقلنا مثلَ هذا﴾ فما يغنيهم شيئاً أمام التحدي الذي أحاط بهم من كل جانب.. ولم يترك لهم عذراً.. إلا العجز أمامه وانقطاع القدرة عليه..

○ ومن هنا سجّل القرآن على العرب وعلى البشر جميعاً، وعلى الجن كذلك.. عجزهم الأبدي عن الإتيان بمثل هذا القرآن.. فقال تبارك وتعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتُوا بمثلِ هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بَعضهم لبعضٍ ظهيرا﴾ [٤].

إن تقرير هذا العجز الشامل كان خليقاً أن يهيج دواعي المعارضة، وأن يحمل شياطين الإنس والجن على محاولة إثبات القدرة على المعارضة لو استطاعوا إليها سبيلاً.

---

(١) سورة هود ١٣.
(٢) سورة يونس ٣٨.
(٣) سورة الأنفال ٣١.
(٤) سورة الإسراء ٨٨.

وقد سمع المشركون هذا التأكيد الجازم الذي يسجِّل عليهم وعلى البشر أجمعين هذا العجز.. بل يسجل عجز الإنس والجنِّ معاً.. ولو أعانَ بعضُهم بعضاً.. ولو اجتمع شعراؤهم وأدباؤهم على مر العصور.. يساعد بعضهم بعضاً على هذه المعارضة.. أفكانوا يسكتون على هذا التعجيز والتقريع، لو كان لديهم أدنى قدرة على الإتيان بشيء مما تحداهم به القرآن ولو سورة واحدة.. فالتحدي لا يزال قائماً.. والعجز ما يزال ماثلاً.. ويبقى القرآن معجزة كل عصر.. شاهدة على صدق الرسول وصحة الرسالة..

القرآن يرد شبهات المشركين في شأن الإعجاز:

○ لقد كانت شبهاتهم تعبيراً عن الجهالة والكبرياء.. ولم تكن من قبيل الفكر أو العلم.. فقد قالوا كما ذكر عنهم الكتاب الكريم.. ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ وكانوا يعنون بالقريتين: مكة والطائف.. وكان الجواب القرآني: ﴿أهم يَقْسمون رحمة ربِّك نحن قسَمْنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفَعْنا بعضهم فوق بعضٍ درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً ورحمةُ ربك خير مما يجمعون﴾ فكيف يتحدث هؤلاء عن النبوة.. وكيف يتطاولون إلى اقتراح من تنزل عليه الرسالة ويأتيه الوحي؟ أيظنونها شيئاً من حظوظ الدنيا التي يتنافسون عليها ويُفْني بعضهم بعضاً في سبيلها؟! حتى هذه الحظوظ.. نحن قسمناها بينهم.. وجعلنا التفضيل واقعاً فيها.. فما بالهم بالوحي الذي هو رحمة الله لعباده.. وهو فوق ما يتنافسون فيه ويحرصون عليه؟!

وإذن فلا شأن لهم في الاختيار.. ولا معرفة لديهم بمقياس التفضيل والاصطفاء: ﴿الله أعلمُ حيثُ يجعل رسالته﴾.

○ وتخبط المشركون في ظنونهم حول القرآن.. فقالوا عن القرآن إنه شعر.. تخبطا وحيرة.. لا تحقيقاً ومعرفة.. ولهذا كان الجواب عن هذه الشبهة في هذا التأكيد الواضح لحقيقة القرآن: ﴿وما علَّمناه الشِّعْرَ وما ينبغي له، إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين. لينذر من كان حيًّا ويَحِقَّ القولُ على الكافرين﴾ وقال سبحانه: ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون. ولا بِقَول كاهنٍ قليلاً ما تذكَّرون. تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾.

وقد كان العرب جميعاً يعرفون خصائص الشعر.. ولا تخفى عليهم أنماط الكلام العربي.. وكان القرآن بعيداً عن خصَائص الشعر وأشكاله.. لكن المشركين قالوا ما قالوا عناداً وادعاء.. وهم يعلمون في أنفسهم أن القرآن أبعد ما يكون عن هذا الجنس الأدبي الشهير. لقد رد القرآن على المشركين كل شبهة، وأقام الدلائل على صدقه وإعجازه، حتى وضح السبيل وقامت الحجة، وظهرت المعجزة، وصدق الله العظيم: ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرى مِنْ دونِ الله ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه وتفصيل الكتابِ لا رَيْبَ فيه من ربِّ العالمين﴾.

ونتأمل هنا سياق الحديث عن إعجاز القرآن وهدايته في سورة واحدة من سور القرآن.. هي سورة الإسراء.. ففي الآية التاسعة من هذه السورة جاء قوله تعالى: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي لِلَّتِي هيَ أقومُ ويبشِّر المؤمنين﴾. ثم جاءت الصورة المقابلة للهداية والبشارة وهي موقف المشركين المعاندين من هذا الكتاب.. فقال سبحانه: ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذَّكَّروا وما يزيدهم إلا نفورا﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وإذا ذكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده ولَّوْا على أدبارهم نفوراً﴾.

وسبب هذا النفور أن هداية القرآن لا تصل إلى قلوبهم بسبب الحجب الكثيفة التي تغشى قلوبهم، قال تعالى: ﴿وإذا قرأتَ القرآنَ جَعَلْنا بينك

وبَيْن الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا﴾. وهذا الحجاب بسبب استكبارهم وعنادهم وغلبة الهوى على قلوبهم..

حتى نصل في سورة الإسراء إلى الآية الستين، وهي قوله تعالى: ﴿وما جعَلْنا الرؤيا التي أرَيْناكَ إلا فتنةً للناس والشجرة الملعونةَ في القرآن ونخوِّفُهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا﴾.

وهذه الآية تتصل بالحديث عن موقف الجاحدين من هذا الكتاب العزيز، فقد كانوا يكذِّبون بكل شيء.. ويستهزئون بالنذر التي تخوِّفهم من العذاب، فقد اتخذوا من حادث الإسراء والمعراج مجالا للتكذيب والشك.. واتخذوا من حديث القرآن عن شجرة الزِّقّومِ وسيلة للسخرية والاستهزاء.. فالعجب من هؤلاء العُتَاة الذينَ لا يصلحهم وعدٌ ولا وعيد!

○ ثم تعود سورة الإسراء إلى مقابلة هذا الموقف الجاحد الظالم بموقف المؤمنين المتقين من الكتاب العزيز.. فيقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿أقم الصلاةَ لِدُلوكِ الشمسِ إلى غَسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً. ومن الليلِ فتهجَّدْ به نافلةً لك عسى أن يبعثك ربُّكَ مقاما محمودا﴾ وإنما خص قرآن الفجر لِعظم أثره وحُسْن وقعه في القلب، إذ يتلى في صلاة مشهودة.. تأتي بعد الراحةِ والهجوع.. ثم جاء الترغيب في التهجد بالقرآن في جوف الليل.. وجعل ذلك وسيلة للمقام المحمود يوم القيامة: ﴿ومن الليلِ فتهجَّدْ به نافلةً لك عَسى أن يَبْعَثَك ربُّك مقاما محمودا﴾.

حتى نصل في سورة الإسراء إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وننزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسَارا﴾. وقد سُبِقَتْ ـ كما رأينا ـ بعرض مواقف المؤمنين ومواقف الجاحدين من الكتاب العزيز، فجاءت هذه الآية تجمع بين هذين الموقفين، من ناحية الأثر الذي

ينتهي إليه كل منهما..

أما المؤمنون فإنهم يجدون في القرآن شفاءً ورحمة.. وأما الظالمون المستكبرون فلا يزدادون في موقفهم من القرآن إلا خسراناً، إذ لا حظَّ لهم منه إلا التكذيب والجحود.. وقد بين القرآن أن الغاية من إنزاله هي الهداية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور قال سبحانه: ﴿ذلك الكتابُ لا رَيْبَ فيه هدًى للمتقين﴾ وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم﴾ وإذن فكلمة الشفاء في قوله سبحانه: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ تعني شفاء أمراض القلوب وإزالة حجب الجهالة ومَحْو الشك والرَّيْب، ولا يمنع ذلك من أن يكون شفاء القلوب سبباً لشفاء الأبدان أيضاً، فإن الطمأنينة والثقة وزوال القلق يؤدي إلى صحة الجسم وعافيته..

ونصل في سورة الإسراء بعد ذلك إلى الآية التي تعلن إعجاز القرآن، وتتحدى الإنس والجن معاً أن يأتوا بمثله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾ وبينت الآية التالية لها أن هذا القرآن قد تضمن ما يقنع الناس جميعاً من الدلائل والمُثُل: ﴿ولقد صرَّفْنا للناسِ في هذا القرآنِ منْ كلِّ مثَلٍ فأبَى أكثرُ الناسِ إلا كُفوراً﴾ والعجب من هؤلاء الذين أعرضوا عما في القرآن من دلائل تقنع العقل وتملأ القلب يقيناً، وراحوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يأتيهم بخوارق مادية، هي في حقيقة أمرها هينة: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأرض يَنْبُوعا. أو تكونَ لك جنةٌ مِنْ نخيلٍ وعِنَبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خلالها تفجيرا﴾..

أفيتركون دلالة الكتاب المعجز وبرهانه الساطع.. ولا يرون المعجزة إلا في تفجير الينبوع وامتلاك النخيل والعنب؟!

وتؤكد سورة الإسراء في ختامها أن القرآن حق.. في إنزاله ونزوله.. أي أن الحق ملازم له حتى بلغ الرسولَ ﷺ: ﴿وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نزلَ وما أرسلناكَ إلا مبشِّرا ونذيرًا. وقرآنًا فرَقْناه لتقرأه على الناسِ على مُكْثٍ ونزَّلناه تنزيلا﴾.

وإن إعراض المكذبين عن هداية هذا الكتاب وإعجازه لا يغير من الحقيقة شيئاً فإن أثره في القلوب السليمة ظاهر لا يخفى.. إذ يهز المشاعر عند سماعه.. ويحرك القلوب إلى الخشوع واليقين: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إنّ الذين أوتوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلى عليهم يخرّون للأذقان سُجَّدًا. ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لَمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا﴾[1].

وهكذا نرى سورة واحدة من سور القرآن.. تلتزم الحديث عن إعجاز القرآن وأثره في النفس والحياة.. من بدايتها إلى نهايتها.. بما يربط بينها برباط الإقناع والتذكير بحقيقة هذا الكتاب الكريم، الذي هو المعجزة الباقية من معجزات الأنبياء جميعاً.. والذي تكفل الحق سبحانه بحفظه من الضياع أو التبديل، ليبقى مهيمناً على الكتب وحكماً فيما يختلف الناس فيه إلى يوم القيامة: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذِّكْرَ وإنا له لحافظون﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء ١٠٧ ـ ١٠٩.

(٢) سورة الحجر ٩.

الفصل السادس

«ربَّنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريب فيه
إن اللّه لا يُخْلف الميعاد»..

□ إن الإيمان بالبعث، أو الحياة الآخرة، من عناصر العقيدة التي أوضحها القرآن وأقام الأدلة عليها وناقش المكذبين بها..

فقد كان المشركون يكذبون بالبعث، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت، بل أقسموا على ذلك كما ذكر القرآن: ﴿وأقسموا باللهِ جَهْد إيمانهم لا يبعثُ اللهُ مَنْ يموت﴾ (١). ولم يكن هذا التكذيب جديدا على الكفار في زمن النبي ﷺ بل كان الكفار منذ القدم يجحدون البعث وينكرون الرجعة إلى الحياة بعد الموت، فقد ذكر القرآن أن الكفار القدماء كانوا يقولون: ﴿أيَعِدُكم أنكم إذا مِتّم، وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخْرَجون. هيهات هيهات. لِمَا توعدون. إنْ هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ (٢).

ومن هنا واجه القرآن هذا التكذيب الذي انتقل إلى كفار العرب.. خلال الأجيال من أسلافهم الكفار في كل جيل وقبيل، وسلك طريقين في الاستدلال لهذا البعث: أحدهما حسي. والآخر عقلي.

---

(١) سورة النحل ٣٨.

(٢) سورة المؤمنون ٣٥ - ٣٧.

أما الطريق الحسي فهو دعوة الإنسان ليتأمل فيما يتكرر وقوعه أمامه في كل زمان ومكان من آيات القدرة التي يرى فيها خَلْقاً من العدم.. وحياةً تنشأ بعد همود..

فمن ذلك: تكوين الأجنة في الأرحام وتمامُ خلقها.. وإحياء الأرض بالماء بعد موتها.. وفي كل منهما يشاهدُ الناسُ خلقا جديدا وحياة بعد موت.. ففيم العَجب من أمر البعث.. وهو أيضا خلق جديد وحياة بعد موت؟! وقد أشارت إلى هذين الدليلين الآيات من سورة الحـج التي ربطت بينهما وبين الإيمان بالبعث، وهي قول الحق تبارك وتعالى:

﴿يا أيها الناس إنْ كنتم في رَيْبٍ من البعثِ فإنَّا خلقْناكم من ترابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم مِنْ مُضْغَةٍ مخلَّقَةٍ وغير مخلقةٍ لنبيِّن لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمّى ثم نخرجكم طفلا ثم لِتَبْلغوا أشُدَّكُمْ ومنكم من يُتَوفَّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العُمُر لكيلا يَعلمَ مِن بَعدِ عِلْمٍ شيئا، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ اهتزَّت وربَتْ وأنبَتَتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيج. ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يحيي الموتَى وأنه على كلِّ شيءٍ قدير. وأن الساعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأن الله يبعث مَنْ في القبور﴾ [1].

فهذه آيات متجددة يراها الناس في كل بيئاتهم وأزمانهم.. فما بال هؤلاء الجاحدين الذين يزعمون أن الحياة بعد الموت أمر مستحيل.. بينما يرون مثيلا لها كل يوم.. لكن أبصارهم تغشاها ظلمات التكذيب بالحق..

العقل يثبت البعث:

أما الدليل العقلي على وقوع البعث.. فيتلخص في أن حكمة الله سبحانه

(١) سورة الحج ٥ ـ ٧.

تأبى أن يكون خَلْق البشر عبثا لا طائلَ وراءه. وعَدْلُ اللهِ سبحانه يأبى أن يَدَع المظالم التي تقع بين الناس في هذه الدنيا دون جزاء..

كما أن استخلاف الإنسان في الأرض قد ألقى عليه المسئولية في النهوض بما استخلف فيه.. فلا بد من مساءلته على ذلك، ولا بد من عقابه أو ثوابه على ما قدم في دنياه.. وفي كل هذه المعاني قد تحَدَّثَ القرآن بما يقطع كل شبهة وما يرد كل اعتراض.. قال الله سبحانه: ﴿أفحسبتم أنما خلَقْناكم عَبَثًا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُون. فتعالى اللهُ الملكُ الحقُّ لا إلهَ إلا هو ربُّ العرشِ الكريم﴾ [١].

فالذين يزعمون أنه لا بعث، إنما يريدون وصف هذه الحياة بالعبث، ويرونها مهزلة لا حكمة لها ولا غاية من ورائها! وذلك هو ظنُّ الذين كفروا في كل زمان ومكان، فهم يرون الحياة كما يريدون، ويصورونها كما يشتهون.. ويريدونها غابة يأكل فيها القوي الضعيف، ومَرْتعاً للفجور لا حسابَ بعده، وكذبوا فيما زعموا.. فلا بد من البعث، كما أخبر الحق سبحانه لإقامة ميزان العدل، ولتوفية كل إنسان جزاء ما كسب أو اكتسب.. كما قال الحق سبحانه: ﴿لا أُقْسِمُ بيوم القيامة. ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوامة. أيَحْسَبُ الإنسانُ أن لن نَجْمع عِظامَه. بَلى قادرين على أن نسوِّيَ بنَانه. بل يريد الإنسانُ ليَفْجُرَ أمامه. يَسْأَلُ أيَّانَ يومُ القيامة﴾ [٢].

وفي سورة التغابن يقول الحق سبحانه: ﴿زعم الذين كفروا أن لَنْ يُبْعَثُوا. قل بلَى وربِّي لَتُبْعَثُنَّ ثم لَتُنَبَّؤُنَّ بما عَمِلْتم وذلك على الله يسير﴾. وهذه الآية تحوي دليلا عقلياً على ضرورة البعث. فهي تفنّدُ مزاعمَ الكفار الذين خدعوا أنفسهم بأنه لا حياة بعد الموت، وانطلقوا على أهوائهم كما

---

(١) سورة المؤمنون ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) سورة القيامة ١ ـ ٦.

يشاءون، ومن هنا تؤكد هذه الآية وقوع البعث: ﴿قل بلى وربي لتبعثن﴾ كما تتضمن بيان الحكمة منه: ﴿ثم لتنبؤن بما عملتم﴾ وذلك لإقامة العدل بين العباد.. كما تتضمن بيان إمكان وقوعه بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه: ﴿وذلك على الله يسير﴾.

أما قوله سبحانه: ﴿وأَقْسَمُوا باللهِ جَهْدَ إيمانهم لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يموتُ. بلى وعدا عليه حقا ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلمون. ليبين لهم الذي يَخْتلفون فيه ولِيَعْلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين. إنما قولُنا لشيءٍ إذا أردْناه أن نقولَ له كن فيكون﴾[1] فإنه يتضمن ذكر الدليلين معا: دليل الحكمة من البعث.. ودليل القدرة عليه.. وقد بدئت هذه الآيات بعرض مقولة الكافرين.. ولم تكن مجرد زعم في نظرهم.. بل لقد أقسموا عليها جاهدين في تأكيدها زاعمين أنها حقيقة لا ريب فيها: ﴿وأقسَمُوا باللهِ جَهْدَ إيمانهم لا يبعث اللهُ من يموت﴾ ونَعْجب هنا.. إذ نرى الكفر يستخدم أساليب الإيمان!. فهم يقسمون بالله جاهدين على نفي أمرٍ أخبر الله سبحانه به، وأرسل رسله لإنذار الناسِ به.. وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بالإنذار الأخير بيوم البعث كما قال سبحانه: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أمَّ القرى ومَنْ حولها وتنذرَ يومَ الجمعِ لا ريبَ فيه. فريق في الجنة، وفريق في السعير﴾[2].. فكيف يقسم هؤلاء الجاحدون.. بالله على الكفر بما طلب الله منهم الإيمان به!

وكان الرد القرآني على هذه المقولة الجاحدة الهازئة.. آية في ثبات الحق وهدوء منطقه أمام صياح الباطل الأحمق: ﴿بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ تلك هي الحقيقة فليُبْصرها من شاء.. ولا يضرها

(١) سورة النحل ٣٨ ـ ٤٠.
(٢) سورة الشورى ٧.

إنكار الجاحدين.. ثم تبين الآيات حكمة هذا البعث: ﴿ليبين لهم الذي يَخْتلفون فيه ولِيَعْلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ وما أوجع العلم الذي يستفيده الإنسان بعد فوات الأوان فيكون حسرة عليه!!

لقد غامر هؤلاء الأشقياء بمستقبلهم، اعتمادا على ظنهم الكاذب الذي خدعوا أنفسهم به إذ قالوا: «لا يبعث الله من يموت».. فإذا هم في هذا الموقف الرهيب يوم البعث.. يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما زعموا.. وهو كذب هوى بهم إلى الأبد في مهاوِي الهلاك والخسران.. ثم تشير الآيات إلى دليل القدرة على البعث، في قوله تعالى: ﴿إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾.

فلا بد أن يوقن المؤمن بأن قدرة الله سبحانه لا يعجزها شيء،.. وقد أنذر سبحانه عباده بالبعث، وجعله وعدا عليه حقا لإقامة العدل وتوفية الحساب والجزاء، فلا بد أن يقع ذلك كما أراد. كما قال سبحانه: ﴿ربَّنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا رَيْبَ فيه إن الله لا يُخْلِفُ الميعاد﴾.

وقد بلغت جهالة المشركين وجدالهم في أمر البعث إلى حد أن جاء أحدهم يتحدى النبيَّ ﷺ في شأن البعث، فقدم إليه قطعة من عظمٍ بالٍ وقال له: يا محمد أترى ربَّك يبعث هذا العظمَ بعد ما رمَّ وبَلِيَ؟! وكأن هذا الكافر، وهو أُبَيُّ بن خلف، قد أراد أن يقرن إنكاره للبعث بدليل ملموس، فهذا هو العظم يتفتت بين أصابعه.. فكيف يصدق أن الله سيبعثه بعد هذا البلى؟!

وقد سجل القرآن هذا الإنكار الجهول، الذي يزعم صاحبه أنه يستند إلى وقائع الأشياء.. ورد عليه أبلغ الرد، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وضَرَب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه قال مَنْ يُحْيِي العظامَ وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر

الأخضر نارا فإذا أنتم منه تُوقِدُون. أوَليس الذي خَلَق السموات والأرضَ بقادر على أن يخلق مثلهم؟! بلى وهو الخلاّقُ العليم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُنْ فيكون. فسبحان الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيء وإليه ترجعون﴾[1].

وهو ردٌّ بالغُ الإقناع والتأثير، ولكننا نكتفي في تأمله بالوقوف أمام بعض العبارات التي تجمع المعاني الرائعة في سياقها المعجز.

ونبدأ بقوله سبحانه: ﴿ونَسِيَ خَلْقه﴾ فإن هذه الجملة القرآنية تحوي موجز الرد على هذا الجاحد المخادع.. فلو تذكَّر هذا المكذِّب نشأتَه ووجوده في هذه الحياة لكفاه ذلك عبرة ولأدرك أن هذه الخِلْقَة الأولى دليل على إمكان الإعادة، فليس له بعد هذه الدلالة أن يسأل عن قدرة الله على البعث، لأن هذا الخَلْق الأولَ يقيم الدليل على إمكان الخَلْق الآخر، كما قال سبحانه: ﴿كما بَدأْنا أولَ خَلْقٍ نعيده وعدا علينا إنّا كنّا فاعلين﴾[2].

ونلحظ أن التعبير القرآني الحكيم: ﴿يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ قد جاء بأسلوب الكناية بدلا من التصريح بلفظ الجلالة.. لأن الفطرة الإنسانية تدرك أن الله سبحانه هو الذي أنشأ هذا الخلق أول مرة.. ومن هنا فإن هذا الأسلوب يوجه الإنسان إلى تأمل هذه الحقيقة وهو مدرك لها بنفسه، لا يحتاج إلى التصريح، بل يُغْنيه فيها التلميح.. فهو يقر من أعماق نفسه: أنْ لا خالق إلا الله سبحانه..

وقد يسأل سائل: ما مغزى الإشارة إلى العلم الإلهي في هذا السِّيَاق، في قوله سبحانه: ﴿وهو بكلِّ خَلْق عليم﴾ مع أن الذي يُتَصَوَّرُ هنا: أن

(١) سورة يس ٧٨ ـ ٨٣.
(٢) سورة الأنبياء ١٠٤.

المجال مجال القدرة والإمكان؟!

والجواب: أن سؤال المشركين كان عن إمكان البعث، وهذا المشرك الجاحد قد قال: ﴿مَنْ يحيي العظامَ وهي رميم﴾ أيْ لا أحد يستطيع ذلك، في زعمه ووهمه، وقد جاء الجواب مشتملا على عنصرين: أولهما الإشارة إلى القدرة في قوله سبحانه: ﴿يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ وثانيها: الإشارة إلى العلم في قوله سبحانه: ﴿وهو بكلِّ خَلْق عليم﴾ وبهذا يتضح أن القدرة مع العلم يقطعان كل ريب في أمر البعث، فالقادر العليم لا يعجزه شيء!

أما الحكمة في الإشارة إلى إنشاء النار من الشجر الأخضر في هذا السياق، فهي أنها آية من آيات القدرة الإلهية، كفيلةٌ بردِّ كلِّ شبهة في أمر البعث، فماذا بعد إخراج النار الحارة من بعض أنواع الشجر، وفيها الماء والرطوبة، وكأنها إخراجٌ للنقيض من النقيض.. وخَلْقٌ للعناصر مِنْ أضدادها، أفلا يتأملون تلك الآية ويدركون دلالتها على القدرة التي لا يعجزها شيء.. فلا يبقى موضع لهذا السؤال الجاحد: ﴿مَنْ يحيي العظام وهي رميم﴾!

○ ثم كانت الإشارة إلى خلق السموات والأرض، بعد الإشارة إلى خلق النار من الشجر الأخضر.. إذ كيف يسأل الجاحدون هذا السؤال المُنْكر.. وكيف يرون البعث بعد الموت مستحيلا.. وأمامهم آفاق السموات والأرض فيها كل عجيب من آيات الخلق البديع، فلو نظروا إلى خلق الجبال أو البحار، أو الدواب، أو النبات.. ولو نظروا في السموات إلى خلق الكواكب والنجوم وتنظيم حركتها، مع أعدادها الهائلة التي لا تحصى على وجه الدقة.. لو نظروا إلى هذا كله، مما تعجز علوم الإنسان جميعا عن حَصْره واستقصائه.. لأدركوا أن قضية خلقهم وبعثهم أهونُ من ذلك

كله، كما قال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ مِنْ خَلْقِ الناس﴾ [1] وقال سبحانه ﴿ما خَلْقكم ولا بَعْثُكم إلا كنفسٍ واحدة إن الله سميع بصير﴾ [2]. وإذَنْ فكلما ازداد الإنسان علما بالكون استطاع أن يجد دلائل البعث، وأن يؤمن بقدرة الله سبحانه على إعادة هذا الخلق بعد أن أنشأه أول مرة.

○ إن العلم الصحيح بالكون يزيد الإنسانَ إيمانا ويقينا، بشرط أن يبرأ من الجحود، وأن يكون سليم الفطرة صحيح الإدراك، أما ظلمة المادية فإنها تحجب الإنسان عن الإيمان، مهما كان حظه من العلم بالكون والمعرفة لأسراره ولهذا قال الحق سبحانه عن المنكرين للآخرة: ﴿يَعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ [3]..

وهؤلاء مدعوّون للتفكر في أنفسهم، وفي الكون من حولهم.. ليعلموا أنه لا بد من حكمة لهذا الوجود ولا بد من أجل مسمًّى له.. ولا بد من لقاء الله سبحانه في دار الجزاء: ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق اللهُ السمواتِ والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ [4].

○ وإذا مضينا نتتبع الرد القرآني على شبهات المنكرين للبعث وأقاويلهم الجاحدة فسنجد الكثير الذي يزيد المؤمن إيمانا، ويبطل منطق الجحود والتكذيب.. فمن هذه الردود على شبهات الجاحدين قوله سبحانه: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حيّا. أوَلاَ يَذْكرُ الإنسانُ أنَّا

(١) سورة غافر ٥٧.
(٢) سورة لقمان ٢٨.
(٣) سورة الروم ٧.
(٤) سورة الروم ٨.

خلَقْناه مِنْ قَبْلُ ولم يَكُ شيئاً؟! فوربِّك لنحشرنَّهُمْ والشياطينَ ثم لَنُحضِرنَّهم حولَ جهنم جِثِيّا﴾ (١) .

إن هذه الآيات من سورة مريم تصور طرفا من جدال المنكرين المكذبين.. وقد عبر القرآن عن هذا الكافر المنكر.. بالإنسان.. إذ أن أكثر الناس ـ على امتداد التاريخ ـ ينتمون إلى هذا الفريق، كما قال سبحانه: ﴿وما أكثر الناسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين﴾ (٢) .

والسؤال يأتي من هذا الإنسان بصيغة الإنكار المؤكد.. ﴿أئذا ما مت لسوف أخرج حياً﴾؟! فهو عجب بالغ ودهشة عظيمة.. كيف يصدق أحدهم أنه سيخرج حيا بعد أن كان ميتا.. وكأن هذا أمر مستحيل لا سبيل إلى تصديقه..

وكان الجواب القرآني.. رجعةً إلى تأمل الخلق الأول.. فلو تأملوه ما كان هذا الاستنكار: ﴿أوَ لا يذكر الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً﴾.. نعم.. أغفَل الإنسان عن أصل وجوده.. ونسِي قصة نشأته؟! أجحَدَ أنه مِنْ قبلُ لم يَكُ شيئاً ثم كان؟! هلّا تذكَّر الإنسانُ خَلْقَه من ترابٍ هامد.. ثم من علقةٍ جامدة؟!

إذَنْ لَمَا قال هذه القولةَ الآثمةَ: ﴿أئذا ما مت لسوف أُخْرَجُ حيا﴾..

وقد ناسب هذا السياقَ الإتيانُ بالوعيد في قوله سبحانه: ﴿فوَربِّك لنحشُرَنّهم والشياطينَ ثم لَنُحضِرَنَّهم حول جهنم جثيا﴾.. فهاهم يُبْعثون ويحشرون للحساب.. و معهم الشياطين التي أضلتهم وسولت لهم هذا الجحود والإنكار.. هاهم جمع حول جهنم.. يرون هولها ويسمعون زفيرها..

---

(١) سورة مريم ٦٦ ـ ٦٨ .

(٢) سورة يوسف ١٠٣ .

ويعاينون ما فيها من ألوان العذاب والنكال.. وهم الذين كانوا يجحدونها وينكرون البعث الذي يؤدي إليها..

• لقد كان التكذيب بالبعث، آفةً أصابت البشرية في كل العصور.. ومن هنا أكد القرآن الرد على هذه المفتريات في مواطن كثيرة.. فمنذ القدَم كان الكفار يقولون كما ذكر القرآن: ﴿أيَعِدُكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لِمَا توعدون. إنْ هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾ [1]. وهكذا يتبجح الكفر حتى ينكر الحقائق، ويجحد المسلَّمات.. ثم بعد ذلك يؤكد هذا الجحود ويحاول أن يجعل منه عقيدة ومبدأ، وما هو إلا الجهالة والتكذيب..

إنه العبث الذي من أجله ينكر هؤلاء القيامةَ والنشور، بل هو حب الفجور يغريهم بذلك الإنكار. كما قال الحق سبحانه: ﴿بل يريدُ الإنسانُ ليَفْجُرَ أمامه. يسأل أيّانَ يومُ القيامة﴾ [2]. بل إن سورة في القرآن قد سميت باسم القيامة، وتبدأ بهذا القسم المؤكد: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾. والحكمة في تأكيد هذا القسم بالنفي أن المعنى: أن ذلك أمر ثابت مؤكد لا يحتاج إلى قسم، وإنما أقسم الله سبحانه بهذا اليوم تأكيداً لوقوعه وتعظيماً لأمره، ولفتا إلى ما يجب من الاستعداد له والعمل من أجل النجاة من غمراته.. والمراد بالإنسان في قوله سبحانه: ﴿أيَحْسَبُ الإنسانُ أنْ لن نَجْمعَ عظامه﴾ الكافر الذي يستصعب بعقله القاصر جمع عظامه بعد أنْ أصبحت رفاتًا.. ويجيب الحق سبحانه مبيناً أن البعث أمر هين، بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه ﴿بلى قادرين على أن نسوِّيَ بنانه﴾ والبنان هو طرف الإصبع وما فيه من تعاريج ونقوش يتميز بها إنسان عن آخر.. فالله

---

(١) سورة المؤمنون ٣٥ ـ ٣٧.

(٢) سورة القيامة ٥ ـ ٦.

سبحانه قادر على جمع العظام وإعادة الإنسان كما كان ببنانه وسِمَاته..

وتمضي سورة القيامة التي سميت بهذا الاسم لَفْتاً إلى موضوعها الأصيل ـ في بيان العلة التي من أجلها ينكر المنكرون: ﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه. يسأل أيّانَ يومُ القيامة﴾.. وتصور الآيات حال هذا الإنسان المُنْكِرِ في هذا اليوم العصيب.. حين يجد علامات الساعة، ويعاين مشهد البعث.. فماذا هو صانع: ﴿فإذا بَرِق البصر. وخَسَف القمر. وجُمع الشمسُ والقمر. يقول الإنسان يومَئذٍ أين المفرّ. كلاّ لا وزَر. إلى ربك يومئذٍ المستقرّ. ينبؤ الإنسانُ يومَئذٍ بما قدَّم وأخَّر. بل الإنسانُ على نفسه بصيرة. ولو ألقى معاذيره﴾ فما أشد حيرة هؤلاء المنكرين في هذا اليوم.. وما أشد ذعر هذا المكذب الذي يقول في ساحة البعث: ﴿أين المفر﴾ وقد كان أمامه في الدنيا متسع للإيمان والتصديق!

لقد كان أمام هؤلاء الفرصة الكافية لو كانوا يعقلون: ﴿لقد لَبِثْتُم في كتاب اللهِ إلى يومِ البعثِ فهذا يومُ البعث﴾ فهاهُمْ قد بلغوا الأجلَ الذي أُجِّل لهم.. وشاهدوا ما كانوا من قبلُ ينكرون.. فلم يعُدْ أمامهم ملجأ ولا مَنْجًى..: ﴿كلاّ لا وزَر. إلى ربك يومئذ الـمُسْتَقرُّ﴾.

وهكذا نرى أن القرآن قد أحاط بكل شبهات المشركين، ورد مقولاتهم الآثمة، وأراهم المستقبل أمامهم كأنهم يشاهدونه في الدنيا.. حتى لا تبقى لهم حجة ولا شبهة.

الساعة قريب:

● بيّن القرآن أن الساعة قد اقتربت في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿اقتربت الساعةُ وانشقَّ القمر﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿أتَى أمْرُ اللهِ فلا

(١) سورة القمر ١.

تَسْتَعْجِلُوه﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿اقترَبَ للناسِ حِسَابُهم وهُمْ في غَفْلَةٍ مُعْرِضُون﴾[2].

ولكن الماديين الجاحدين في هذا العصر يقولون: لقد مضى على ذلك الوعد أربعةَ عشرَ قرناً.. ولم تأتِ الساعةُ بعدُ، فما معنى اقترابها إذن؟.

وأولئك يجهلون تاريخ الوجود.. ويقيسُون المسافةَ بالنسبة لأعمارهم القصيرة ووجودهم القريب الحديث.. فلو نظروا إلى أن عمر هذه الأرض يقاس بعشرات الملايين من السنين ـ كما يدل على ذلك العلم المادي ـ لأدركوا أن الآلاف من السنين قريبة جداً بالنسبة إلى هذه الملايين العديدة التي لا يعلم حقيقة عددها إلا الله سبحانه.. ومن هنا أخبر القرآن أن الساعة قريبة.. ولكنه لم يحدد لها موعداً.. بل قال سبحانه: ﴿يسألونك عن الساعةِ أيَّانَ مُرْسَاها. فيم أنتَ مِنْ ذِكْراها. إلى ربِّك مُنْتَهاها. إنما أنت مُنْذِرُ من يَخْشاها﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿إنّ الله عِنْدَه عِلْمُ الساعة﴾[4].

إن قوله سبحانه: ﴿إنّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أُخْفِيها﴾[5] يعني أن قيام الساعة أمرٌ محقَّقٌ لا بد أن يأتي.. ولكن تعيين موعدها مما استأثر الله بعلمه، لم يطَّلع عليه ملَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرْسَل، وإنْ كان لها دلائلُ وعلاماتٌ تُنْبِئُ بِقُرْبها، وتخبرُ بدنوّ أجَلِ هذه الحياة الدنيا، وهذا القُرْبُ لا يقاسُ بعمر الإنسان القصير.. ولا بوجوده القريب حتى تأتيَ الساعة

---

(١) سورة النحل ١.
(٢) سورة الأنبياء ١.
(٣) سورة النازعات ٤٢ ـ ٤٦.
(٤) سورة
(٥) سورة طه ١٥.

بغتة، دون أن يعرف أحدٌ من البشر موعدها..

كيف يقع البعث:

تحدث القرآن عن البعث في صور عديدة، تبدأ بالحديث عن النفخة الأولى التي يموت بها كل شيء، والنفخة الثانية التي بها يحيا كل شيء. قال تبارك وتعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فصَعِقَ مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ الله، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قِيَامٌ ينظرون﴾ (١).

فهذا هو البعث، وهو إخراجُ اللهِ الناسَ من قبورهم أحياء، بعد أن ذاقوا الموت، وفي وصف هذا البعث جاءت آيات عديدة في الكتاب الكريم، كقوله سبحانه: ﴿يومَ تَرْجُفُ الراجفةُ. تَتْبَعُها الرادفة. قلوبٌ يومئذٍ واجفة. أبصارها خاشعة﴾ (٢).

وهل في الإنسان من أدوات الإدراك إلا القلبُ والبصر في هذا الموقف العصيب؟! القلب يشعر. والبصر ينقل إلى القلب هَوْلَ المشهد، فيزداد القلبُ وجيباً واضطراباً، ولهذا أضاف التعبير الأبصار إلى القلوب، لأن البصر هو صاحب خبر القلب، ينقل إليه المشاهد، فيحسّ بما فيها من هَوْلٍ وبأس!

أهوال القيامة:

صور القرآن أهوال القيامة، وبيَّن شدائدها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كلُّ مرضعةٍ عما أرضعَتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وترى

---

(١) سورة الزمر ٦٨.

(٢) سورة النازعات ٦ ـ ٩.

الناس سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ولكنَ عذابَ اللهِ شديد ﴾[١].

إن هذه الآيات تصور أهوال القيامة على وجه الإجمال، فالزلزلة التي تسبق بعثَ الناس من قبورهم.. شيء عظيم لا شبيه له في كل ما يعرف الناسُ من شدائد وأهوال، كما قال الله سبحانه: ﴿إذا زلزلت الأرضُ زلزالها. وأخرجت الأرضُ أثقالَها. وقال الإنسانُ مالَها. يومَئذٍ تحدِّثُ أخبارَها. بأنَ ربَّكَ أوْحَىٰ لها﴾[٢].

في هذا اليوم ذي الأهوال، تتغير الأحوال، فإذا الأم الحانيةُ تنسى حنانَها على أولادها، ولا تَعْطِفُها عليهم عاطفة.. وهي التي لم يكن يُنْسِيها حنانَها عليهم شيئًا من حوادث الزمان، لكن القيامةَ بأهوالها وأحوالها تُذْهِلِ الأمَّ عن أولادها، ومن شدة الهول تضعُ كلَّ ذاتِ حَمْلٍ حملها، وكأنّ الناس قد سُلبوا عقولَهم، وغابَ عنهم وَعْيهم: ﴿وترى الناسَ سُكَارَى وما هم بِسُكارَى ولكنّ عذابَ اللهِ شديد ﴾.

أسماء القيامة:

ومما يناسب الحديث عن أهوال القيامة أن نشير إلى أسمائها التي تدل على أهوالها، كما بينها القرآن، فمن تلك الأسماء: «القارعة» لأنها تَقْرَعُ الناسَ بأهوالها. قال تعالى: ﴿القارعةُ. ما القارعة. وما أدراك ما القارعة﴾[٣] و «الحاقة» في قوله تعالى: ﴿الحاقةُ. ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة﴾ وإنما سميت بذلك لأنها تُحِقُّ لكل إنسان حقَّه، فيثاب الطائع ويعاقب العاصي.

---

(١) سورة الحج ١ ـ ٢.

(٢) سورة الزلزلة ١ ـ ٥.

(٣) سورة القارعة ١ ـ ٣.

كما سميت القيامة في القرآن الصاخّة والطامّة الكبرى، وغير ذلك من الأسماء التي تلتقي جميعاً عند بيان شدائد القيامة وأهوالها العظام.

وسماها القرآن «الواقعة» في قوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة. ليس لوقعتها كاذبة. خافضة رافعة. إذا رُجَّت الأرضُ رَجًّا. وبُسَّت الجبالُ بَسًّا فكانت هَبَاءً مُنْبثًّا. وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾[1]. فهي الواقعة لأنها الحادثة التي لا شيء أكبر منها فيما يراه الناس من حوادث ووقائع.. ولأنها لا بد أن تقع، لا ريب في ذلك ولا شك ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾.. وهي ﴿خافضة رافعة﴾ لأنها تخفض أقواماً وترفع آخرين. فقد كانت أوضاع الناس ومقاديرهم الاجتماعية في الدنيا وفق المقاييس المادية التي اصطنعوها، فيرفعون في مجتمعاتهم من يشاءون ويخفضون من يشاءون.. فإذا جاءت القيامة، اعتدلت المقاييس وصححت الأوضاع، فترفع أهل الإيمان والتقوي، مهما كانت حظوظهم المادية في الدنيا، وتخفض أهل الجحود والفجور، مهما كانت حظوظهم من المال والجاه..

فالقيامة ظرفٌ لهذا الخفض والرفع، والله سبحانه هو الخافض والرافع في الحقيقة، فكأن المعنى: أن القيامة يقع فيها الخفض والرفع، أو أن ذلك يحدث بسبب وقوعها.

وقد تحدثت هذه الآيات عن الزلزال العنيف الذي يشمل الأرضَ كلَّها عند مجيء القيامة.. وهي صورة تعبيرية رائعة تصف هذا الزالزال العنيف: ﴿إذا رُجَّت الأرضُ رَجًّا﴾.

هكذا تَهْتَزّ الأرضُ في كل أجزائها اهتزازاً شديداً متصلاً.. يحطّم كلّ شيء، ويزيل كل أثر للحياة في هذه الأرض. حتى الجبال الراسية.. تتحطم

---

(١) سورة الواقعة ١ ـ ٧.

وتتفتت في هذا اليوم العصيب: ﴿وبُسَّت الجبال بَسًّا. فكانت هَبَاءً مُنْبثًّا﴾.

وفي هذا دلالة بالغة على أهوال هذا اليوم وشدائده، وقد جاء ذكر ما يصيب الجبالَ يومَ القيامة في آيات كثيـرة في القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل يَنْسِفُها ربِّي نَسْفا. فيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا. لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمْتا﴾ (١).

وقد سُبقت هذه الآيات من سورة طه بالحديث عن مشهد من مشاهد البعث، كما أتبعت بآيات أخرى تتحدث عن البعث أيضاً.. قال تعالى: ﴿كذلك نقصُّ عليكَ مِنْ أنباء ما قد سَبَق وقد آتيناكَ مِن لَدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أعرضَ عنه فإنه يحملُ يومَ القيامةِ وِزْرًا. خالدين فيه وساء لهم يومَ القيامة حِمْلا﴾ (٢).

ونلاحظ في هذه الآيات أن كلمة ﴿يوم القيامة﴾ قد ذكرت مرتين في آيتين متعاقبتين، وهذا لتأكيد اليقين بمجيء هذا اليوم، وبيان الخسارة الفادحة التي تلحق فيه بمن يعرضون عن الذِّكْر، فهم يحملون يوم القيامة وزراً وساء لهم هذا الحمل يوم القيامة، فإن من يحملون فيه الأوزار أهلٌ لأن تلفحهم النار..

وتمضي الآيات من سورة طه تتحدث عن بعض ما يقع في هذا اليوم من أحداث: ﴿يومَ يُنْفَخُ في الصور ونحشر المجرمين يومَئذٍ زُرْقا. يتخافتون بينهم إنْ لبثتم إلا عَشْرا. نحن أعلمُ بما يقولون إذ يقول أمْثَلُهم طريقةً إنْ لبثتم إلا يوما﴾.

---

(١) سورة طه ١٠٥ ـ ١٠٧.

(٢) سورة طه ٩٩ ـ ١٠١.

وإنما يتخافت هؤلاء المجرمون المكذبون، ولا يستعلنون بما يقولون، لأن حديثهم هو حديث الندامة والحسرة، فلا مجال لإعلانها، ولا رغبةَ لهم في الجهر بها، ثم يأتي الحديث عن الجبال ونَسْفِها في هذا اليوم.. وبعده يعود السياق إلى تصوير موقف البعث، فيقول سبحانه: ﴿يومَئذٍ يَتَّبعون الداعِيَ لا عِوَجَ له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا هَمْسا﴾.

وهكذا يخضع هؤلاء المعاندون بعد طول إباءٍ وعصيان، ولكن خضوعهم في هذا اليوم لا يغنى عنهم شيئاً، ولا يُعَدُّ مِنْ حسناتهم في شيء، لأنه خضوع القهر والعجز، وليس خضوع الطاعة الناشئة عن اقتناع، ها هم اليوم يتبعون الداعي الذي يدعوهم للمثول للحساب والجزاء، وقد كانوا في الدنيا لا يتبعون الداعي الذي يدعوهم للإيمان وينذرهم يوم الحساب!

وقد جاء الخشوع في هذه الآيات وصفاً للصوت، وجاء في آية أخرى وصفاً للبصر، في قوله سبحانه: ﴿خاشعةً أبصارهم تَرْهَقُهم ذلة وقد كانوا يُدْعَوْنَ إلى السجود وهُمْ سالِمون﴾ (١). لأن الصوت والبصر يتأثران بما يحسّه القلب ويشعر به، فيخشع الصوت والبصر، تبعاً لخشوع القلب.

أما الجسد فإنه يخضع للعوامل المادية والإحساسات الغريزية، وقد جاءت الإشارة إلى خضوع الأجساد بعد الإشارة إلى خشوع الأصوات، فقال سبحانه: ﴿وعَنَت الوجوهُ للحيِّ القَيُّوم وقد خابَ مَنْ حَملَ ظلما﴾ فالوجوه، ومعها بقية الأجساد، تخضع وتذل في موقف البعث الرهيب، والحساب السريع، والنار التي بُرِّزت، والجنة التي أُزْلِفَتْ، وكل إنسان في هذه الساحة يخاف على نفسه، ويخشى أن يكون العذاب جزاءه، فما ظنك بهؤلاء الهالكين الذين يعلمون أن النار توشك أن تحيط بهم!

---

(١) سورة القلم ٤٣.

الحساب:

بيَّن القرآن عدالة الحساب يوم القيامة، فلا تظلم فيه نفس شيئاً من حسناتها، ولا ينسى فيه مثقال حبة خردل كما قال سبحانه: ﴿ونضع الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا وإنْ كان مثقال حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ أتَيْنا بها وكفَى بنا حاسبين﴾ (١).

وتلك غاية العدل الذي به تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت، فهي (الموازين القِسْط). والقِسْط هو العدل، فكل عمل يوزن في هذا الميزان الدقيق، وفي النهاية تتضح عاقبة الإنسان، فإن رجحَتْ كِفَّةُ حسناته كان ناجياً وإلا صار من الهالكين.

وهو عَدْلٌ يسَعُ المؤمنَ وغير المؤمن، فكل نفسٍ يُحْسَبُ لها حظُّها من الخير أو الشر، مهما كان العملِ الذي عملتْه صغيراً لا يكاد يُذكَرُ ﴿وإن كان مثقال ذرة أتينا بها﴾ وهي أقل ما يتصور من المقادير.. فلا يضيع عند الله سبحانه شيء..

وقد ختمت الآية بقوله سبحانه: ﴿وكَفَى بنا حاسبين﴾ لتأكيد العدل الإلهي في الحساب.. بعد ذكر هذه الدلائل عليه، فالعلم الإلهيّ بما قدمه كل إنسان في دنياه، علم محيط لا يغيب عنه شيء، والعدل الإلهي مؤكد، تدل عليه الموازين الصحيحة العادلة، وإحضار الأعمال مهما كان مقدارها.. فماذا بعد العلم والعدل؟! وإذَنْ فلا بد أن يؤمن العباد أنه لا حساب أصح ولا أعدل ولا أسرع من هذا الحساب: ﴿وكفى بنا حاسبين﴾.

وقد جاء تأكيد موازين العدل الدقيقة يوم القيامة في قوله سبحانه: ﴿فمن يعمَلْ مثقالَ ذرةٍ خَيْرًا يرَهْ. ومَنْ يعمَلْ مثقالَ ذرةٍ شرًّا يَرهْ﴾.

---

(١) سورة الأنبياء ٤٧.

وهي الآية التي سماها رسول الله ﷺ الآية الجامعة الفاذّة.. أي التي لا تغادر شيئًا من أعمال الخير أو الشر، إلا جعلته موضعاً للحساب والجزاء، وذلك عندما سئل ﷺ عن الحُمُر الأهلية هل فيها زكاة؟ فقال لمن سأله: «لا أجد فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة»[1]. أي أنه لا وجوب للزكاة فيها، ولكن هذه الآية تفتح أبواب الخير لمن أراد المزيد.. ليقترب الإنسان إلى ربه سبحانه بما استطاع من ألوان الطاعات والقربات، فإنه سيجد ثوابه عند الله سبحانه لا يضيع منه شيء..

وهذا المعنى يقتضينا أن نرجع إلى ما في القرآن من حديث عن تسجيل الأعمال في الدنيا ليجدها الإنسان أمامه يومَ القيامة بخيرها وشرها.. وقد جاء ذلك في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿يوم تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتْ مِنْ خيرٍ مُحْضَراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بَيْنها وبَيْنه أمَدًا بعيداً ويحذّركُمُ اللهُ نَفْسَه واللهُ رَءوفٌ بالعباد﴾[2].

فهنا التسجيل الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ووضع الكتابُ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربُّك أحدا﴾[3]. إنها صورة دقيقة معبرة عن أحاسيس المجرمين في هذا اليوم، حيما يفاجأون بأن الإحصاء الدقيق لأعمالهم لم يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أثبتها وسجلها عليهم.. فلو كانوا يوقنون بذلك في الدنيا لما أطلقوا العنان لأنفسهم في المعاصي والسيئات، حتى نزل بهم الحساب، وهم لم يؤمنوا به من قبل ولم يستعدوا لمناقشته.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) سورة آل عمران ٣٠.

(٣) سورة الكهف ٤٩.

وفي سورة «المؤمنون» بيَّن القرآن تقطَع الأنساب في هذا الموقف العصيب، وانحلال عرى المودة التي كانت في الدنيا بين هؤلاء الخاسرين، فيشغل كل إنسان بمصيره ويشفق مما قدمت يداه، فتخفّ موازين هؤلاء الأشقياء الهالكين، وتثقل موازين المؤمنين المفلحين، كما قال سبحانه: ﴿فإذا نفخ في الصُّورِ فلا أنْساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون. تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون﴾[1]. وبينما هم في هذا العذاب المقيم يأتيهم السؤال من رب العالمين توبيخاً لهم وتقريعاً: ﴿ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تُكَذِّبون﴾؟! فهذا هو الذي أدى بكم إلى هذا المصير. وأوردكم تلك الموارد التي خسرتم فيها كل شيء.. حتى أنفسكم.. ولكنهم يعتذرون بالقدر.. ويبدون الندم. ويعلنون استعدادهم لتغيير مسارهم لو أنهم ردوا إلى الحياة: ﴿قالوا ربَّنا غلبَتْ علينا شِقْوتُنا وكنّا قوما ضالين. ربّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنَا فإنَّا ظالمون﴾.

ويأتيهم الجواب من ربِّ العالمين تحسيراً لهم وزيادة في عذابهم: ﴿قال اخسأوا فيها ولا تكلِّمون﴾ أي أقيموا في النار مقام ذل وهوان.. فلا مخرج لكم منها، ولا قبول لاعتذاركم الكاذب، بعد أن مُنِحْتم فرصة الحياة، فلم تخرجوا منها إلا بالآثام والجحود! ويمضي الحوار في هذا المشهد، يصور محاكمة هؤلاء المخادعين، الذين يقولون حين يعاينون أهوال الحساب، وتحيط بهم ألسنة النار: ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ كأنهم يريدون أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء وأن تقوم لهم الدنيا مرة أخرى.. وهم كما هم.. لا يتغيرون ولا يتبدلون.. وهنا يوبخهم الحق سبحانه ويذكرهم

---

(١) سورة المؤمنون ١٠١ ـ ١٠٤.

بمواقفهم السالفة في الدنيا.. إذ كانوا يستهزئون بالمؤمنين: ﴿قال اخسأوا فيها ولا تكلمون. إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين. فاتخذتموهم سِخْرِيًّا حتى أنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وكنتم منهم تضحكون. إني جزيتُهم اليومَ بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾. لقد اتخذوا المؤمنين مادة للسخرية والتهكم.. حتى اشتغلوا بهذه السخرية عن معرفة ربهم وتوحيده الذي افترضه عليهم، فانظروا الآن الفارق البعيد بين حال هؤلاء وحال أولئك. أما المؤمنون فقد جزاهم الله بصبرهم وجهادهم.. ففازوا في الآخرة بالنعيم والرضوان.. كما فازوا في الدنيا بالطاعة والإيمان.

ومن تمام توبيخ هؤلاء الجاحدين الخاسرين وزيادة عذابهم في هذا الموقف أن يُسْألوا عن تقديرهم لحياتهم في الدنيا: كم بلغت من السنين: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عددَ سنين﴾. والعجيب أنهم لا يقدرون حياتهم بالسنين.. وإنما يقدرونها بالساعات.. فلا تزيد في نظرهم عن يومٍ أو بعض يوم: ﴿قالوا لبثنا يوما أو بعض يومٍ فاسأل العادّين﴾ وياحسرتهم على حياتهم التي أضاعوها سدى.. ولا يتذكرونها يوم الحساب إلا أنها ساعات معدودة!!

ويأتي التعقيب الحاسم: ﴿قال إنْ لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ لقد كانت سنين لا ساعات ولكنها قليلة بالنسبة إلى عمر هذه الدنيا.. وياليتكم انتفعتم بها مع قلتها.. لكنكم أضعتموها في العبث واللهو..

إن العبث هو السمة العامة لكل الفلسفات والمذاهب المادية الوضعية... إذ يرون الحياة ملهاة أو مأساة. ولا يحسبون حساباً لحياة أخرى بعد هذه الحياة.. ومن هنا تنعى الآيات في ختامها على كل هذه الاتجاهات العابثة..

وتستنكر هذا التصور الباطل للحياة: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُون. فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ لقد تنزَّه سبحانه أن يخلق هذا الخلق ثم يتركه سدى.. فلا بد من غاية للحياة، ولا بد من حساب وجزاء.. ولا بد من أن ينال كل إنسان جزاء سعيه في دنياه..

جحود في موقف الحساب:

وقد بيَّن القرآن أن المجرمين في هذا اليوم العظيم.. يجحدون ما عملوا ويتنصلون من تبعته.. ويغفلون عن أن الله سبحانه شهيد عليهم! وعندئذ يقيم الحق سبحانه شهوداً عليهم من أنفسهم.. حتى لا تبقى لهم حجة ولا شبهة!

﴿ويوم يُحْشَرُ أعداء الله إلى النار فهم يُوزَعُون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجلودُهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا اللهُ الذي أنطق كلَّ شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تَسْتَتِرُون أن يشهدَ عليكم سَمْعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكنْ ظننْتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلِكُم ظنكم الذي ظَنَنْتُمْ بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ (١).

إن الإنسان قد يتوهم أن النطق خاصة من خصائصه.. وكان عليه أن يسأل نفسه: من الذي أنطقه وعلمه البيان؟ إنه الله سبحانه، الذي جعل للطير مَنْطقاً، وللحيوانات والحشرات لغة تتفاهم بها.. فليس بعجيب في هذا الموقف العصيب أن يلهم سبحانه الأعضاء لتتكلم وتشهد بما جناه صاحبها؟.

---

(١) سورة فصلت ١٩ ـ ٢٣.

يوم الحساب:

○ لقد سمى القرآن يوم القيامة: يوم الحساب في آيات كثيرة، لأن الغرض من القيامة والحشر إنما هو الحساب الذي يترتب عليه الجزاء ولهذا قال إبراهيم عليه السلام في دعائه لوالديه، كما جاء في القرآن: ﴿ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾[1] فجمع في هذا الدعاء بين لفظ يقوم الذي منه اشتقت القيامة، وبين الحساب الذي هو نتيجة القيامة والبعث. وكذلك جاء هذا اللفظ فيما ذكر القرآن على لسان موسى عليه السلام: ﴿وقال موسى إني عُذْتُ بربي وربِّكم من كلِّ متكبر لا يؤمن بيومِ الحساب﴾.

وفي سورة (ص) يقول الحق سبحانه: ﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾.

وفي تأكيد ورود هذا اللفظ في القرآن ترسيخ لعقيدة الجزاء على الأعمال، فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.. ليوقن كل مؤمن أن أعماله مهما صغرت أو كبرت فهي موضع للمساءلة والمناقشة.. ومن هنا يحرص على أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ويزن أعماله قبل أن توزن عليه.

سرعة الحساب:

وصف القرآن الحساب بأنه سريع، كما جاء في قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿والله يَحْكم لا معقِّبَ لحكمه وهو سريع الحساب﴾ ذلك لأن الحق سبحانه محيط بأعمال عباده، لا يغيب عنه منها شيء، كما قال سبحانه

---

(١) سورة ابراهيم ٤١.

﴿ولا تعملون من عملٍ إلا كنا عليكم شهوداً﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾[2] هذا إلى أن سرعة الحساب ـ مع وضوح القضية ـ هي من تمام العدل، لأن تأخير الحكيم يزيد في عذاب المستحق للعذاب.. وينقص من فرح المستحق للنعيم. ولهذا جاء في القرآن الإشارة إلى سرعة الحساب بعد نفي الظلم، في قوله سبحانه: ﴿اليوم تُجْزَى كل نفس بما كسبَتْ لا ظلمَ اليومَ إن الله سريع الحساب﴾[3].

وجاء تأكيد هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿ليجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب﴾[4].

شدة الحساب:

لقد بيَّن القرآن أن شدة الحساب، بمعنى استقصائه للكبير والصغير.. لا تكون إلا للأشرار الجاحدين.. كما قال سبحانه: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسَبْناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خُسْرا﴾[5].

ولكن المؤمنين يخافون سوء الحساب، أي يحذرون أن يرتكبوا ما يحاسبون عليه حساباً شديداً.. أو يخافون أن تكون أعمالهم غير مقبولة، كما قال سبحانه في صفة المتقين: ﴿والذين يَصِلُون ما أمرَ الله به أن يوصل ويَخْشَوْن ربَّهم ويخافون سوءَ الحساب﴾[6]. فهم في خشية دائمة وحذر من

---

(١) سورة يونس ٦١.

(٢) سورة الحديد ٤.

(٣) سورة غافر ١٧.

(٤) سورة ابراهيم ٥١.

(٥) سورة الطلاق ٨ ـ ٩.

(٦) سورة الرعد ٢١.

أن يقعوا فيما يحاسبون عليه حساباً عسيراً.

الإنسان حسيب على نفسه:

• وقد أشار القرآن إلى أن الإنسان يوم القيامة يراجع سجل حياته، فكأنه حسيب على نفسه.. كما قال الحق سبحانه: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾[1].

وهذا من كمال العدل الإلهي.. أن يجعل الإنسان يطلع على سجل حياته، ويتذكر ما قدمت يداه.. بعد أن نسيه وغاب عن ذاكرته: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾.

ويكفي أن يجد الإنسان في كتابه هذا وقائع أيامه ولياليه.. لم يضع منها شيء.. كما قال الحق سبحانه: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾[2]. فهي الكتابة الدقيقة والتسجيل الصادق الذي لا يسع إنساناً أن ينكره.

وهذا التسجيل هو ما قام به الملكان الموكلان بكتابة الحسنات والسيآت لكل إنسان.. وهو تسجيل للأقوال والأعمال، والنص على تسجيل الأقوال في قوله سبحانه: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ليس لتخصيصها بالكتابة، بل لبيان أن العمل يسجل من باب أولى!

وعلى أساس هذا التسجيل الصادق الدقيق يكون الحساب يوم القيامة..

---

(١) سورة الإسراء ١٣ ـ ١٤.

(٢) سورة الجاثية ٢٩.

صفة الجنة والنار في القرآن

تتضح في القرآن الكريم صفة الجنة.. وصفة النار.. حتى يكون ذلك حافزاً للأبرار ورادعاً للأشرار.. وكل ما وصف الله به سبحانه الجنة والنار فهو حق كما قال سبحانه، ولا يجوز لمسلم أن يصرف هذه الأوصاف عن ظاهرها.. ولا أن يحاول تأويلها بفكره.. أو يزعم أن الثواب والعقاب.. أمران معنويان لا حسيان.. فإن البعث للأجساد.. لتعود للإنسان حياته التي زالت عنه بالموت.. فلا بد أن يكون الثواب والعقاب للأجساد والأرواح.. نعيم مادي ومعنوي.. وكذلك عقاب مادي ومعنوي..

وقد أخطأ الذين زعموا أن الثواب والعقاب أمران نفسيان.. لا حِسّيان.. فإن صريح القرآن يقطع بأن الثواب والعقاب حسيان واقعان للأجساد والأرواح في آن.. لا فصل بينهما ولا تفريق..

صفة النار وعذابها:

ونبدأ بحديث القرآن عن صفة النار ـ أعاذنا الله منها ـ حتى يكون الحديث عن الجنة بعدها.. حافزاً للهرب من العذاب وتجنب ما يقرب إلى النار.. أو يوقع الإنسان في غضب الجبّار..

فقد وصف القرآن النار بأن وقودها النّاس والحجارة، قال الله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وَقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاظٌ شِداد لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ (١).

كما جاء هذا الوصف في قوله تعالى: ﴿فاتقوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين﴾ (٢).

وفي هذا الوصف ما فيه من الدلالة على شدتها.. وضرامها بحيث تذيب الحجارة وتصهرها.. فما بالنا بأجساد البشر الضعيفة حين تلقى فيها؟!

وهذه الحجارة هي الأصنام التي اتخذها المشركون أنداداً لله سبحانه، وهي لا تحس بهم ولا تسمع نداءهم.. ومن هنا فإن إلقاءها في النار معهم تذكير لهم بضلالهم وهوانهم على أنفسهم، حيث عبدوا تلك الحجارة الصماء.. فهاهي معهم في النار لكن شأنها مختلف عنهم، فهي لا تحس بالعذاب، لأنه لا حياة فيها.. أما هم.. فإن النار تلفح وجوههم، وتصهر جلودهم.. ويصطرخون فيها.. ولا مغيث لهم!

هذا عن شدة النار وقسوتها.. وهي كذلك محيطة بالكافرين لا يجدون عنها مَصْرِفاً.. ولا يستطيعون منها مهرباً.. كما قال سبحانه: ﴿إنا أعتدْنا للظالمين نارا أحاط بهم سُرَادِقُها، وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بماءٍ كالمهل يَشوِي الوجوه بئس الشرابُ وساءَتْ مُرْتَفقا﴾ (٣).

أما إغاثتهم بالمهل، فهي زيادة في عذابهم.. فهم يستغيثون من ألم النار

---

(١) سورة التحريم ٦.
(٢) سورة البقرة ٢٤.
(٣) سورة الكهف ٢٩.

وحَرِّها.. فيكون غوثهم بماء كالزيت المَغْلي يشوي الوجوه.. ويقطع الأمعاء ﴿بئس الشراب﴾ فهو لون من ألوان العذاب.. لا بَرْدَ فيه، ولا راحة معه.. وساءت جهنم مكاناً للارتفاق والإقامة!

• وكذلك جاء في سورة الحج حديث عن ثياب المعذبين في جهنم، بحيث تصبح تلك الثياب، أداة من أدوات العذاب..

قال الحق تبارك وتعالى: ﴿هذان خَصمان اختَصَمُوا في ربِّهم، فالذين كفروا قُطِّعتْ لهم ثياب من نار يُصَبُّ مِنْ فوق رُءُوسِهم الحميم. يُصْهَرُ به ما في بطونهم والجلود. ولهم مَقامِعُ مِنْ حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ (١).

وتقطيع الثياب من النار يفيد إحاطة النار بالمعذَّب، كما يحيط الثوب بلابسه، ثم يُصَبُّ الحميم فوق رءوسهم حتى لا تبقى لهم جهة يستريحون منها.

هذا الحميم، وهو الماء الحار المغْليّ ـ يصهر ما في بطونهم، كما يصهر جلودهم، ثم لا يُتركون على ذلك، بل يضربون بمقامع الحديد.. كلما أرادوا أن يخرجوا من النار هاربين من جحيمها أعيدوا فيها.. ويقال لهم ذوقوا عذاب الحريق.. ومثل هذه الصورة الأليمة، ينبغي أن يتأملها الإنسان وأن يجعلها أمامه، كلما وسوس إليه الشيطان، أو ألحت عليه شهوات الباطل.. ليرتدع ويزدجر..

وقد بين القرآن أن عباد الرحمن يقولون في دعائهم: ﴿ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقراً ومقاما﴾ (٢).

---

(١) سورة الحج ١٩ ـ ٢٢.

(٢) سورة الفرقان ٦٥ ـ ٦٦.

فكيف عرفوا أن عذابها غرام، أي هلاك وخسران، وأنها ساءت مستقراً ومقاماً.. إلا من فهمهم لوصف القرآن لها، فأدركوا حقيقتها، وعرفوا ألم عذابها، بتفكرهم وتدبرهم لهذه الأوصاف.

وقد يتعجب الإنسان حين يقرأ أوصاف هذا العذاب الأليم، ويسأل: كيف يتحمل المعذبون في جهنم هذا الجحيم الذي يحيط بهم، وهذا الحميم الذي يقطع أمعاءهم.. وكيف لا يصيبهم الموت من ذلك كله؟!

والجواب: أنه لا موت بعد البعث، والله سبحانه قادر على أن يجعل أجسادهم تتحمل ذلك كله، دون أن تصيبهم راحة الموت.. كما قال سبحانه: ﴿والذين كفروا لهم نارُ جهنم لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ولا يُخَفَّفُ عنهم مِنْ عذابها، كذلك نجزي كلَّ كَفُور. وهم يَصْطرخُون فيها ربَّنا أخرِجنا نعملْ صالحاً غير الذي كنا نعمل أوَ لم نُعَمِّركُم ما يتذكَّرُ فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين مِنْ نصير﴾ [1].

○ بل إن المعذبين أنفسهم يتمنون لو أصابهم الموت.. وينادون خازن النار يطلبون منه ذلك.. ﴿ونادَوْا يا مالك لِيَقضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحقِّ ولكنَّ أكثركم للحقِّ كارهون﴾ [2].

ولما كانت النار تصهر جلود المعذبين، وإذا زال الجِلْد زال معه الإحساس، فقد بين القرآن أن جلودهم تُبَدَّلُ حتى يذوقوا بها العذاب. قال سبحانه: ﴿كلما نَضِجَتْ جلودهم بدَّلناهم جُلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ [3].

(١) سورة فاطر ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) سورة الزخرف ٧٧ ـ ٧٨.
(٣) سورة النساء ٥٦.

○ أما طعام أهل النار، فإنه لون من ألوان العذاب، وليس له من الطعام إلا الاسم! ﴿إنّ شجرة الزّقّوم. طعامُ الأثيم. كالمُهْلِ يَغْلي في البُطونِ. كغَلْي الحميم﴾[1].

وهذه الشجرة قد جاء وصفها في سورة أخرى: ﴿إنها شجرة تخرج في أَصْل الجحيم. طَلْعُها كأنه رءوسُ الشياطين. فإنهم لآكِلُونَ منها فَمالِئون منها البطون. ثم إنّ لهم عليها لشَوْبا مِنْ حميم. ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾[2].

وقد اتخذ المشركون من هذا الوصف لشجرة الزقوم وسيلة للاستهزاء والسخرية، فكان هذا الوصف فتنةً لهم ليزدادوا إثماً وطغياناً.. وليكون طعامهم من هذه الشجرة جزاء وفاقاً، كما قال الحق سبحانه: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أَرَيْناكَ إلا فتنةً للناس والشّجرة الملعونةَ في القرآن، ونخوِّفُهم فما يزيدُهم إلا طغياناً كبيرا﴾[3].

إن المؤمن الذي يتأمل هذه المشاهد لعذاب جهنم، لا بد أن تسيطر الخشية على قلبه، فيحذر الوقوع في شيء مما يؤدي إلى هذا العذاب..

وهذا هو الإنذار الذي يجعل كل إنسان على بصيرة من أمره ليختار لنفسه ما يشاء.. متحملاً العواقب التي يؤدي اليها اختياره..

وهذا ما بينته الآيات في ختام سورة إبراهيم: ﴿يوم تبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتُ وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرّنين في الأصفاد. سَرابيلُهم مِنْ قَطِرانٍ وتَغْشَى وجوههم النار. لِيَجْزِيَ اللهُ كلَّ

(١) سورة الدخان ٤٣ ـ ٤٦.
(٢) سورة الصافات ٦٤ ـ ٦٨.
(٣) سورة الإسراء ٦٠.

نفسٍ بما كسبت إن الله سريع الحساب. هذا بلاغٌ للناس ولِيُنْذَرُوا به وليعلموا أنما هو إلهٌ واحد وليذَّكرَ أولو الألباب﴾[1].

إن هذا الإنذار إعلام بالحقيقة التي ينبغي أن يكون الإنسان ذاكراً لها.. كي لا يلقى بنفسه في الهلاك: كما قال الحق سبحانه: ﴿يوم تجد كل نفس ما عَمِلَت من خير مُحْضَرًا وما عملت من سوءٍ تودّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا ويحذِّركم اللهُ نفسه﴾[2] فهو خوف إيجابيّ.. دافع إلى الاستقامة وحسن الاستعداد وهو تحذير في وقت كاف للإصلاح والاختيار..

الحوار بين المعذبين:

وقد ذكر القرآن ما يدور بين المعذبين في جهنم من حوار يكشف ... ندمهم حين لا ينفع الندم.. وبين الأسباب التي أودت بهم إلى هذا المصير!

وهذا الحوار حق لا ريب فيه.. كما قال الحق سبحانه: ﴿إنّ ذلك لحقّ تخاصُم أهل النار﴾[3].

وقد يقع الحوار بين هؤلاء الهالكين، مستكبريهم وضعفائهم، ثم يأتي تعقيب الشيطان على ما انتهوا إليه جميعاً.. فيزيد ذلك من حسرتهم وعذابهم!

قال سبحانه: ﴿وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مُغْنُونَ عنا مِنْ عذاب اللهِ من شيء؟ قالوا لو هدانا اللهُ لهديناكم سواء علينا أجزِعنا أمْ صبَرْنا ما لنا مِنْ مَحِيص. وقال الشيطان لمّا

(١) سورة إبراهيم ٤٨ ـ ٥٢.
(٢) سورة آل عمران ٣٠.
(٣) سورة صٓ ٦٤.

قُضِي الأمرُ إن الله وعدكم وَعْدَ الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم مِنْ سلطانٍ إلا أنْ دعَوتكم فاستجبتم لي، فلا تَلُوموني ولُومُوا أنفُسَكم ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وما أنتم بمُصْرِخِيَّ إني كفَرْتُ بما أشْركتموني مِنْ قَبْلُ إنّ الظالمين لهم عذاب أليم﴾ (١).

إن الحوار يجري أولا بين الضعفاء والمستكبرين.. فالضعفاء هم الذين انقادوا إلى الجحود والعصيان.. تقليداً واتباعاً. والمستكبرون هم الذين قادوا الحملة ضد الإيمان بالحق، وتصدَّوا لمن يريد اتباع طريق الإيمان والتوحيد..

ويأتي سؤال الضعفاء نابعاً من هول الموقف.. ولكنه سؤال يشفّ عن ضعف وذل واستكانة.. إذ يقولون لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مُغْنُون عنا من عذاب الله من شيء ؟!﴾.

فقد كان المستكبرون في الدنيا يزعمون لهم أنهم سيحملون عنهم العذاب.. إن كان هناك عذاب.. حسب استهزائهم بالوعيد وتكذيبهم بالقيامة.. ويقولون لهم، كما ذكر القرآن. ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ (٢).

فحين عاين هؤلاء الضعفاء موقف القيامة ـ وأيقنوا أن لا قدرة لهؤلاء المستكبرين على أن يدفعوا عنهم شيئاً من العذاب ـ أرادوا أن يكشفوا كذب هؤلاء المستكبرين.. ظانين أن هذا قد يؤدي إلى تخفيف العذاب عنهم.. ولكن هيهات.. فالمسئولية في الحساب فردية، وكل إنسان يتحمل نتيجة اختياره في الدنيا..

---

(١) سورة إبراهيم ٢١ ـ ٢٢.

(٢) سورة العنكبوت ١٢.

أما المستكبرون فإنهم يجيبون المستضعفين بجواب عجيب حقاً.. فهم يحاولون التهرب من جرائمهم، ويزعمون أن الله لم يشأ لهم الهداية: ﴿قالوا لو هدانا اللهُ لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ إنهم يحاولون التعلل بالقدر.. وهي مقولة كاذبة طالما رددها المشركون، زاعمين أنه لو شاء الله ما أشركوا مع أن الله سبحانه قد أرسل الرسل وأنزل الكتب، دعوة إلى التوحيد، وإنذاراً للمشركين بعقاب الدنيا وعذاب الآخرة..

ولكن العجيب في تبجّح هؤلاء المستكبرين، في هذا الموقف العصيب، هو قولهم للضعفاء: «لهديناكم» كأنهم قد ملكوا زمام العقول والقلوب.. يضلون من شاءوا ويهدون من شاءوا.. مما يكشف عن غرورهم وجهالتهم!

○ وأما الشيطان الذي كان همه طولَ مدة الدنيا.. أن يفتن بني آدم ويغويهم.. فإنه يقف في هذا اليوم معترفاً بخطاياه.. مقرّعاً بني آدم على ضعفهم أمامه.. وسرعة استجابتهم لوسوسته.. محاولا هو الآخر أن ينجو من اللوم.. فهم الذين أطاعوه، وهم الذين اغتروا بوعوده الزائفة..

فاليوم يقول لهم ﴿ما أنا بِمُصرِخكم وما أنتم بمُصْرِخيَّ﴾ أي لا قدرة لي على إغاثتكم من العذاب.. بعد أن كنت داعية لكم إلى أسبابه.. وأنتم كذلك لا تستطيعون إغاثتي من المصير الأليم..

فهو معذب مثلهم.. جزاء استكباره وعناده، ووسوسته لبني الإنسان..

وهكذا يبين القرآن، تقطّع الصلات بين هؤلاء الفُرَقاء والقُرَناء.. بين المستضعفين والمستكبرين.. وبين هؤلاء والشيطان الرجيم..

وأوصاف جهنم وما فيها من أهوال كثيرة في القرآن، لا نستطيع الإحاطة بها في هذا المجال.. وقد ذكرنا منها ملامح عامة تكفي في الدلالة

على شدتها وفزعها.. وما يهدف إليه القرآن من تحذير الإنسان من الاقتراب منها.

أوصاف الجنة ونعيمها:

○ إذا تأملنا حديث القرآن في قصار السور، التي نزلت في مكة، عن الجنة ونعيمها.. نجد الإيجاز والاجمال.

ففي سورة «القارعة» تأتي الإشارة إلى نعيم الجنة بأنه «عيشة راضية» أي يرضى عنها صاحبها، حتى يشيع فيها الرضا، وتصبح كأنها راضية. قال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾. وحسب الإنسان أن تكون عيشته راضية مرضية، فالرضا هو الثمرة التي تدل على طيب الحياة وكمال النعيم.

ومن هذه الإشارات المجملة إلى نعيم الجنة، ما جاء في سورة التين، إذ يقول سبحانه: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾.

وفيها دلالة على بقاء نعيم الجنة، فالممنون هو المقطوع، ونعيم الجنة غير مقطوع ولا ممنوع، كما قال الحق سبحانه: ﴿وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ (١).

وذلك من أهم مميزات نعيم الجنة، لأن نعيم الدنيا يزول ويَحُول! فكأنه لم يكن، كما قال لَبِيد:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطِلُ   وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلُ!

وفي سورة البينة يأتي حديث عن الجنة التي تجري من تحتها الأنهار،

---

(١) سورة الواقعة ٣٢ ـ ٣٣.

فيقول سبحانه: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البريّة. جزاؤهم عند ربهم جناتُ عَدْنٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربَّه﴾.

أما وصف الجنات بأنها جنات عَدْن.. فذلك للإشارة إلى الخلود في الجنة، لأن العَدْن هو الإقامة والبقاء.. وقد أكد هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿خالدين فيها أبدا﴾ حتى تظهر المفارقة بين نعيم الدنيا الذي لا بقاء له ولا ثبات.. ونعيم الآخرة الذي لا يزول..

وفي هذه السورة أيضاً الإشارة إلى الرضا في الجنة، وهو نعيم آخر.. فليس فيها حزن ولا حقد ولا حسد، ولا تطلّع إلى غرض آخر.. فالمؤمنون في الجنة قد رضي الله عنهم وتقبّل أعمالهم الصالحة، وقد رضوا بما أعطاهم سبحانه من ثوابه وكرامته..

- وفي سورة الفجر تأتي الإشارة إلى ما يشيع في الجنة من رضا وطمأنينة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾.

فالإشارة هنا إلى طمأنينة النفسية النابعة من الإيمان والثقة بوعد الله سبحانه لعباده المتقين.. وكذلك الرضا من الله سبحانه عن المؤمنين، والرضا من المؤمنين بثواب الله.. كل ذلك يدل على أن نعيم الجنة لا قلق معه.. ولا خوف ولا حزن.. ولا ندم ولا طمع.. فهو يملأ النفس بالرضا الكامل.. إذ لا تطلع إلى ما هو أحسن منه! كما نلمح أيضاً الإشارة إلى النعيم الروحي مع النعيم الحسي: ﴿فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾. لأن دخول المؤمن في زمرة العباد الصالحين الذين رضي الله عنهم نعيم روحي لا يعادله نعيم، يضاف إليه نعيم الجنة بصوره المتعددة.

وحين نصل إلى سورة الغاشية نجد ملامح النعيم مفصلا من وجوه كثيرة، في قوله سبحانه: ﴿وجوه يومئذٍ ناعمة. لسعيها راضية. في جنة عالية. لا تسمع فيها لاغية. فيها عينٌ جارية. فيها سرر مرفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابيّ مثبوتة﴾.

ونلاحظ في تأملنا لهذه الآيات أنها أشارت كذلك، إلى الرضا والفرح بالنعيم، لتؤكد أن الرضا سِمَة ظاهرة في نعيم الجنة.. أما في الدنيا.. فكم من نعيم لا رضا معه ولا أمن ولا سرور.. وكثيراً ما يشقى الإنسان في الدنيا بالنعيم.. لوجود الآفات المنغصة والأسباب المكدرة، أما نعيم الجنة فهو مقرون بالرضا والطمأنينة..

أما وصف الجنة بأنها عالية، فهو علو الدرجة والمكانة، كما يشمل أيضاً الارتفاع الحسّي، وذلك مما يُحْمَد في مقاييس البشر فيما يؤثرون من مساكنهم. كما يمتاز نعيم الجنة بتنزهه عن اللغو: ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ وقد جاءت هذه السِّمَة في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما﴾. ومتى تنزَّه سمع الإنسان عن اللغو فإنه يحسّ بالهدوء والراحة، فلا صخب في الجنة ولا ضجيج، ولا مشاحنة فيها ولا سباب ولا خصومة.. بينما يشقى الإنسان في دنياه بهذا اللغو الذي يملأ حياة البشر.. وهذه الآثام والصراعات التي تجعل الحياة معتركاً صاخباً.. وبحرا متلاطم الأمواج..

وفي هذه الآيات من سورة الغاشية إشارات إلى جوانب متعددة من النعيم الحسي، بعد الإشارة إلى النعيم الروحي، فالعين الجارية، والسُّرُرُ المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، ـ وهي الوسائد ـ والزَّرَابِيُّ المبثوثة، وهي البُسط التي تُفرش للجلوس أو الزينة.. كلها صور للنعيم الحسي، في المأكل والمشرب ووسائل الراحة، مع العلم بأن ذلك كله

للتقريب، لأن نعيم الجنة لا يشبهه نعيم في هذه الدنيا.. كما جاء في الحديث القدسي عن ربِّ العزة: «أعدَدْتُ لعبادي الصالحين في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

○ وفي هذه السور القصار، من الجزء الأخير من أجزاء القرآن، سور أخرى تحدثت عن نعيم الجنة، كسورة المطففين، وهي آخر سورة نزلت بمكة، وفيها يقول الحق سبحانه: ﴿إنّ الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرون. تعرفُ في وجوههم نَضْرَة النعيم. يُسْقَوْنَ من رحيقٍ مختوم. ختامُه مِسْك، وفي ذلك فَلْيتنافَسِ المتنافِسُون. ومِزَاجُه مِنْ تَسْنِيم. عينا يشربُ بها المقرَّبُون﴾[1].

وهي صورة للمؤمنين في الجنة.. وقد ظهرت عليهم آثارُ نعيمها، وهو أسلوب من أساليب الكتاب العزيز في وصف نعيم الجنة، وبيان حال المؤمنين فيها، ليدرك الإنسان من خلال هذا الوصف المنزلة الرفيعة التي بلغوها.

وقد بدأت الآيات بتأكيد حقيقة أن الأبرار.. وهم الأخيار المتقون.. يعيشون في الجنة في نعيم: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ وقد جعلهم في النعيم كأنهم مغموسون فيه متلبسون به، ومن مظاهر هذا النعيم أنهم جالسون على الأرائك ينظرون.. فقد تحقق لهم الفراغ من الأعباء، والنجاة من الأهوال، والفوز في اختبار الدنيا الذي أظهر معادنهم وأوضح حقائقهم.. وقد أخبرت الآيات، بظهور آثار النعيم على وجوههم، لأن ذلك دليل على خلوص هذا النعيم من كل آفة، وكماله من كل وجه.. فقد يكون الإنسان في الدنيا في نعيم ولكنه لا ينتفع به، ولا تظهر عليه آثاره، لمانع يحول بينه وبين ذلك.. كوفرة الطعام لدى من لا يستطيع الانتفاع به لمرضه، أو

---

(١) سورة المطففين ٢٢ ـ ٢٨.

الثياب الفاخرة لدى من لا يستطيع الاستمتاع بها لآفة في جسده، ونحو ذلك..

أما نعيم الجنة فإن آثاره تظهر واضحة جلية في وجوه المؤمنين: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾.

وقد تحدثت هذه الآيات من سورة المطففين عن شراب أهل الجنة، ولم تتحدث عن طعامهم، ولكن الحديث عن الشراب وطِيبِهِ.. يتضمن الإشارة إلى الطعام أيضاً.. لأن الشراب لا يكون إلا بعد الشبع، ولا يكتفى به وحده.. فإذا كان الشراب طيباً، فلا بد أن يكون الطعام كذلك.. هذا إلى أن طعام أهل الجنة قد جاء الحديث عنه مفصلا في سور كثيرة..

○ أما سورة المطففين، فقد بينت أن أهل الجنة يُسْقَوْن شراباً خالصاً لا تشوبه شائبة، مختوماً لم يَمْسَسْهُ أحدٌ قبلهم، وهو مختوم بِمِسْك.. يطيّب رائحته كما طاب طعمه.. وهو ممزوج بماء من عينٍ لا يشرب منها إلا المقربون.. فما أحلى هذا الشراب وما أطيبه مذاقاً ورائحة..

* * *

وقد بقي من الجزء الثلاثين من أجزاء القرآن، سورة النبأ، وقد تحدثت كذلك عن نعيم الجنان. في قوله سبحانه: ﴿إن للمتقين مفازًا. حدائق وأعنابا. وكواعب أترابا. وكأسا دِهاقا. لا يَسْمعون فيها لغوا ولا كِذَّابا. جزاء من ربِّك عطاءً حِسَابا﴾[1].

وقد تضمنت هذه السورة أوصافاً جديدة لنعيم الجنة، تضاف إلى ما جاء من أوصاف في السور الأخرى.. فقد جاء فيها الحديث عن الحدائق والأعناب.. وعن الكواعب الأتراب.. وعن الكأس المملوءة بالشراب،

(١) سورة النبأ ٣١ ـ ٣٦.

وتنزّههم فيها عن اللغو والكِذَّاب.. وفي كل منها إشارة إلى لون من ألوان النعيم..

فالحديث عن الحدائق والأعناب إشارة إلى فاكهة الجنة، وهي ذات ألوان متعددة، وليس في شيء منها مشابهة لما يعرفه الناس في الدنيا إلا في الاسم..

وهذه السورة الوحيدة، في الجزء الثلاثين من القرآن التي جاءت فيها الإشارة إلى نساء الجنة.. وهو لون آخر من ألوان المتاع.. وقد وصفت نساء الجنة في هذه السورة بوصفين: أنهن كواعب، وهو جمع كاعب، وهي الفتاة الحسناء التي اكتمل حسنها، وأنهن أتراب، أي مشابهات لأزواجهم في الشباب..

ثم يأتي الحديث في سورة النبأ، عن الكأس الدهاق.. وهي الكأس المملوءة بشراب طيب طاهر.. وإذا كان الشراب طيباً، فإن امتلاء الكأس منه يزيد لذة الشارب..

وهنا أيضاً جاء الحديث عن متعة أهل الجنة، بكونهم لا يسمعون فيها لغواً، وبهذا تكتمل اللذة ويحصل الصفاء.. فإن اللغو والكذب، يكدر كل نعيم، ويشين كل متعة، ومهما اجتهد الناس في حياتهم الدنيا.. فإنهم لا يستطيعون التنزه عن اللغو والكذب.. بل هو الغالب على أجواء الدنيا الشاغل لأهلها! كما قال الحق سبحانه: ﴿وإن تُطِعْ أكثر من في الأرضِ يُضِلّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإنْ هم إلا يَخْرُصون﴾ (١).

أما أهل الجنة فلا يكدر أسماعهم شيء من الباطل..

ويأتي التعقيب في ختام هذا الوصف الجميل لنعيم الجنة، بقوله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام ١٦٦.

﴿جزاءً من ربِّك عطاءً حِسَابا﴾ وذلك لتقرير مبدأ العدل في الحساب والجزاء، فهو مقترن بالعمل مترتب عليه، يعلم الإنسان أن نعيم الجنة لا ينال بالتمني، ولا تكفي فيه الآمال.. بل لا بد فيه من صالح الأعمال.

مشاهد مفصَّلة لنعيم الجنة:

في كثير من سور القرآن، غير هذه السور القصار، مشاهد مفصلة لنعيم الجنة، فقد جاء وصف طعام أهل الجنة في سورة البقرة، وصفاً مجملاً في قول الحق سبحانه: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أن لهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار كلما رُزِقُوا منها من ثمرةٍ رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبلُ وأُتوا به متشابها، ولهم فيها أزواج مطهَّرةٌ وهم فيها خالدون﴾ (١) ففي هذه الآية بيان لتشابه الأشكال، حتى ليظنَّ أهلُ الجنة أن ما يرزقونه من الشراب هو الذي أتاهم من قبلُ، ولكنهم يجدون اختلاف الطعوم.. وإن تشابهت الأسماء والأشكال! ويأتي تفصيل هذا الإجمال في سور أخرى، كسورة محمد، التي بينت أن ألوان الثمرات التي يُرْزقُها أهل الجنة.تشمل كل الأنواع التي تَرِدُ أسماؤها في تصور الإنسان، وإن اختلفت حقائقها عما نعرفه في الدنيا..

قال الحق سبحانه: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لَبَنٍ لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ (٢).

وفي سورة الواقعة تفصيل لبعض هذه الثمرات التي يتخير منها أهل الجنة ما يشاءون: ﴿وفاكهة مما يتخيَّرون. ولحم طير مما يشتهون﴾ (٣)

---

(١) سورة البقرة ٢٥.

(٢) سورة محمد ١٥.

(٣) سورة الواقعة ٢٠ ـ ٢٢.

وفي سورة الرحمن أوصاف عامة للجنة، في قوله سبحانه: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان. ذواتا أفْنان﴾[1].

وهاتان الجنتان، قد اختلفت فيهما أقوال المفسرين، فقيل: جنة لمن يخاف مقام ربه من الإنس، وأخرى لمن يخاف مقامه من الجن.. لأن الخطاب في سورة الرحمن يتجه إلى الثَّقَلَيْن، وهما الإنس والجن، في قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لكم أيها الثَّقَلان﴾.

ولكن هذا القول بعيد، لأن مفهوم الجملة القرآنية واضح في أن لكل خائف جنتين.. ولم يرد في القرآن تخصيص للإنس بجنة.. ولا للجن بأخرى..

ومن هنا قال مفسرون آخرون: لكل خائف جنتان: جنة بسبب فعله للطاعات.. والأخرى لترك المعاصي.. لأن التكليف إما أمر أو نهي.. فالذي يخاف مقام ربه ويستجيب للأمر ويمتثل للنهي، له جنة لكل جانب منهما.

وقال آخرون: له جنة يثاب بها، وأخرى تُضمّ إليها على وجه التفضيل.. كما قال سبحانه: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾[2].

وكل هذه الأقوال اجتهادات في الفهم، لا ترجع إلى نص قطعي.. ومن هنا فإن أعدل منهج في التفسير.. هو تفسير القرآن بالقرآن.. ثم تفسير القرآن بالسُّنة الصحيحة.. وإذا ما تأملنا سورة الرحمن وجدناها تتحدث عن هاتين الجنتين وتصف ما فيهما من ألوان النعيم، ثم بعد ذلك تشير الآيات إلى جنتين أخريين، في قوله تعالى: ﴿ومِنْ دونهما جنتان﴾

---

(١) سورة الرحمن ٤٦ ـ ٤٨.

(٢) سورة يونس ٢٦.

أي أقل درجة في النعيم من الجنتين الأُولَيَيْن.. فيحصل لنا في هذه السورة حديث عن أربع جنات.. لا عن جنتين فقط.. وقد أشارت سورة الواقعة إلى تفاضل درجات النعيم بين المقربين وأصحاب اليمين.. فالأولون لهم منزلة في الجنة أعلى من منزلة الآخرين.. وإذن فالمقصود أن للمتقين الخائفين مقامَ ربهم - جناتٍ متعددة الدرجات، حسب منازلهم ومراتبهم وأعمالهم.

ويتضح في حديث القرآن عن النعيم للمتقين أن لهم جنات لا جنة واحدة، ولا جنتين فقط.. قال تعالى: ﴿وعد اللهُ المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيِّبةً في جنات عَدْن﴾[1] أي إقامة دائمة وخلود.

○ وفي القرآن ذكر لعدةِ أسماء للجنة.. وهذه الأسماء تدل على اختلاف المنازل وتفاوت الدرجات.. حسب الأعمال والقُربات. فقد جاء في القرآن ذكر جنة عدن، وجنة النعيم، وجنة الفردوس.. ﴿الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ وجنة المأوى قال تعالى: ﴿عند سِدْرة المنتهى. عندها جنة المأوى﴾ وجنة الخُلْد ﴿أذلك خير أم جنةُ الخُلْدِ التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا﴾ ودار السلام: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾.

وقد لاحظ بعض المحققين من العلماء[1] أن منازل الجنة أربعة فقط: وهي عدن والنعيم، والفردوس والمأوى.

أما دار السلام فهي وصف للجنة عامة، وكذلك عليون في قوله تعالى: ﴿كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾.

---

(١) سورة التوبة ٧٢.

(١) تفسير سورة الرحمن للدكتور شوقي ضيف.

ويكفينا أن نعلم أن الجنة ذات منازل، وأن لكل منزلة صفة خاصة في نعيمها وثوابها.

وصف الجنتين في سورة الرحمن:

• بدأ الحديث عن هاتين الجنتين بقوله تعالى: ﴿ذواتا أفنان﴾ فإن كان المراد بالأفنان الأغصان التي تشعبت من فروع أشجارها.. فقد بدأ بها لأنها هي التي تورق وتثمر، ومنها تمتد الظلال، وتجنى الثمار.. أما إن كان المراد بالأفنان ألوان النعيم من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.. فالتقديم أيضاً له مغزاه الجميل، لأنه إجمال لما تحتويه الجنة من ألوان النعيم، واستعمال الأفنان بمعنى فنون المتاع وارد في الشعر العربي القديم، كقول الشاعر:

ومن كلِّ أفنان اللذاذة والصِّبا لَهَوْتُ به والعيشُ أخضرُ ناعمُ

○ ونلاحظ في سورة الرحمن تكرار الجملة القرآنية: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وقد جاءت أيضاً بعد هذا الوصف للجنة.. وتخللت هذا الوصف في أكثر من موضع.. ومغزى هذا التكرار: أن سورة الرحمن هي السورة التي تضمنت بيان النعم الإلهية على الثَّقلين، في الدنيا والآخرة.. والجنة بكل ما فيها من متاع.. إنما هي نعمة إلهية عظمى لا يستطيع الإنسان أن يوفيها قَدْرها من الشكر.. ولهذا جاءت الجملة القرآنية الكريمة: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾ لتنتزع الإقرار من الجن والإنس بهذه النعم، والاعتراف بأنها من الله سبحانه وحده.. حتى لا تبقى حجة للعناد أو الجهالة. والعينان في قوله تعالى: ﴿فيهما عينان تجريان﴾: تجريان في الأعالي والأسافل حيث شاءوا، أي في الأماكن المرتفعة والمنخفضة.. وروى عن الحسن البصري أنه قال: تجريان بالماء الزلال.. إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل..

وهاتان العينان هما بعض عيون الجنة التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾.

وفي سورة الرحمن أيضاً ذكر لعينين أخريين، وهما العينان النضاختان في الجنتين الأخريين، ففيهما ذكر لأربعة عيون: ﴿فيهما عينان تجريان﴾ ﴿فيهما عَيْنان نَضَّاخَتان﴾.

• ونصل إلى حديث الطعام في الجنة، في سورة الرحمن إذ يقول سبحانه ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾.

وقد قيل في بيان معنى هذين الزوجين أنهما صنفان من من كل نوع من أنواع الفاكهة، أحدهما معروف، والآخر غريب. أو أحدهما رَطْب والآخر يابس. أو حلو وحامض. وغير ذلك من الأقوال.

وقد تكون في هذه الآية إشارة إلى ما جاء في سورة البقرة من اختلاف الطعوم مع تشابه الأسماء أو الأشكال: ﴿كلما رُزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبلُ﴾.

○ وفي وجود الزوجين من كل صنف لذة ومتاع لأهل الجنة، ومناسبة لطباع البشر، التي تصاب بالسأم والملل من تكرار الشيء الواحد.

وإذن فالأولى أن يكون الزوجان من هذه الفواكه، نوعين مختلفين من كل فاكهة، زيادة في المتاع، وتنويعا في اللذة في دار النعيم.

○ ثم تنتقل الآيات في سورة الرحمن إلى الحديث عن فرش أهل الجنة، وقرب الثمرات فيها، في قوله تعالى: ﴿متَّكئين على فرش بطائنها من إستَبرق وجنى الجنَّتين دان﴾.

فتبين هذه الآية أن بطائن هذه الفرش التي تستخدم في الجلوس عليها والنوم أيضاً ـ من استبرق، وهو الديباج الغليظ، وإذا كانت البطائن من

استبرق، فما ظنك بالظهائر؟ إنها لا بد أن تكون أجمل وأنْعَم. وقد قيل إن الظهائر من سندس، وهذا الوصف جاء في ثياب أهل الجنة، في سورة الكهف، في قوله سبحانه: ﴿ويَلْبَسُون ثيابا خُضْرا من سُنْدسٍ واستبرقٍ﴾ فثيابهم من حرير وفُرشهم أيضاً كذلك.

أما جنى الجنتين فالمراد به ثمرهما، وقد وصف بأنه دانٍ أي قريب سهل التناول، بحيث يقطفون منه كلما شاءوا، قائمين أو جالسين أو مضطجعين، لا يمنعهم عنه بعد، ولا شوك.

نساء الجنة:

ثم يأتي الحديث عن نساء الجنة في سورة الرحمن، في قوله تعالى: ﴿فيهن قاصراتُ الطرف لم يَطْمِثْهُنّ إنسٌ قَبْلهم ولا جانّ﴾ والمراد أن نساء الجنة يقصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، وذلك لشدة حيائهن، وطهرهن وعفافهن.

وهذا كقوله تعالى في سورة ص: ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾. أي مماثلات لهم في السن أو مقاربات، وفي سورة الصافات يقول الحق سبحانه ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهن بَيْضٌ مكنون﴾. فهذا دليل على الحياء والعفاف والتقوى، كما هو دليل على شدة المحبة لأزواجهن وكمال الإعجاب بهم.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لم يطمثهن إنسٌ قبلهم ولا جان﴾ أنه لم يمسسهن أحد قَبْلُ.. فهن أبكار عفيفات، وذكر الجان هنا دليل على أن مؤمني الجن يثابون بدخول الجنة.. كما يثاب مؤمنو الإنس.. وأن هناك حوراً من الإنس في الجنة.. للمؤمنين من الإنس، وحوراً من الجن للمؤمنين من الجن. والمعنى: لم يمس حورَ الإنسِ أحد من الإنس، ولم

يمسَّ حور الجن أحد من الجن.

ثم جاء تشبيه نساء الجنة بالياقوت والمرجان في قوله تعالى: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ والياقوت يضرب به المثل في الصفاء، والمرجان يضرب به المثل في البياض.. وقد يكون المعنى تصويرهن في بياض اللون مع الحمرة، وبه يتم الحسن والبهاء.

وهكذا نرى أوصاف الجنة في القرآن الكريم دالة على تمام الجمال والبهاء.. والنضرة.. والنعيم.. لتكون جزاء لأهل التوحيد والتقوى.. ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾.

الفصل السابع

«ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنْفُسكم
إلا في كتاب من قَبْل أن نبرأها
إنْ ذلك على الله يسير»

الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر عنصر من عناصر الإيمان التي بيَّنها القرآن.. وقد بيَّن القرآن المنهج الحق في الإيمان بالقدر، في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنْفُسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير. لِكَيْلا تأسَوْا على ما فاتَكمْ ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم والله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور﴾[1].

ومن هنا يوقن المؤمن بأن العلم الإلهي سابق في كل ما يصيب الناس من خير أو شر، وكل ما يقع في الأرض من نعمة أو نقمة. فكل ذلك قد سبق تقديره من العزيز العليم.. لا محيد للإنسان عنه ولا مَهْرَب منه، لا يستطيع أن يغير فيه أو يبدل..

فإذا حاول المجادلون أن يقولوا: إذن فلا اختيار لنا في شيء ما يصيبنا مقدر؟!

فالجواب: أن للإنسان جانبين في حياته: جانب قهري مقدر لا يد له فيه كالأجل والرزق والرلد.. والصحة والمرض.. وغير ذلك مما لا يُتْرَك لاختيار الإنسان فهذه كلها قد قدَّرها الله سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق.

(١) سورة الحديد ٢٢ ـ ٢٣.

وجانب اختياري مِنْ سَعْيه وكَسْبه، وهو ما جعل اللهُ سبحانه الإنسانُ مستعداً للاختيار فيه، كما قال سبحانه: ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمَنْ شاء فليؤمنْ ومَنْ شاء فليكفُرْ﴾ (١) . وقال سبحانه: ﴿إنّ هذه تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربِّه سبيلا. وما تشاؤن إلا أن يشاء اللهُ﴾ (٢) .

وهذه الأمور يجب على الإنسان أن يلتزم فيها المنهج الذي بيَّنه الله في كتابه الكريم، وسنة نبيه ﷺ.

فالمجادلون بالباطل هم الذين يحاولون تصوير الإنسان في صورة المجبر الذي لا كسب له ولا اختيار.

والجدال في شأن القدر ليس من شأن المؤمن، لأنه يعلم أن الجدل في قضية الجبر والاختيار باب من أبواب الفتنة. وأن العقيدة القرآنية في شأن القدر واضحة لمن يتدبرها بقلب سليم وفكر مستقيم.

حرية الاختيار:

وحَسْبنا أن نتدبر الآيات التي تثبت حرية الاختيار والكسب أمام الإنسان. وترتب الجزاء على هذا الاختيار. قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ونفس وما سوَّاها. فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دساها﴾ (٣). فهذه هي النفس الإنسانية، تعرف طريق الخير وطريق الشر.. ومسئولية الإنسان هي اختيار تزكية النفس، لا تَدسيَتُها.. حتى يكون من المفلحين.

وما ألهم اللهُ سبحانه النفسَ الإنسانية هذه المعرفة، بطريق الخير وطريق

---

(١) سورة الكهف ٩ .

(٢) سورة الدهر ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) سورة الشمس ٧ ـ ١٠.

الشر، إلا ليكون أمامها فرصة الاختيار لأحد الطريقين... ولتتحمل ما يترتب على هذا الاختيار من جزاء.

وقال تبارك وتعالى: ﴿إن هذه تذكرةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا. وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما﴾.

• وقد يظن بعض الناس أن الآية الثانية تنفي مشيئة العبد، إلا إذا شاء الله سبحانه.. وإذن فأين الاختيار؟

والجواب: أنه لا تنافي بين إثبات المشيئة للعبد في اختياره.. وإثبات أن مشيئة العبد لا تكون إلا وفق مشيئة الله سبحانه، فللعبد مشيئة في الاختيار.. ولكن عليه أن يعلم أن الله سبحانه هو الذي يعينه على ذلك ويأذن بوقوعه، لأنه لا يقع في هذا الكون شيء الا بإرادة الله سبحانه.. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن..

○ وهذه الحقيقة لا تنفي أن مناط الثواب والعقاب للإنسان إنما هو اختياره.. وذلك المعنى قد جاء في قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بَخِل واستغنى وكذَّبَ بالحسنى فسنيسره للعُسْرى﴾.

وقد جاء هذا المعنى واضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضلَّ أعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنُوا بما نُزِّلَ على محمد وهو الحقُّ من ربِّهم كفَّر عنهم سيآتِهم وأَصْلَحَ بالَهم. ذلك بأن الذين كفروا اتَّبعُوا الباطلَ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربِّهم. كذلك يضربُ اللهُ للناسِ أمثالَهم﴾ (١).

إن هذه الآيات من سورة محمد توضح الاختيار الإنسانيَّ في أجْلَى

---

(١) سورة محمد ١ ـ ٣.

صورة، وتدفع كل شبهة للجَبْر والقَسْر.. فهي تذكر أولاً وقوع الضلال على الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله. وحدوث صلاح البال وتكفير السيآت للذين آمنوا وعملوا الصالحات.. وآمنوا بالإسلام الذي هو الحق من ربهم كما جاء به القرآن..

○ وهكذا يتضح أن ما حدث لكلا الفريقين إنما كان بسبب اختيارهم، فجاء هذا المصير عاقبةً لأعمالهم.. ولا تقف هذه الآيات من «سورة محمد» عند هذا الحد.. بل تنص بوضوح على السبب الذي أدى بالفريقين إلى هذا المصير: ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحقَّ من ربِّهم﴾.

ولنتأمل كلمة اتبعوا في هاتين الجملتين.. فالذين كفروا اتبعوا الباطل.. أي اختاروا سلوك طريقه، والذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، أي سلكوا سبيله وآثروا نهجه.. وهكذا تحقق العدل الإلهي في الجزاء وفقاً للاختيار..

○ فهذه الآيات من سورة محمد، تدفع كل شبهة للمجادلين في قضية الاختيار. وهي تدعو الإنسان إلى التفكير في مسئوليته.. والتبصُّر في طريقه الذي يَسْلكه.. وهكذا يبين القرآن أن الاختيار أساس الجزاء. وتتضح هذه الحقيقة أيضاً في بيان مصائر أهل الجنة وأهل النار.. والأسباب التي أدت بكل منها إلى ما صار إليه. وقد وقفنا عند كثير منها، عند حديثنا عن الثواب والعقاب في الفصل السابق. ولكننا نكتفي هنا بالاستشهاد ببعضها في هذا السياق.

ففي بيان مصائر أهل الجنة نقرأ في سورة الذاريات قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يَهْجَعُون. وبالأسحار هم

يستغفرون. وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾[١].

فها هي أعمالهم واختياراتهم في جوانب العقيدة والعبادة والخُلق والإحسان.. وهي أعمال اقتضت منهم الكثير من الجهد والصبر والمقاومة للوساوس والغرائز والانفعالات. ولا يمكن أن يكون هؤلاء المتقون مَسُوقين في أعمالهم هذه أو مرغمين عليها.

○ وفي الجانب المقابل نقرأ قول الحق تبارك وتعالى في سورة الفرقان: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضَلَلْتم عبادي هؤلاء أمْ هم ضَلّوا السبيل. قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخذَ مِنْ دُونك مِن أولياءَ ولكنْ متَّعْتَهم وآباءهم حتى نَسُوا الذِّكْرَ وكانوا قَوْما بُورا﴾[٢]. فهؤلاء الذين أشركوا بالله سبحانه واتخذوا من دونه أولياء، قد نَسُوا الذِّكْر الذي أنزله الله على أنبيائه ورسله، وانحرفوا عن نهج الايمان، اغتراراً بما أنعم اللهُ به عليهم، وقد كان ينبغي لهم أن تكون النعمة وسيلةً لتذكيرهم بآلاء الله.. وإدراك فضله عليهم.. ولكنهم بسبب سوء اختيارهم وفساد أعمالهم هوَوْا إلى درك الشِّرك والكفر.. فاستحقوا هذا المصير الأليم.

الهداية والضلال:

وهنا لا بد أن نشير بايجاز الى دلالة الآيات التي تحدثت عن الضلال والهداية في القرآن.. ما دمنا قد عرفنا أن الاختيار الإنساني هو الأساس الذي يترتب على الجزاء.

ومجمل القول: أن الهداية والإضلال بيد الله سبحانه، فهو ﴿يضل من

(١) سورة الذاريات ١٥ ـ ١٩.

(٢) سورة الفرقان ١٧ ـ ١٨.

يشاء ويهدي من يشاء﴾ (١) كما جاء في الكتاب العزيز.

ولكن القرآن قد بين أسباب الضلالة وأسباب الهداية.. وهي قائمة على أساس الطريق الذي يختاره الإنسان.. كما قال سبحانه: ﴿يضلّ به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضِلّ به إلا الفاسقين. الذين يَنْقُضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَلَ ويُفْسِدُون في الأرضِ أولئك هم الخاسرون﴾ (٢).

فهذا الحصر لمن يضلهم الله سبحانه، فيمن يتصفون بهذه الصفات، يدل على أن الضلال عاقبة سعيهم ونتيجة اختيارهم.

○ وكذلك بيّن القرآن صفات الذين يهديهم الله سبحانه، وأوضح أسباب استحقاقهم لتلك الهداية، في آيات كثيرة.. كقوله سبحانه: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ (٣). فهم قد اهتدوا بسلوك طريق الهداية.. فزادهم الله هدى.. أي يسَّر لهم السبيل فأعانهم على المزيد، وحقق لهم التقوى التي طلبوها بأعمالهم.

○ وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إن الله يُضِلّ من يشاءُ ويُهْدِي إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبُهم بذِكْرِ الله ألا بذِكْرِ الله تطمئنّ القلوب﴾.

وبهذا يوضح القرآن ارتباط الهداية والضلال بحقيقة الاختيار الإنساني، حتى لا يظن الجاهلون أن الأمر بعيد عن أعمالهم ومسالكهم..

ولهذا فقد نعى القرآن على المشركين جدلهم بالباطل إذ كانوا يحتجون

---

(١) سورة المدثر ٣١.

(٢) سورة البقرة ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) سورة محمد ١٧.

بالقدر.. ويزعمون أنه لو شاء الله ما أشركوا.. ويغفلون عن أن اختيارهم وعملهم هو الذي أوردهم هذا المصير. وأودى بهم إلى هذا الهلاك.. قال تبارك وتعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاءَ اللهُ ما أشْركْنا ولا آباؤنا ولا حرَّمْنا مِنْ شيء. كذلك كذَّبَ الذين مِنْ قَبْلهم حتى ذاقُوا بَأْسنا. قل هل عندكم مِنْ علمٍ فتُخْرِجُوه لنا. إن تتبعون إلا الظَّنَّ وإنْ أنتم إلا تَخْرُصون. قل فللَّه الحُجَّةُ البالغةُ فلو شاء لهداكُمْ أجمعين﴾[1].

إنه تجاهل الإنسان لإرادته التي منحه الله إياها.. وتعلله بالقدر، بعد تفريطه وتخليطه في عمله.. فهل أراد هؤلاء المشركون اختيار طريق التوحيد والإيمان فصُدُّوا عنه؟ حتى يصح لهم التعلل بالقدر؟! أم أنهم كذبوا واستكبروا وصدوا الناس عن سبيل الإيمان بالحق.. ثم جاءوا يقولون: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ ولهذا فقد بيَّن القرآن أن مثل هذا القول إن هو إلا أسلوب من أساليب التكذيب بالحق، ورفض دعوة الإيمان: ﴿كذلك كذب الذين مِنْ قَبْلِهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ وهل لهؤلاء المجادلين بالباطل في شأن القدر.. الزاعمين بأنهم مجبورون على سلوك هذا الطريق - هل لهم علم يجادلون فيه، وهل لهم حجة يقبلها العقل.. أم هي الظنون والأوهام: ﴿قل هل عندكم مِن علمٍ فتخرجوه لنا. إن تَتَّبِعُون إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تَخْرُصون﴾.

ثمرة الإيمان بالقدر:

إن الإيمان بالقدر، له حقيقة يدل عليها القرآن، وله ثمرة نافعة في مسالك الإنسان في الحياة، فهذا الإيمان بالقدر يعصم الإنسان من الجزع عند البلاء، كما يحميه من البطر عند النعماء. كما قال الحق سبحانه:

---

(١) سورة الأنعام ١٤٨ - ١٤٩.

﴿لِكَيْلاَ تأسَوْا على ما فاتكم ولا تَفْرَحُوا بما آتاكم﴾ [١].

والمؤمنون يقولون كما علمهم ربُّهم في محكم كتابه: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فَلْيتوكل المؤمنون﴾ [٢].

• أما الذين لا يؤمنون بالقدر فإن أحداث الحياة تهزمهم وتصيبهم باليأس القاتل، وتجعلهم يجزعون عند الشدائد.. وهذه صورة الكافر الجَزُوع المَنُوع... الذي لا يؤمن بالقدر، كما جاءت في سورة المعارج: ﴿إنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً. إذا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعاً. وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنُوعاً. إلا المصلِّين..﴾ فالمصلُّون المؤمنون العابدون، هم وحدهم الذين لا يجزعون عند الشدائد.. ولا يبخلون.. ولا يتبطرون عند النعمة، بل إن إيمانهم بالقدر يجعلهم على يقين من أن كل شيء في هذا الوجود إنما هو بحساب.. وأن أمور الخَلْق ليست وليدة الصراع والفوضى، كما يزعم الجاحدون.. بل هي من تدبير خالق عليم ورازق حكيم.. كما قال سبحانه: ﴿إنا كلَّ شيءٍ خَلَقْناه بِقَدر. وما أمْرُنا إلا واحدةٌ كلَمْحٍ بالبَصر﴾.

وقد أوضح القرآن الكريم ارتباط الرزق بالقدر في كثير من آياته.. كقوله تعالى: ﴿ولو بسط اللهُ الرزق لعباده لبَغَوْا في الأرض ولكنْ ينزِّلُ بِقَدَرٍ ما يشاءُ إنه بعباده خبير بصير﴾ [٣] فالأرزاق مقسومة، والله سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولكن الله سبحانه قد ربَط بَيْن الأسباب والمسبَّبات، وأوجبَ السعي على عباده لطلب الرزق، وكلٌّ ميسّر لِمَا كتب اللهُ له. وكما قال سبحانه: ﴿وآخرُون يَضربُون في الأرض يَبْتَغُون مِنْ

---

(١) سورة الحديد ٢٣.

(٢) سورة التوبة ٥١.

(٣) سورة الشورى ٢٧.

فَضْلِ اللهِ﴾[1] أي يَسْعَون لطلب الرزق في فجاج الأرض.. وقال سبحانه: ﴿فإذا قُضِيت الصلاةُ فانتشروا في الأرضِ وابتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾.

وقد أخطأ كثير من الجاهلين القاصرين عن إدراك حقائق الدين، حين تواكلوا وقعدوا عن العمل والسعي.. ظناً منهم أن هذا مقتضى الإيمان بالقدر، والثقة بما وعد الله به عباده من الرزق!

فإن قسمة الأرزاق لا تعني ترك الأسباب التي بها يحصل الرزق.. وإلا فما معنى الأمر بالسعي ابتغاء لفضل الله، وهو الرزق، في آيات كثيرة في القرآن.. كقوله سبحانه: ﴿هو الذي جعل لكم الأرضَ ذَلُولا فامْشُوا في مَنَاكِبها وكُلوا مِن رِزْقِه وإليه النُّشُور﴾[2]. وغير ذلك كثير في آيات الكتاب العزيز.

وقد بيَّن تلك الحقيقة الرسولُ ﷺ في قوله: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما تُرزق الطير تغدو خِمَاصاً وتروحُ بِطَانا». أي تخرج من أعشاشها في الصباح لطلب الرزق.. وترجع وقد مُلِئت حواصلها بالحَبّ.. فهذه الطيور تَسْعى وتغدو وتروح.. ولا تَظَلّ في أعشاشها انتظاراً للرزق، هكذا ألهمها الله سبحانه، مع ضعفها وقلة حيلتها.. فما بالنا بالإنسان العاقل المزود بالقوى والحواس.. الذي سخَّر اللهُ له ما في السموات وما في الأرض؟.

أيترك عمارة الأرض واستخراج خيراتها والانتفاع بما سخره الله له فيها.. انتظاراً لمن يأتي فيضع الطعام في فمه.. ظناً منه أن هذا هو التوكلُ على الله؟!

(١) سورة المزمل ٢٠.
(٢) سورة المُلْك ١٥.

○ إن هذا منطق العاجزين القاصرين عن فهم حقيقة الإيمان بالقدر، كما أوضحها القرآن.

ولم تعرف العصور الإسلامية الزاهرة، هذا الكسل وهذا القعود، وهذا التخلي عن العمارة والعمل.. فقد كان الرسول ﷺ وأصحابه يعملون، ويكسبون من عملهم، وهم يسمعون توجيه النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قطّ خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[1].

وفي عصور التابعين ومن تبعهم بإحسان.. كان الجميع يتواصون بالعمل والاجتهاد في طلب الرزق.. ثم بعد ذلك يأتي العلم والتعبّد بالنوافل..

فكان كثير من التابعين يوصون إخوانهم، بلزوم السوق! ويوصونهم بإحراز الرغيف قبل الفراغ للعبادة النافلة! وينكرون على من ينقطعون ويتزهدون.. وقلوبهم مشغولة بمن يأتي يدق عليهم الباب ليعطيهم ما يقوتهم!!

○ إن هذا التفكير السلبي بعيد تماماً عن مقتضى التوكل وعن حقيقة الإيمان بالقدر..

وهو الذي فتح الباب للمستشرقين والمبشرين الذين زعموا أن إيمان المسلمين بالقدر، هو سبب ضعفهم وتأخرهم! وكذبوا.. فإن الايمان بالقدر في حقيقته هو الباعث على العمل.. وعلى الطمأنينة في السعي.. والثقة بما يقدره الله سبحانه بعد الأخذ في الأسباب..

﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سُبُلَنا﴾[2].

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه.

(٢) سورة إبراهيم ١٢.

خاتمة

فهذه هي عناصر الإيمان كما أوضحها القرآن..

- إيمان بالله سبحانه.
- وبملائكته..
- وبرسله..
- وبكتبه..
- وباليوم الآخر..
- وبالقدر خيره وشره..

○ وقد وقفت أمام كل عنصر منها أتبين حقيقته في سياق القرآن كله.. لتتضح الصورة كاملة.. وليدرك المؤمن الأساس والدليل.. وليستطيع الرد على شبهات المنكرين والجاحدين والمكذبين..

وقد حرصت على الإجمال في أكثر ما كتبت في عناصر الإيمان.. فإن كل واحد منها لو اتسع فيه مجال الحديث لاستغرق الكتب الكثيرة والبحوث المطولة.

ولكن الهدف من هذا الكتاب إنما هو تقديم صورة تجمع الملامح والسمات العامة، وتترك التفاصيل والبحوث الفرعية.

□ وقد يقول قائل: وهل كانت هناك حاجة لكتاب جديد عن الإيمان في القرآن، بعدما كتب السابقون والمعاصرون؟ والجواب أن كل عصر مطالب بالنظر والتدبر في كتاب الله سبحانه.. وأن كل من آتاه الله حظاً من العلم الصحيح عليه واجب البيان والتذكير، بالأسلوب الذي يتفق مع عصره ومجتمعه..

إن بحوث العقيدة في الإسلام أكثر من أن تحصر.. ما بين قديم وحديث.. ولكن مناهجها متعددة.. فمن العلماء القدامى من شغلوا بالنظر في مقولات الفلاسفة ورد شُبَهِهم، ومعاناة فهم منطقهم! ولعلهم كانوا معذورين، في محاولاتهم تلك، حتى يكذِّبوا هؤلاء الفلاسفة، ويقطعوا عليهم الطريق للإضلال والجدل الباطل!

ولكن الإعراض عن هذه المقولات كان أولى من معاناة الرد عليها.. فإن نهج القرآن في عرض العقيدة قد اقتصر على رد شبهات المنكرين من الكافرين والمشركين بما هو عام يسع الناس جميعاً فهمه..

أما مجادلة أرسطو وأفلاطون وأضرابهما.. فإنه عناء لا ينتج عنه خير.. ولا يسع الناس جميعاً فهمه.. أو إدراك مَنَازِع الخطأ فيه..

○ وكذلك صنع بعض المعاصرين، في محاولاتهم لعرض العقيدة الإسلامية مقارنة بآراء الفلاسفة المعاصرين، والمذاهب الوضعية المتعددة!

وهذا أيضاً مما ينبغي الإعراض عنه وتوفير الجهد الذي يبذل فيه.. كما قال الحق سبحانه: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تَبِعُوا قبلتك وما أنت بتابع قِبْلَتَهم وما بعضُهم بتابعٍ قبلة بعض﴾ (١).

* * *

(١) سورة البقرة ١٤٥.

□ ومن هنا فقد اقتصرت في هذا الكتاب الموجز على عرض مسائل العقيدة الإسلامية في صورتها القرآنية الخالصة، وهي في خصائصها ودلائلها تقنع كل عقل سليم.. وتصل إلى كل قلب بعيد عن الهوى والتعصب والجحود.

والمسلمون اليوم بحاجة إلى أن يعرفوا حقائق دينهم المجردة، من كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، فهم لن يستطيعوا إقناع غيرهم بالتخلي عن جحوده واستكباره،ولن يستطيعوا مهما جهدوا التقريب بين مواقفهم ومواقف هؤلاء المستكبرين..

ولهذا فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يعرض عن مجادلات المشركين، ومحاولاتهم الباطلة للتوفيق بين الإسلام.. وبين عقائدهم الباطلة.. إذ زعموا أن بإمكانهم التوصل إلى حل وسط، بأن يعبدوا الله سبحانه، الذي دعاهم الرسول ﷺ لعبادته وتوحيده ـ يوماً.. في مقابل أن يعبد الرسول ﷺ آلهتهم الباطلة يوماً.. وهنا نزل الوحي بقول الحق سبحانه: ﴿قل يا أيها الكافرون. لاأعبدُ ما تَعْبُدون. ولا أنتم عابدون ما أعْبُد. ولا أنا عابدٌ ما عَبَدْتُّم. ولا أنتم عابدون ما أعْبُد. لكم دِينكم ولي ديني﴾.

وفي هذا المقام فإني أحذر من محاولات الداعين إلى التقريب أو التوفيق، بين الإسلام وغيره من الأديان المحرفة، ولا أرى فائدة مما يدعونه باسم الحوار بين الإسلام والمسيحية.. فقد قطع الإسلام أمر هذا الحوار، منذ جاء وفد نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ يجادلونه في شأن دينهم ودينه.. مما سجلته سورة آل عمران.. في آيات كثيرة.. انتهت إلى دعوتهم إلى كلمة سواء.. هي الجامعة لحقيقة الإيمان.. لكنهم رفضوا الالتزام بها وأصروا على باطلهم وافترائهم: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بَيْنَنا وبَيْنكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إلا اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا

يتخذَ بَعضُنا بعضا أربابا مِنْ دُونِ الله فإنْ تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مُسلمون﴾ (١).

وقد رفض هؤلاء تلك الكلمة السَّواء.. التي دعاهم إليها القرآن.. وما يزال أخلافهم يرفضونها.. ويصرون على عقيدة التثليث.. وادعاء نسبة الولدِ لله سبحانه، تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

وإذَنْ فما جدوى الحوار أو محاولة التوفيق، بين دينٍ يدعو إلى توحيد الله سبحانه، ويجعل هذا التوحيد هو أساس العقيدة.. وبين أديان أخرى تتخذ من دون الله أنداداً..

▫ والأعجب من ذلك محاولة الذين يحاولون التقريب بين الإسلام وبين مذاهب مادية وضعية تقوم على أساس إنكار قواعد الإيمان!!

○ إن علينا أن نقف عند حد الوفاء والولاء لعقيدتنا.. لا نخلطها بغيرها.. ولا نبتغي الحق فيما سواها.. فلا حق إلا في الاسلام، لأنه الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لعباده: ﴿اليومَ أكْمَلْتُ لكم دِينكم وأتممْتُ عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ (٢).

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (٣).

﴿ومن يَبْتغِ غيرَ الإسلامِ دينا فلن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (٤).

وإن أحقاد أعداء الإسلام إنما تزداد كلما رأوا استمساك المسلمين

---

(١) سورة آل عمران ٦٤.

(٢) سورة المائدة ٣.

(٣) سورة آل عمران ١٩.

(٤) سورة آل عمران ٨٥.

بعقيدتهم.. ووضوح خصائصها في سلوكهم.. وهو الذين قال الله سبحانه محذرا المسلمين منهم: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دِينكُمْ إن استطاعوا﴾ (١).

▫ إن الهجوم على العقيدة الإسلامية داء قديم، متأصل في أسلاف هؤلاء الجاحدين وأخلافهم.. وهم الذين ما تركوا باباً من أبواب الافتراء والتكذيب إلا سلكوه في حربهم لعقيدة الإسلام.. ما بين تكذيب بالوحي.. وتكذيب للرسول.. واتهام له بأنه شاعر أو ساحر أو مجنون.. وبأنه يتلقى هذا القرآن عن بَشَر يعلمه إياه!

ولم يبالوا أن يكون هذا البشر أعجمياً.. والقرآن عربي مبين! ولم يبالوا بوصف القرآن بأنه أساطير الأولين.. وبأنهم لو شاءوا لقالوا مثله.. مع كون القرآن قد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا..

وغير ذلك من الضلالات والمفتريات والشبهات الباطلة التي أوردها القرآن تسجيلاً لمواقف هؤلاء الكاذبين، ودحضاً لمزاعمهم حتى لا يخدع بها أحد.. ذلكِ لأن القرآن هو كتاب الحق.. لا يسكت عن شبهة إلا ردها ونقضها من أساسها بالدليل المقنع لأصحاب العقول البريئة من العِلل المستعدة للفهم والاقتناع..

هذه بعض شبهات المشركين.. فما بالنا بشبهات اليهود والنصارى.. وغيرهم من الطوائف والفرق التي أرادت إطفاء نور الإسلام.. وكرهت شروق شمسه على هذا العالم؟!

إنها لكثير.. وكثير! وقد أشار القرآن إليها وأتى على بنيانها من القواعد.

---

(١) سورة البقرة ٢١٧.

○ وبين القرآن لهذه الأمة أنها ما دامت على نهج الكتاب والسنة.. فلن يستطيع أحد أن يردها عن حقيقة الإيمان: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تُطِيعُوا فريقا من الذين أُوتوا الكتابَ يَرُدُّوكم بَعْدَ إيمانكم كافرين. وكيف تَكْفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ الله وفيكُمْ رسولهُ ومن يعتصمْ بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم. يا أيها الذين آمنُوا اتقوا الله حقَّ تُقَاتِه ولا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسْلمون. واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تَفرَّقوا﴾ (١)

○ ومن هنا فإننا ندعو في هذه المقام إلى وحدة الأمة الإسلامية في أمر عقيدتها.. على أساس من كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ.. فإن الاختلاف والتفرق في شأن العقيدة يؤدي إلى أن تصبح الأمة الواحدة أمما شتى.. ويثمر هذه الثمرة المريرة من التنازع والاحتراب والقطيعة.. واتهام بعض المسلمين بعضاً بالكفر والمروق!

لقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على وقوع الاختلاف والافتراق في شأن العقيدة بين هذه الأمة: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة» (٢).

وقد جاء في أحاديث أخرى أن من هذه الفرق فرقة واحدة ناجية، هي التي تتبع ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه.

وهذا أمر واضح، لأن الحق لا يتعدد ولا يختلف.. وإنما تختلف الأهواء وتتفرق الآراء!

○ وما أصاب المسلمين بأس أعظم من اتباعهم لآراء الرجال..

---

(١) سورة آل عمران ١٠٠ - ١٠٣.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢/٣٣٢. ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان.

وانقيادهم وراء أصحاب الأهواء.. إلا من وقاهم الله ذلك وثبتهم على نهج الكتاب والسنة!

ومن هنا تعددت الفرق.. ونُسب كل منها إلى شخص.. هو صاحب الرأي والفكرة والتوجيه..

ونسي هؤلاء المفترقون أن يسألوا عن حكم القرآن والسنة الصحيحة.. بدلاً من هذا الانقياد الذليل لاجتهاد شخص ما.. لا عصمة له.. ولا دليل من الحق يؤيده!

□ إن أعداء الإسلام يفرحون كلما رأوا كثرة أسماء الفرق والجماعات الإسلامية.. وهم يسعون جاهدين إلى تعميق الخلافات بينهم.. ومحاولات إبعاد بعضهم عن بعض.. حتى لا يعودوا إلى الوحدة والتآخي في الحق..

وواجب العلماء والدعاة أن يقدموا الحقائق الإسلامية في صورتها النقية المجردة عن الأهواء.. البعيدة عن العصبية.. حتى يلتقي المسلمون جميعاً حولها.. فإذا وقع خلاف بينهم فليكن في الفروع لا في الأصول..

وقد وسع الصحابة والتابعون من قبلُ الاختلاف في الاستنباط والأحكام الفرعية.. لكنهم لم يختلفوا في أصول العقيدة.. ولا في حقائق الإسلام..

وبعد.. فهذا الكتاب جهد بذلته حسب الوسع.. راجياً أن تكثر الجهود المخلصة في هذا الطريق المضيء ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾.

وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس الموضوعات

مطابع «دار الرائد العربي»
ص.ب: ٦٥٨٥ ـ تلكس ٤٣٤٩٩ LE ـ رائد